

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب

جلالة الحسن الثاني رائد الوحدة الإسلامية

رسالة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني
إلى المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية بإسلام أباد

ابن زكري من خلال الوجه المغربي

الأستاذ الفقيد إبراهيم الإلغي

• دعوة الحق • العدد 253 ■ محرم - صفر - ربيع I 1406 / أكتوبر - نونبر - دجنبر 1985

• الثمن 4 دراهم •

أبو عمر ابن عبد البر الناقد من خلال كتابه التمهيد

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
مديرية الشؤون الإسلامية



التقويم الهجري المغربي

للعام الهجري 1406

الموافق لسنة 1986 ميلادية
ولسنة 2296-2267 رومية فلاحية



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط. المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

❋

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

فهرس العدد 253



جلالة الحسن الثاني
رائد الوحدة الإسلامية

للأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

ما من شك في أن الأُمة الإسلامية، تواجه اليوم، تحديات قاسية خطرة، تتمثل في هذا التواطؤ المكشوف، لقوى البغي والعدوان، على الأمة الإسلامية تريد لها الفرقة والتنافر والتفتيت، وتشجع التوتر والحروب والفتن ليكون بعضنا فيها لبعض عدوا.

ولكن يبقى نور الله في ضمير هذه الأُمة يجلو لبصيرتها الطريق السوي، ويبقى معه دائما كتاب الله وسنة رسوله، دليلا هاديا في دياجي الظلمة ما إن اعتصمت بهما فلن تضل أبدا.

ويقيض الله لهذه الأُمة، تنفيذا لوعده، من يحرس وجودها ويحدو مسراها في شتى المواقع قياما بأمر الله.

وإذ يضج العصر بهذا النقع المثار من حروب البغي الآثمة، وفتن العدوان الحاصدة، تستنزف من طاقات الأمة ما ينبغي أن يدخر ويوجه لمعركة الوجود والمصير، وإذ يسجل العصر مع هذه التحديات ملتقى القادة : ملوكا ورؤساء وعلماء في مؤتمرات وملتقيات لمواجهة هذه التحديات، يأخذ المغرب موقعه المتميز في هذه الجهود النبيلة لرأب الصدع، وجمع الكلمة، بما يشهد لهذه الجبهة المغربية بقيادة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، أيده الله، بالحكمة والإقدام والبسالة والإخلاص والصدق في القول والفعل، والنبل في الوسيلة والهدف. وهذا ما جعل الأمة تكل إليه لواء قيادة العمل الإسلامي في أكثر من واجهة.

وفي هذا العدد رسالة من أمير المؤمنين إلى المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية بإسلام أباد بعث بها من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى موجها وداعيا إلى الوحدة والاتحاد، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله، صلوات الله عليه وسلامه.

وإذا كان لنا أن نذكر بما لجلالته في هذا المجال من دور فعال، فلنسترجع ذكرى المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد بالرباط بدعوة من جلالته عقب إقدام إسرائيل على إحراق المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وما حف بهذا المؤتمر من شعور قوي بضرورة التجمع والوحدة، وما تلاه من مؤتمرات إسلامية جامعة تستجيب لضمير الأمة المرهف ممثلا في عاهلنا أمير المؤمنين سبط النبوة، حفظه الله لشعبه وأمته ذخرا وملاذا، وحقق فيه وعلى يده الرجاء.

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

في رسالة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني إلى المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية بإسلام أباد :

• دراستنا للسنّة النبويّة وللسّيرة النّبوية تغنينا كلّ الغناء عن التماس الصّلاح والخير من مصادر أخرى

• ان العالم الذي تفتك به الصراعات والخصومات سيظل في تيهه وانحرافه، مالم ينهض المسلمون برسالتهم ويؤدوا الأمانة التي طوقوا بها لإرشاد الخليقة إلى الصراط المستقيم.

في أواسط شهر ربيع الأول 1406 (26 نونبر 1985) انعقد في إسلام أباد عاصمة باكستان «المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية»، وحضرته وفود تمثل الأقطار الإسلامية من بقاع المعمور.

وقد استهل المؤتمر جلسته الأولى بتلاوة آي من الذكر الحكيم، ثم أصغى المؤتمرون إلى رسالة أمير المؤمنين صاحب الجلالة الحسن الثاني الموجهة إلى المؤتمر، ألقاها الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، فكان لها كبير الأثر في نفوس الحاضرين، لما يمثله أمير المؤمنين سبط النبوة من مكانة في الأمة المحمدية، ترى فيه قبسا من نور جده المصطفى، وتتمثل فيه الشخصية الأصيلة للذرية الطاهرة آل بيت النبي ﷺ وعلى آله وصحبه.

وفيما يلي نص الكلمة الملكية السامية :



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين

صاحب الفخامة ،

حضرات السادة الأفاضل ،

يطيب لنا أن نستهل خطابنا هذا بخالص الشكر ، وصادق العرفان ، للجنة المنظمة لهذا المؤتمر الذي أريد له أن يخدم مقاصد الشريعة الإسلامية ، ويبرز سمو السيرة النبوية الطاهرة ، ويثري الفكر الإسلامي ، ويسهم في إغناء مجالات البحث والنظر والابتكار ، أخذاً للعبرة ، وسيراً على سنن السلف الصالح ، واتباعاً لمنهج الإسلام ، الداعي إلى اتباع الأسوة الحسنة ، وإعمال الفكر ، وإمعان النظر ، والغوص في أسرار سلوك الرسول الأمين عليه السلام ، الذي جعله الله قدوة صالحة للبشرية ، ومثالاً كاملاً في الأخلاق والتدبير والتسيير .

وليس يخفى أن اختيار موضوع السيرة النبوية الشريفة محوراً لمؤتمركم ، وركيزة لعملكم ، ومادة لبحثكم يلبي حاجة ملحة من حاجات تطلعات المجتمعات الإسلامية ، وينعكس أثره على إصلاح الواقع الإسلامي الراغب في العودة إلى منابع الأصول الإسلامية ، بإحياء السيرة النبوية تمثلاً وتطبيقاً ، ودراسة واستيعاباً ، واقتفاء واقتداء ، على هدي من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الطاهرة ، وعلى ضوء من الفهم السليم ، والعلم الصحيح ، والإدراك الحصيف ، والاستنارة والتبصر .

وإنه لمما يثلج منا الصدر ، أن يعقد هذا المؤتمر الهام على أرض باكستان الإسلامية ، التي قامت منذ نشأتها على أساس الإسلام فكانت بحق دولة الإسلام الصميمة في هذه المنطقة ، وتعزز بها الوجود الإسلامي في هذه القارة ، واعتز بها المسلمون في كل أصقاع الأرض .

ولا عجب أن يسعى هذا البلد الطيب المؤمن إلى إحياء ما يريد الخصوم أن يقضوا عليه من معالم الإسلام في هذا الجزء من العالم الإسلامي ، ولا غرو أن يشمر المسلمون الصادقون في هذه البقعة لإقامة شريعة الله ، والنضال في سبيل إعزازها ، وتطبيق أحكامها وتشريعاتها ، ملتفين حول أخينا وشقيقنا فخامة الرئيس ضياء الحق ، الذي آلى على نفسه أن يسير في حكمه للبلاد طبق المنهج الإسلامي السوي الذي قامت على أساسه دولة باكستان ، متخطياً كل الصعاب التي تعترض طريق العاملين في هذا السبيل ، ومحتسبين عملهم لله رب العالمين .

إن واقع أمتنا الإسلامية في الظروف الراهنة ، يدفعنا إلى أن نجعل في مقدمة المهام التي يجب أن تبذل من أجلها الجهود ، إعطاء مدلول البعث الإسلامي صورته الحقيقية بترشيد الصحوة الإسلامية وتوجيهها ورعايتها ، وفق ما تقتضيه مصالح الأمة ، وفي إطار مقاصد الشريعة التي يتعين الاستمساك بها ، والخضوع لمنابعها الصافية التي هي الكتاب والسنة النبوية الصحيحة ، مهتدين بالهدي النبوي الشريف ، دون مغالاة أو تفريط في شؤون دنيانا ، وغير منحرفين عن المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ، بما يلزم ذلك من الاستقامة على الطريق اللاحب الذي اختطه رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، من غير تزيد أو ترهب ، ودون تنطع أو انسياق مع الهوى والغرض .

والحق الذي لا مراء فيه ، أن الإسلام قرآن وسنة ، وأن تطبيق تعاليمه ينبغي أن يكون على هدي ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، ومن هنا كانت دراستنا للسنة النبوية وللسيرة النبوية تغنينا كل الغناء عن التماس الصلاح والخير في مصادر أخرى من شأنها أن تفرق بنا السبل وتتيه بنا في متاهات الانحراف والزلل .

لقد كان المسلمون سادة هذا العالم ، يوم كانوا يدركون حقيقة الإسلام ، ويتبعون سنة رسولهم المصطفى عليه السلام ، وينحون في حياتهم كلها نهج سيرته ، فازدهرت دنياهم ، وامتد سلطان دينهم إلى آفاق المعمور إشعاعاً وإرشاداً وتعميماً لمبادئ الخير والحق والسلام .

ولست بحاجة إلى القول ، وقد بسطت بين أيديكم هذه الملامح المختصرة من ديننا الحق ، أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية ، وأنه جمع عصارة ما جاءت به الأديان السماوية السابقة ، واشتمل على فضائلها كلها ، فهو بذلك بلغ قمة الاكتمال ، وسنام الرشد ، وصدق الله العظيم : (إن الدين عند الله الإسلام) ،

وأن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء والرسل ، فلا نبي ولا رسول بعده ، ورسالة الرسول رسالة كاملة ، وهي مهداة إلى البشرية كافة ، باتباعها يسعد البشر ، وبالسير في منهاجها يسود الأمن والطمأنينة والسعادة والعدالة والسلام .

أيها السادة الأماثل،

لقد سبق لي أن وجهت خطاباً للأمة الإسلامية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، من جملة ما جاء فيه: (ولا شك أنه ما من أحد من خاصة المسلمين وعامتهم، الذين شهدوا هذا الحادث التاريخي السعيد، إلا وهو مدعو للتأمل في الماضي القريب والبعيد، تأملاً دقيقاً، ومطالب بالنظر في الوضع الحاضر نظراً فاحصاً وعميقاً، إذ بدون مراجعة للماضي، ونظر في الحاضر، لا يمكن التطلع إلى آفاق المستقبل، واستشراف ما يتوقع فيه من وقائع وأحداث تنعكس آثارها على مسيرة الإسلام وحياة المسلمين). ومن هنا فإن مسؤوليتنا تجاه إسلامنا وعقيدتنا مسؤولية ضخمة، وتعظم هذه المسؤولية أمام التحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين في مختلف المجالات.

إن التطور الحضاري والتكنولوجي الذي يسير فيه العالم المتحضر، يفرض علينا أن نساير الركب، ونكون في مقدمة الصفوف، ونعمل جميعاً على تطوير بلداننا وترقيتها والدفع بالحضارة الإنسانية إلى الأمام، متأسين بسلفنا الصالح، ومحافظين على تعاليم الإسلام الذي دعانا للعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً، وللعمل لديننا كأننا نموت غداً.

لقد أنعم الله علينا بنعم متعددة، لا نستطيع أن نوفيه الشكر عليها، وتتجلى هذه النعم في هذه العقيدة الصافية الموحدة، وفي هذه التعاليم الواضحة التي تعتبر بحق منهاجاً كاملاً للحياة المستقرة المطمئنة، والمؤدية إلى السعادة في الدارين.

لقد حكم الله علينا بأننا أمة واحدة، نعبد إلهاً واحداً وندين بدين واحد، ونتبع رسولاً واحداً، ونستمد توجيهاتنا من كتاب واحد. وإذا كانت عوامل الزمان، وظروف الأيام، فرقت بين الأمة الواحدة وجعلتها أمماً متعددة، فنحن مدعوون كل منا حسب موقعه، إلى استرجاع معنى الأمة الواحدة، وإلى تحقيق الأمة الإسلامية الموحدة. ولا شك أننا أمام الخطر الذي أصبح يتهددنا، خطونا الخطوة الأولى في تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة عندما دعونا إلى مؤتمر القمة الإسلامية بأرضنا المغربية المسلمة، والذي نتج عنه تكوين منظمة المؤتمر الإسلامي التي التي أصبح عملها ومردودها يعطي ثمرته لصالح القضايا الإسلامية في المعمور، ولكننا مع ذلك مدعوون بهذه المناسبة إلى تجديد العهد، ومضاعفة الجهد، لنعطي لمضمون الأمة الإسلامية معناه الكامل، فنواجه التحديات التي تواجه المسلمين، بفكر واحد، ورأي واحد، وعمل موحد.

أيها السادة،

إنه لا يمكننا أن ننسى ولا أن نغفل، ونحن نجتمع بمناسبة ذكرى مولد الرسول والتأسي بسيرته، أن المسجد الأقصى ثالث الحرمين وثاني القبلتين، ومسرى الرسول وموطن معراجه، لا زال يئن تحت قبضة الصهاينة الغاصبين، كما لا ننسى ونحن مجتمعون في باكستان، شعباً مسلماً مجاوراً لهذه الديار، يعاني منذ سنوات آلام حرب ظالمة سلطت عليه، ويقاسي آلام احتلال جيوش أجنبية تفتك به، وأعني به الشعب الأفغاني البطل، الذي حمل السلاح دفاعاً عن استقلاله، وحفاظاً على إسلامه، ونضالاً من أجل تقرير مصيره بنفسه.

أيها الإخوة المؤمنون،

إن كلاً من الشعبين الفلسطيني والأفغاني يناشداننا أن نشد من أزرهما ونحميهما من غارات المغيرين، واعتداءات المتسلطين، وإنه من واجبنا الديني والوطني أن نقف لجانبهما حتى تحققا مطامحهما في الحرية والاستقلال وتقرير المصير.

إن المسلمين ملزمون اليوم بأن يستأنفوا دورتهم الحضارية، تأثيراً في العصر، وتجاوباً معه، ودعوة للناس كافة إلى الدخول في السلم تحت راية التوحيد لما فيه صلاح البشرية في يومها وغدها.

وإذا كانت هذه هي المعاني التي نستمدها من هذه المناسبة، فإن أمانة التبليغ تقتضي منا أن نؤكد على حاجة الإنسان اليوم إلى الإسلام، للخلاص وللتحرر وللإنقاذ. فالبشرية المعذبة من جراء الحروب والتطاحنات، تتطلع إلى إلى الإسلام بشوق عارم، وبرغبة أكيدة، سواء شعرت بذلك أم لم تشعر، لأن كل جنوح إلى السلام الروحي، والأمن الفكري، والسعادة القلبية، هو تعبير عن المثل العليا التي تجمعت في ديننا، فكان بها دين الإنسانية كلها بحق ويقين.

إنّ العالم الذي تفتك به الصراعات والخصومات، سيظلّ في تيهه والخرافة، ما لم ينهض المسلمون برسالتهم، ويؤدّوا الأمانة التي طوّقوا بها، لإرشاد الخليقة إلى الصراط المستقيم.

ونحن هنا في هذا الجناح من بلاد العروبة والإسلام، سنبقى إن شاء الله، وستبقى أسرتنا وشعبنا من بعدنا، كما كنّا من قبل، محافظين كلّ المحافظة، على إسلامنا وعقيدتنا، ذائدين عن حوضهما، نافين عنهما ترّهات المبطلين، وزيادة الزائدين، وأراجيف الأخلاء على الدين، مشجّعين كلّ من يعمل لصالح الإسلام الحق، المطهّر من الأفكار الدخيلة، والشعوذة المصطنعة، عاملين على النهوض بمسؤولياتنا في المجال الإسلامي والعربي، مدافعين عن حقوق المسلمين، ونصرة المظلومين، من كلّ جنس ودين.

ولقد عاهدنا الله منذ أن قيّض سبحانه وتعالى، لنا النهوض بهذه الأمانة استمراراً واقتداءً برسالة آبائنا وأجدادنا طوال أربعة قرون، على أن نخلص الجهد، لخدمة الإسلام، ولنصرة المسلمين، ساعين من أجل تعميق التضامن الإسلامي، ومتشبّثين بفكرة الأمة الإسلامية الموحّدة، ومكافحين لإعلاء كلمة الله.

أيّها الحفل الكريم،

إننا لجدّ مسرورين بهذه الصحوة الإسلامية المباركة التي عمّت أنحاء العالم الإسلامي، وما مؤتمركم هذا إلاّ معلمة من معالمها، فسيروا على طريق الإسلام، وكونوا رسله الصادقين، وهداته المهديّين، ودعاته المخلصين.

وفّقنا الله وإيّاكم لما يحبّه ويرضاه، وأعاننا على القيام بواجبنا نحو ديننا وأوطاننا. وصدق الله العظيم: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتّبعني وسبحان الله، وما أنا من المشركين)

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحرّر بالقصر الملكي بالرباط في يوم السبت 10 ربيع الأول عام 1406 هـ الموافق لـ 23 نونبر سنة 1985 م

في الدعوة والدعاة

للعلامة الأستاذ عبد الله كنون
رئيس المجلس العلمي الإقليمي لطنجة

الكلام على الدعوة والدعاة أصبح من المعاد المكرور بعدما كتب فيه من المقالات ووضع عنه من المؤلفات. وإذا كان الاعتبار بالأعمال لا بالأقوال فالأمر كما يقول البوصيري :

وإذا البينـــات لم تغن شيئـــا
فـــالتمـــاس الهـــدى بهن عنـــاء

ولعل أعظم ظاهرة تلاحظ على الدعوة والدعاة في الحقبة الراهنة، هي إلباس الإسلام لباس التفسير المادي والتعليل الإديولوجي المستورد الذي كان يلجأ إليه بعض المصلحين في فجر القرن الرابع عشر المنصرم للرد على خصوم الدين الحنيف، وتزييف اتهاماتهم له بمجافاة سنن التطور وعدم مجاراة الحياة العصرية، وكان ذالك ضرورة لإفهام الخصم وتثبيت بعض الشباب المتعلم بالغرب على العقيدة الإسلامية التي ربما زعزعتها شبه الماديين الملحدين.

ومع ذالك فإن العلماء المصلحين، لم يكونوا يتعمقون في الاستدلال والاحتجاج بما يجعل الدين يكتسي صبغة المادية المطلقة، وإنما ياتون بما يضطرون إليه مما يومن به المتمردون على الحق وعلى المغيبات التي ينكرونها، ليلزموهم ويبطلوا دعاويهم، فآل الأمر الآن إلى تجاهل الناحية الروحية بالجملة والتفصيل واعتماد التفسيرات المادية والجنوح إلى الشروح العلمانية كما يسمونها، وهي التي ليس للعلم الصحيح فيها حظ ولا نصيب، حتى أصبح الدين مادة محضا وتجربة رياضية يستبعد عنها كل ما ليس محسوسا ومالا يدخل المختبرات الكيماوية، ومن ثم لم يبق مستغربا أن يرفع الكثيرون من المغرورين شعار (العلم لا يعترف بالدين) أو (ان حقائق العلم وتعاليم الدين متضادتان)، ومنهم من يتأفف من ذكر النار وعذاب الآخرة، ويعد خطيب الجمعة الذي يروي أحاديث الحساب والصراط وجهنم خطيبا متخلفا منفرا مقنطا من رحمة الله.

ان هذا شيء واقع يعلمه الجميع، ونسمع ما يدل عليه من أكثر من مسرف على نفسه، ونقرأ في الصحف اليومية من حين لآخر ما يشعر به ويزرى على العلماء الذين ما يزالون يفهمون الدين على أنه سوط عذاب يصب على المتدينين صبا، بل إن واجهات المكتبات، تتكدس فيها المؤلفات الجديدة التي تحمل أسماء إسلامية وهي في جوهرها إنما تعكس أفكارا اشتراكية وماركسية مغلفة بشرع الإسلام ودعوى الإسلام، وبعضها لا يخجل أصحابه من تسميته باشتراكية الإسلام أو الإسلام الاشتراكي وما أشبه ذلك، لأن الغزو الفكري والإديولوجي الأجنبي قد ملا شعاب النفس عند الناشئة العصرية، فبات من المسلم به أن ينزل الدعاة المهزوزون على إرادتها وترضيها بأكثر من وجه لتصحيح نظرها.

على أن بعض الكتاب من أصحاب هذه المؤلفات هم ممن يترضون الحكام الذين يصطنعون أنظمة الحكم الأجنبية من ديموقراطية واشتراكية ويزعمون أنها تستمد

مبادئها من الإسلام تضليلا لشعوبهم وخداعا لهم، حتى الذين يدورون في فلك الشيوعية ويسمونها بغير اسمها لايعرفون من يزكي عملهم ويحمله على الإسلام حملا رغبة ورهبة، وتزلفا وطمعا.

والذي لا يحقق الأمور يرى واجهات المكتبات المشار إليها، فيعتقد أن الدنيا بخير وان الدراسات الإسلامية في نمو وازدهار، وقد أثرت الخزانة الفقهية والعقائدية بمآت الكتب والمؤلفات القيمة، والحقيقة في ذالك أشبه بما جاء في الحديث الشريف : «الناس كإبل مئة ليس فيها راحلة».

هذا من جهة ومن جهة أخرى أصيبت الدعوة بدعاة ضررهم أكثر من نفعهم، وهم ممن أعدوا لهذه المهمة إعدادا وابتعثوا من طرف مؤسسات إسلامية أو حكومات محترمة، فضلا عمن انتصبوا من تلقاء أنفسهم للدعوة بالداخل والخارج، وكانوا قبل قليل أفرادا يعدون على أصابع اليد الواحدة فلم ينتبه إليهم احد، وإن حصل ان تبعهم بعض الناس فلم يكن بذالك بأس، لاسيما وهم ممن عرف بالعلم ومتانة الدين، فلا يخشى على من تبعهم فتنة.

هؤلاء الدعاة هم الذين يتبجحون باتباع السنة ويرمون غيرهم بالابتداع، ويفرقون بين المسلمين ولا يصلون خلف الأئمة المرتبين في المساجد، يطعنون فيهم بطعون مختلفة، ويصلون خلف العوام من أصحابهم وإن لم يحسنوا قراءة الفاتحة فأحرى ما دونها، وان تمكنوا من إحداث مساجد خاصة بهم لم يعودوا يعرفون المساجد الجامعة، وربما منعوا غيرهم من ارتياد مساجدهم المحدثة، كما يقع ذالك كثيرا في بلاد الغربة بأروبا، وتحدث عن ذالك مشاجرات ومضاربات تؤدى أحيانا إلى تدخل الشرطة الأجنبية واقتياد المتنازعين إلى القسم حيث تحرر لهم محاضر ويرفعون إلى المحاكم.

ولا يفهم من السنة التي يدعون التمسك بها، السنة المعتبرة شرعا الثابتة بالرواية الصحيحة، بل مسائل الخلاف المذهبي التي أخذ الأئمة المجتهدون المقلدون في العالم الإسلامي، كل بما ثبت عنده فيها أو رجح في نظره مما لادليل عليها قاطعا، وهي التي تختلف فيها المدارك ولا يكون قول هذا الإمام أولى من قول ذالك ولا أحق بوصف السنة من مقابله.

لكن هؤلاء المتعصبين لايتورعون عن وصف مذهبهم بالسنية ووصم غيره بالبدعة فيحدثون في نفس أتباع المذاهب الأخرى بلبلة وارتباكا، وترجع هذه الفئة إلى فقهائها فيصححون لها ما هي عليه، وتنشأ الجفوة ويبدأ الخصام الذي يصل إلى الطعن في الأئمة وتجهيلهم، ناهيك بالعامة إذا ظنت أنها على شيء من العلم، إذ يصبح المندوب واجبا والصلاة باطلة لتركه. هذا على تسليم أنه مندوب وما هو إلا اجتهاد يحتمل ويحتمل.

والاجتهاد إنما يكون
في كل ما دليله مظنون

ولئن كان علماء الإسلام المجتمعون في مؤتمر القدس، منتصف القرن الماضي، قد قدموا للصلاة بهم الشيخ آل كاشف الغطاء، وهو شيعي، فأغلقت بذالك المحاريب التي كانت تختص ببعض المذاهب في المساجد الكبرى بالمشرق كالأزهر والأموي، فمن المؤسف أن هؤلاء «السنيين» المزعومين يريدون إحياءها الآن بجماعتهم الخاصة في المساجد العمومية أو بمسجد ينفردون به عن جماعة المسلمين، فهل نحن نسير إلى الأمام أو نمشي على القهقرى ؟

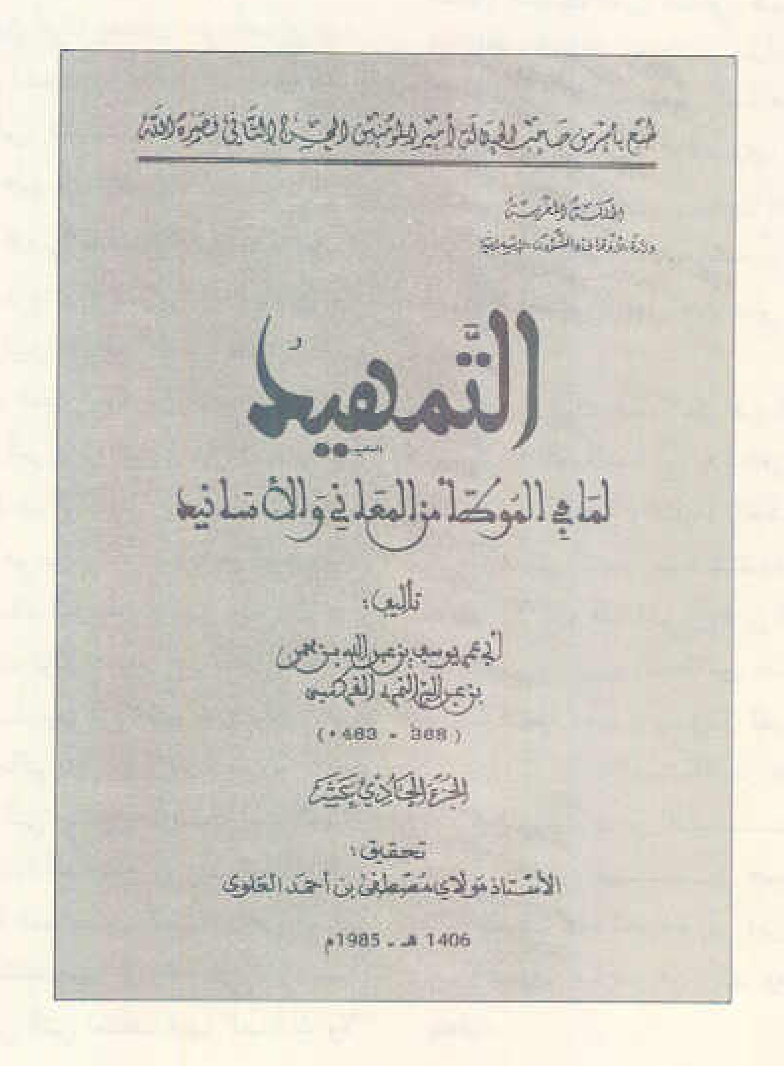
وقد أثرت هذه الظاهرة التنطعية على علاقات الجاليات الإسلامية في بلاد الغربة، ما لم تؤثره من قبل الانتماءات الطرقية والقبلية، وانعكست آثارها على الصحافة الأجنبية التي كتبت عنها منتقدة ومتحرشة بالإسلام على عادتها ولا غرو فقد قال عروة بن الورد منتقدا ما ينصح به أهل خيبر من يريد النجاة من حماها :

وقالوا أحب وانهق لا تضرك خيبر
وذالك من (دين اليهود) ولوع
لعمري لئن عشرت من خشية الردى
نهيق حمير إنني لجزوع

فنسب هذه الخرافة إلى دين اليهود من غير أن يعني نفسه بمعرفة ما هو من دينهم وما ليس منه، لأنه رآهم يفعلونه.

وهكذا قال أحد المسلمين الجدد بفرنسا، متضجرا من خلافات المسلمين التافهة : انني أسلمت إسلام الوفاق ولم أسلم اسلام الخلاف، وهذه المسائل إما أن تكون واجبة فلا يجوز مخالفتها، وإما أن تكون غير واجبة فلا يجوز أن ينكر بعضكم على بعض بسببها.

وإذن فعلينا أن ندبر أمر الدعوة والدعاة على الميدان لا على الورق، ونحسم العمل بالنسبة للصنف الأول من الدعاة فنتعقبهم ونقعد لهم كلّ مرصد ونطهر الساحة من تظاهراتهم وإنتاجهم واستغلالهم لاسم الإسلام وهم يضربونه في الصميم. أما بالنسبة للصنف الثاني من الدعاة الذين يسمون أنفسهم بالسنيين فليس يكفي أن يوفر الشخص لحيته ويحلق شاربه ويحمل في طوقه عود سواك، ليقول لنا أنه داعية، فنوكل له العمل في مركز إسلامي أو نعينه إماما في مسجد أو أستاذا في مدرسة، حتى نختبر علمه وسلوكه وفهمه لروح الإسلام والإصلاح الاجتماعي الذي جاء به، ونتأكد من أن قصده هو الإرشاد لا الارتزاق ونلقنه طريقة البلاغ التي كان الرسول الله ﷺ يتبعها ويأمر بها، وهي التي تجمع ولا تفرق وتهدى ولا تضل، فلا يكون ممن يأتيهم السائل بمشكل فيردوه بعدة مشاكل أو من يوسوس له الشيطان فيكونون عونا له عليه، والخلاصة أن يكون منطلقه الدائم هو قوله تعالى : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾، وقوله عليه السلام : «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وسددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة» وبالله التوفيق لارب سواه ولا نعبد إلا إياه.



صفحات من مذكرات

لها من العمر ربع قرن !

للدكتور عبد الهادي التازي

«...وقبل أن نأخذ طريق المطار استقبلنا من لدن جلالة الملك محمد الخامس الذي ألقى فينا كلمة توجيهية : «إن مهمتكم لا تقتصر على أداء المناسك ولكنها تهدف أيضا إلى التعريف ببلادكم التي تقبل اليوم على عهد جديد بعد استرجاع استقلالها، وأنتم عون للحجاج الآخرين، خذوا بيدهم وأسعفوهم واجتهدوا في أن تخففوا من عناء الذين يشرفون على شؤون الحج في المملكة العربية السعودية...».

وقد كان أعضاء الوفد كما أذاعته الرسالة الملكية يتألف من السادة : الرئيس البكاي ـ الأمير ولد عمير ـ الدكتور الخطيب ـ الأستاذ عبد السلام الفاسي ـ المكي بادو ـ عبد الهادي التازي.

غادرنا مطار سلا على متن كونسطلاسيون في الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة من صباح يوم الجمعة 27 ذي القعدة 1378 وهو يوافق اليوم الخامس من يونيه 1959 بالتوقيت الشمسي، إنها رحلتي الثالثة عشرة عبر الجو.

كان في وداعنا طائفة من الأحباب والرفاق ممن وردوا للتبرك بمن يقصدون رحاب الله... بعد إغماضة جفن استيقظت على خيوط الشمس... لقد كنا ـ ونحن متجهون صوب المشرق ـ نبحث نحن عن مطلع الشمس... الحجاج بلباسهم الأبيض بين مرتل وذاكر... تلوت حصتي من القرآن الكريم لهذا اليوم : «يا بني آدم إما يأتيكم رسل منكم»، الآيات.

نزلنا مطار بنينة (بنغازي) للراحة قليلا حيث اجتمعنا بسعادة الأستاذ عبد الهادي الشرايبي رئيس البعثة الدبلوماسية المغربية الذي وجدناه في استقبالنا إلى جانب موظفين سامين من وزارة الخارجية في المملكة الليبية...

هل نصلي أو نتناول فطورنا الأول ؟ في الناس من اقترح البداية بالصلاة للتفرغ للأكل كما يجب لكن الدكتور الخطيب ألح على البداية بالأكل معلقا على ذلك بقوله : «إن الأصحاء في الصين يؤدون ـ ما داموا أصحاء ـ لطبيبهم ضريبة سنوية فإذا مرضوا انعكست السيرة فعالج الطبيب المرضى مجانا، فلأجل أن يظل الطبيب مستفيدا منكم ـ يقول الدكتور ـ تناولوا أكلكم أولا...

قضينا بعض الوقت في الحديث، ثم أخذنا متن الطائرة من جديد... تناولت غدائي على مضض لصداع ألم بي في أذني اليمنى... الحديث كان يروج بين الحجاج : هل سنبدأ بالزيارة أو بالحج ؟ وهل سيتم حجنا بالإفراد أو بالقران أو التمتع ؟

وإذا كان الرأي بالنسبة للموضوع الأول قد استقر على الفكرة الأولى ربحا للوقت، فقد وقع اختيار الزملاء على أن يقوموا بحجهم مفردين على أن يقوموا بالعمرة فيما بعد... على ما يقتضيه النحو الواضح.

لقد وطئنا أرض جدة في الساعة السابعة وخمس دقائق بالتوقيت المحلي، فما حديث الساعة هنا ؟ إن الفرق الطبيعي بين المملكتين ثلاث ساعات... لكنا وجدنا هنا اصطلاحا آخر فيما يتعلق ببداية الساعة : إن الغروب هنا دائما يكون في الثانية عشرة... في المغرب نجد أن الساعة 12 تعني وقت الزوال... وهنا تعني وقت الغروب... كانت مناسبة لتذكر دروسنا عند الشيوخ الأجلاء، العلمي والرجراجي والصبيحي ! إن بداية اليوم هي من الغروب... ومعهم حق، إذ إننا نعتبر رمضان ابتداء من ظهور الهلال عند الغروب... لكن الظاهرة التي أربكتنا حقيقة هي أنهم في جدة يعتبرون هذا اليوم يوم 29 وليس يوم 27 كما عندنا بالمغرب... يومان اثنان فرق، فهل يعقل هذا ؟

لقد وجدنا سعادة السفير الشيخ محمد غازي صحبة الرفيق المستشار السيد أحمد الشرقاوي في انتظارنا حيث أخذنا توا إلى دار السفارة... رأينا العلم المغربي يخفق على أعلى المبنى... كلنا كان يشعر بارتفاع درجة الحرارة... إن درجة الحرارة في الصالون المكيف تتجاوز إحدى وثلاثين، طبعا إلى الرطوبة التي عرفت بها جدة... إن الذين عهد إليهم بخدمتنا لا يفتأون غادين رائحين يحملون إلينا البارد اسم السكرتير (عبد الحي) يظل على لسان الكل ! حتى بالنسبة للذين يرغبون في الماء ! هات بارد ! هات بارد ! ومع هذا فقد كان الأستاذ غازي يهنئنا بالخطوة التي حبتنا بها الطبيعة حيث إن درجة الحرارة خفت هذا اليوم !! وقد كان السفير الصغير جمال الدين غازي يلوذ بأذيال والده مكتفيا باختلاس النظرات في هؤلاء الزوار الجدد !!

في انتظار ترتيب السكن والقيام بعمليات تحويل العملة... ومراجعة لوائح أصحاب الصلات الملكية... كل يقوم بالمهمة التي أسندت إليه... لقد كان من عملي مساعدة السيدين الفاسي وبادو في التثبت من أسماء الذين «يوصلون» عادة من لدن ملك المغرب من سكان الحرمين في كل موسم من مواسم الحج... فلقد جرى الأمر، منذ القدم، على تبليغ عائلات معينة وأفراد معروفين بمبالغ منتظمة من المال على ما هو معروف في حوالات الأوقاف القديمة... إن الملوك في المغرب لا ينسون واجبهم في المشرق... لأنهم، مع ذلك المشرق، يعيشون آناء الليل وأطراف النهار...

وبعد زوال هذا اليوم الجمعة... كنا على موعد مع اللقاء المفيد الذي نظمه سعادة السفير في بيته للاجتماع بعدد من الشخصيات السامية في جدة، كان فيها الأمير والوزير والعالم والأديب...

لقد كنت، شخصيا، أحمل معي رسالة بتاريخ 24 ـ 11 ـ 1378 (1959/6/1) مرفوعة من وزير التهذيب الوطني الإستاذ عبد الكريم بن جلون إلى صاحب السمو الملكي الأمير فهد وزير المعارف آنذاك بالمملكة العربية السعودية بواسطة وزارة الشؤون الخارجية المغربية، كان هذا نص الرسالة :

«السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا الإمام دام له العز والتأييد.

«وبعد فاغتناما لفرصة وجود الوفد المغربي الرسمي بالأراضي المقدسة بمناسبة موسم الحج، رأيت أن أعهد لأحد أعضائه الأستاذ عبد الهادي التازي رئيس الفرع الثقافي بوزارة التربية الوطنية بالاتصال بوزارة المعارف السعودية بغية الوقوف في عين المكان على مختلف مظاهر النشاط الثقافي ببلادكم العزيزة، ثم على بعض الأماكن التاريخية التي كان لها شأن يذكر في الإسلام... وإني إذ أجدد لسموكم تقديري الكبير آمل للمملكة العربية السعودية اطراد التقدم والنجاح في كنف عاهلها العظيم أبقاه الله ذخرا للإسلام والعروبة...».

لقد كنت أتوق للاجتماع بعدد من السادة الأجلاء في السعودية ممن عرفتهم في مؤتمر الأدباء الذي جرى

بالكويت قبل نحو من ستة أمثال الأساتذة عبد العزيز الرفاعي - أحمد السباعي، أو سمعت بهم أو قرأت لهم أمثال الشيخ عبد القدوس الأنصاري صاحب مجلة (المنهل) وكنت أقرأ له في المجلة المذكورة... وقد بشرنا السيد السفير أننا على موعد مع الأستاذ الأنصاري ظهر هذا اليوم...

لقد كنت أعرف الأستاذ الأنصاري في الواقع عن طريق الخلايا الوطنية التي كنا ننتمي إليها... والتي كانت تفتح عيوننا على ما ينشر بالخارج...

مازلت أذكر - مع رفاقي في الخلية - تهافتنا على استنساخ الجزء الممتاز من مجلة المنهل الذي صدر في نهاية العام الثاني من حياة المجلة وبالضبط في شهر شوال وذي القعدة 1357 - نونبر - ديسمبر 1938.

حديث في ذلك العدد عن نجاح المنصور على ذي النفس الزكية... وحديث آخر عن بساطة قواعد اللغة العربية... وثالث عن كتاب الدكتور طه حسين : «حافظ وشوقي...».

وقد عشنا في هذا العدد مثلا مع بشرى نجاح سمو الأمير عبد الله الفيصل في اختيار شهادة الدراسة الابتدائية...

فعلا وجدنا أنفسنا في دار السفارة المغربية بجدة مع نخبة مختارة من أهالي المملكة... من رجال العلم والفضل فيهم صاحب المنهل حيث أخذت لنا عدد من الصور التذكارية، لقد اكتشفت في الشيخ الأنصاري زميلا وأخا كأنني كنت أعرفه منذ زمن طويل فقد ظللت ملازما له سواء عند تسجيل الفوائد أو تقديم الموائد !!

تبودلت عدة أحاديث تاريخية وأدبية واجتماعية...

تساءل بعضنا عن موقع بئر حاء الذي تقع عليه «ما» في الآية الشريفة : **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** حيث دلنا الحاضرون على موقع البئر في المدينة المنورة.

وتساءل بعضنا عن بئر أريس حيث وقع خاتم رسول الله الذي نقش عليه اسم «محمد رسول الله» وصار إلى عثمان بن عفان، فوقع منه في هذا البئر الذي يحمل عند بعض الناس اسم بئر الخاتم...

كان حديثاً طريفاً عن الحركة الأدبية في بلادنا وفي السعودية... مقارنات ومفارقات... لقد كان الشيخ عبد القدوس من أبرز أركان النهضة الثقافية في المملكة بما كان يسهم به من فسح المجال في مجلته الوحيدة على ما نعرف لسائر رواد الفكر في المملكة وغيرها على هذا العهد...

وما زلت أذكر سؤالا وجهته إليه آنذاك... هل إن كل ما يصل للمجلة قابل للنشر ! أجاب نعم بالنسبة لمعظم ما يرد علينا، لكن البعض الآخر يكون بحاجة إلى تصليح أو تنقيح... واننا نسعى إلى أن نشجع الكتّاب الناشئين ولهذا فنحن لانتردّد في إدخال التحسينات الضرورية على ما قد يصلنا مما يحتاج إلى تعديل... لقد أخذ أشياخنا بيدنا - يقول الأستاذ عبد القدوس - فلِمَ لا نأخذ نحن بأيدي أبنائنا ؟

كانت فرصةً أن يقدم لزملائنا السعوديين العدد الثامن من مجلة «دعوة الحق» الذي صدر في شهر مايه 1959 - ذي القعدة 1378 حيث تجاذبنا أطراف الحديث حول مواد المجلة المغربية المذكورة وتعرضت لبعض الأسئلة حول ما جاء في العدد المشار إليه بعنوان : «الاسترشاد بروح النصوص قديما وحديثا».

ولقد توجهت بالسؤال للسيد عمر السقاف حول ما إذا كانت له علاقة بالشيوخ باعلوي السقاف الذي رحب بوفادة مغربية برئاسة الشيخ أحمد سكيرج وردت على هذه البقاع قبل أربعين سنة حيث ألقى خطاباً تحتفظه المصادر المغربية... تدخَّل الشيخ عبد القدوس ليذكر أن بيت السقاف بيت من حضرموت أصلا... وتساءل هل ما إذا كان القصد إلى علوي بن أحمد السقاف الذي توفي بمكة أو باعلوي الذي أدركه أجله بحيدر أباد... وقد أيد السيد عمر هذا التدخل مضيفاً إليه حديثاً جدّ مفيد عن بيت السقاف ومكانته في العلم والصلاح وسرد عدداً غير قليل من المنتسبين لهذه الأسرة.

كانت أمسية ثرية بفوائدها وموائدها... نسينا معها أننا ما نزال لم نتعرف على غرفنا الجديدة في فندق قصر

الكندرة... لكننا افترقنا على موعد مع الشيخ الأنصاري الذي ألح على أن يرانا في بيته...

لقد كان أول ما أثار انتباهي وأنا أقف على مرافق الغرفة، هذه العبارة الغريبة التي كتبت على ورقة أمام عيني فوق الأنبوب : «المرجو من السادة النزلاء أن يقتصدوا ما أمكنهم ذلك في استعمال الماء وذلك لقلته بجدة حالياً»...

ولقد كان في صدر ما قمنا به في اليوم الموالي : السبت زيارة لسمو الأمير فيصل ولي العهد المملكة السعودية... كانت كل ملامحه تدل على أنه شخصية عظيمة... بعيدة النظر... لقد أثنى على جلالة محمد الخامس وشكر جهوده المتوالية من أجل استقلال الجزائر... وفي معرض حديثه عن مشاكل البلاد الداخلية قال : «إن أوضاع البلاد العربية الداخلية تتحكم إلى حدّ كبير في المشاكل الخارجية..»

لقد كانت درجة الحرارة في مقر رئاسة الحكومة منخفضة تجعلك تفكر فيما عساه يطرأ على الذين لم يعتادوا هذه المكيّفات، وقد شعرنا ونحن نقترب من باب القصر عند الخروج أننا نستقبل ثوْباً من حميم..!

وقد كنا على موعد في الغروب مع القافلة التي تأخذنا إلى المدينة المنورة في نفس اليوم السبت...

ذكريات لا تنسى عن المدينة المنورة وفندق بهاء الدين ومراوحه السقفية البطيئة الحركة.!! وكان من الذين تناولتهم مذكرتي الدكتور مولاي أحمد العراقي رئيس البعثة الصحية المغربية...

كما أنها اشتملت على حديث عن الضابط الخاص سالم البار الذي ظل مرافقا للركب المغربي طيلة مقام الوفد بالمملكة.

وحديث عن أحد العصاميين المعروفين آنذاك (بلاّدن) بتشديد اللام... والسيد ابن خضراء (المغربي) صاحب معمل الرخام... والمطوف الشيخ عبد الوهاب جمال الحريري والمزور الشيخ أحمد حوالة...

وحديث عن «المجاورين» المغاربة الذين رفضوا العودة إلى بلادهم !

وحديث عن تكريم سمو الأمير فهد أمير المدينة لأعضاء الوفود والأحاديث التي جرت على مائدة العشاء... إنها أيام جميلة بالمدينة ولو أن الحرّ كان يمنع المنام !! حديث عن الإحرام بآبار عليّ.. ثم بعد الاستراحة في جدة الاتجاه إلى مكة عبر بئر طوى ثم الوصول إلى ما يسمّى «رباط المغرب» الذي نقش على بابه : «وما بكم من نعمة فمن الله» «لئن شكرتم لأزيدنكم».

هنا حديث عن اللقاء مع العالم الصيني الشيخ أحمد حسن الذي تحدث عن حزب (التشوفي) المجلس الأعلى للمسلمين الأندونسيين... زوار الرباط المغربي كثير.. لأنه أيضا مركز إسعاف صحّي...

حديث عن مأدبة العشاء التي أقامها جلالة الملك سعود على شرف الوفود مساء الجمعة 6-12-78 = 12-6-1959 حيث استمعنا إلى الكلمة السامية التي تسلمنا نسخاً جميلةً منها... وحديث عن يوم سابع ذي الحجة يوم التروية حيث شاركنا في غسل داخل الكعبة... ثم إلى منى في اليوم الموالي فعرفة يوم الإثنين... إلى أن حضرنا تهنئة جلالة الملك بالعيد في منى... ثم سمو ولي العهد الذي تحدث طويلاً عن فريضة الحج وواجب الحكومات الإسلامية في توعية الحجاج وفي ضبط عددهم ومواعيد وصولهم حتى يكون الاستعداد كافيا، ان في نيتنا - يقول سمو ولي العهد - إقفال باب الحج في مواعيد معينة رغبة في معرفة ما علينا من واجبات، وحتى نقوم بخدمة ضيوف الرحمن على ما يجب، ولقد حاولنا هذا العام تطبيق هذا، ولكن وصلتنا في آخر لحظة أي في ثمانية من ذي الحجة برقيات من بعض دول عزيزة تطلب فسح المجال لستمائة حاج. فما عسانا نقول لناس صمموا العزم على زيارة هذه البقاع، إنه من الصعب جدا التحكم في شعور المسلمين من طرفنا وحدنا... وكان يشير إلى أن العبء يجب أن يتحمله كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها...»

وهناك ودعنا جلالة الملك سعود الذي طلب إلينا أن نبلغ جلالة الملك محمد الخامس سلامه قائلا : أخبروه أننا عبدنا الطريق إلى الينبع، حتى يتمكن عند تشريفه لنا من

زيارة قبر جده هناك، وقد قمنا بجلب الماء كذلك إلى الينبع وأصبح المقام على ما يرام... أحاديث لا تخلو من إتحاف وإطراف وإمتاع وإيناس...

وإذا كانت زحمة الأشغال لم تسمح بزيارة الأستاذ الأنصاري فإن اللقاء تجدد مرة أخرى في بيت السيد السفير الأستاذ غازي وعلى سبيل التحديد يوم 16 ذي الحجة الموافق 23 يونيه... فلقد أقام السيد السفير مأدبة غداء فاخرة على شرف الذين تعرفنا عليهم من ذي قبل... دعا إليها على نحو ما كان في المرة الأولى - بعض الأمراء وكبار الموظفين - والشيخ الأنصاري... ومن الصدف أن صاحب الجلالة محمد الخامس كان بعث بأكياس من الخضر والفواكه المغربية إلى سفيره... أذكر منها حبّ الملوك (الكرز) اللوبيا - البطيخ الشمّام (الكانطلون) كانت هذه الخيرات أيضا حديث المجلس... الأسماء ومدلولاتها واستعمالاتها والمقارنات والمفارقات بين الأسماء هنا وهناك... قال الشيخ الأنصاري : «إن هذا البطيخ أو الشمام يحمل في العربية السعودية اسم (خربيز) (من أصل فارسي) وقال الشيخ غازي... إن كلمة الخربيز في المغرب توحي بمعنى الشيءالغير المرتّب...

ويعود الحديث إلى دور الكتاب والمجلة والصحيفة في تنوير الرأي العام... والفرق بين دور الكتاب وبين المجلة التي - في نظر الشيخ عبد القدوس - تقف وسطاً بين الصحيفة والكتاب... تؤدى ما ستؤديه الصحيفة ولا يؤديه الكتاب...

لقد كان الشيخ الأنصاري مهتماً بموضوع مغربي قضى معي جلّ وقته في الاستفسار عنه وكما سمع كلاما شعرت أنه بحاجته إلى المزيد... كان يسأل بصفة عامة عن المساحة المحررة من بلادنا آنذاك والتي شملتها حركة النضال التي تزعمه جلالة الملك محمد الخامس... وكان مهتما بصفة خاصة بسبتة ومليلية... ويتساءل متى يتم استرجاعهما ؟ ولقد ذكر أسماء لامعة من الرجال الذين أسهموا في صنع تاريخنا... من أمثال موسى بن نصير وطارق بن زياد... ولم يخف رجاءه بل إلحاحه في أن أزوده بانتظا بمعلومات أكثر عما يتصل بالأراضي المغربية التي ما تزال تنتظر العودة إلى أهلها وكان في أثناء هذا يستحث على مواصلة الكفاح والنضال...

نقطة أخرى كان الشيخ الأنصاري حريصا على متابعتها ومناقشتها تلك قضية الهجرات التي تميزت بها المجموعة الإسلامية، وبخاصة منها الهجرات التي تمت من مختلف جهات العالم الإسلامي إلى الجزيرة العربية... إنه مقتنع بأن طائفة هامة من المواطنين في المملكة العربية السعودية يرجع أصلها إلى جذور مغربية كما يقول فهل تجرى دراسة حول هذا الموضوع ؟...

وكانت خاتمة اللقاء أن قدّم إلينا الشيخ شاباً خفى عليّ اسمه قال إنه يريد أن يتوجه ببعض الأسئلة عن جريدة (البلاد) إلى السيد مبارك البكاي... وهكذا فسحنا المجال لجريدة البلاد التي توجهت بالأسئلة التسعة الآتية :

إن جريدة البلاد ترحب بسيادتكم وتنتهز هذه الفرصة - فرصة لقائها بأول زعيم سياسي في المملكة المغربية، وقّع وثيقة الاستقلال.

س - هل تزورون هذه البلاد لأول مرة... لأداء فريضة الحج أم سبق أن زرتموها قبلا...؟

ج - حقاً هذه أول مرة تتاح لي فيها الفرصة لزيارة هذه البقاع المقدسة والشقيقة في الوقت ذاته، وذلك بفضل حضرة صاحب الجلالة الملك محمد الخامس نصره الله وأيده، الذي تفضل بالأمر بتعيني كرئيس للوفد الرسمي المغربي لأداء فريضة الحج.

س - ما هو شعور سيادتكم وانطباعاتكم عن هذه البلاد التي تزورنها لأول مرة ؟

ج - كان شعوري شعور المسلم الذي ورد لمهبط الوحي... حقا لقد أعجبت بهذه المنشآت الفخمة وهذه الحدائق الغناءالتي تدل على مدى ما يقوم به هؤلاء الأمراء الميامين الذين عهد إليهم بأمر هذه البلاد. ثم إنني باسم أعضاء الوفد متأثر كثير التأثير من هذه الحفاوة التي استقبلنا بها رجال الحكم هنا... تلك المقابلة التي كانت في الحقيقة إكراماً

لعاهلنا المفدى... وإذا كان لي من أمنية فهو أن تدعم الصلات بين الدول العربية وذلك من أجل رفاهيتهم وسعادتهم..

س - كيف كان شعوركم يوم وقعتم وثيقة استقلال المملكة المغربية الشقيقة عن الحكم الفرنسي...

ج - كانت حقيقة لحظة تاريخية في حياة المغرب... وإن شعوري كان عندها كشعور المغاربة الأبطال المخلصين الذين ضحوا بأرواحهم وبأنفسهم في سبيل تحقيق هذا الاستقلال، وما دمت أذكر المغاربة الأبطال المخلصين فلأذكر على رأسهم بطل الاستقلال جلالة محمد الخامس الذي كان له الفضل كلّ الفضل في نيل المغرب لهذه المأثرة.

س - كم هي الأحزاب السياسية الموجودة في المغرب... وما هو أبرزها في رأي سيادتكم ؟

ج - كان سؤالكم موجها إلى شخص مستقل عن كل حزب من هذه الأحزاب ولكنه في الوقت ذاته يضمر لها جميعا تقديره ما دامت تسعى لصالح البلاد وإن الانتخابات هي وحدها التي ستجيب على استطلاعكم في هذا الصدد !

س - الانتخابات القادمة في المغرب هل ستكون في خريف هذا العام 1959 ؟ وما هو الحزب الذي تتنبأون بفوزه في الانتخابات ؟

ج - حقيقةً الانتخابات قررت مبدئيا أن تجرى في هذه السنة، وحول تنبئي عن الحزب الناجح، أكرر أن الانتخابات هي الفرصة التي ستميط اللثام عن الحقيقة.

س - لماذا لم تؤلفوا حزبا سياسيا ؟.. ولماذا اخترتم الاستقلال عن الأحزاب السياسية ؟

ج - خلافاً لما قلتم فليس لي لون حزبي وإنما على العكس من ذلك أسعى دائما لأن أكون أداة وصل بين مختلف الاتجاهات السياسية... لأنني أعتقد في هذا الموقف مصلحة البلاد.

س - هل تتوقعون اتحادا فدراليا بين أقطار شمال إفريقيا - المغرب، تونس والجزائر - أي بعد استقلال الجزائر ؟

ج - هذا أملي كما هو أمل سائر الأفارقة.. بل إن يقيني أن المغرب العربي سيرجع لما كان عليه تاريخه الماضي في الوحدة...

س - وما رأيكم في القضية الجزائرية... أقصد الوسائل الحربية أو المفاوضات الدبلوماسية التي تستطيع معها الجزائر الحصول على استقلالها كاملا ؟

ج - نحن نعتقد أن يوم استقلال الجزائر آتٍ لا محالة ولكننا نأمل أن يتم ذلك عن طريق المفاوضات حقنا للدماء وتخفيفا من ضحايا المجزرة.

س - ما هي سياسة ديجول بالضبط نحو الجزائر... وكان المفروض أن يفتتح جمهوريته بإعطاء الجزائر استقلالها وسحب الجيش الفرنسي ؟

ج - أعتقد أن صلة صاحب الجلالة محمد الخامس بالجنرال دوكول من جهة، ومجهود الدول الحرة الصديقة من جهة أُخرى سيساعد حتماً على الوصول إلى حل لقضية الجزائر على النهج الذي ترضاه جبهة التحرير الجزائرية.

☆ ☆ ☆

وعلى ذكر «الاستجوابات الصحفية» أذكر أن الإذاعة السعودية وجهت إلينا الأُستاذ جمال عباس (من أصل لبناني) وزهير الجاعوني (من الأردن) ومحمد الغامدي من الطائف وكانت مناسبة لإسماع صوتنا عبر الأثير...

وبعد حديث في المذكرات عن استعداد الوفد المغربي لمغادرة جدة تتحدث عن لقاء وداع تم بدار السيد السفير...

كان اليوم، الأربعاء 24 يونيه = 18 من ذي الحجة حيث كنا على موعد للوداع، بالصدفة وجدنا في بيت السفير الشاعرين الفلسطينين : الحاج مصطفى سكران (الذي يقيم في الأردن) والحاج فرحان سلام (الذي يقيم في

دمشق)... لقد استمعنا إلى قصيدة كان اقترح نظمها على أحدهما ؟ الملك سعود، يرحمه الله، في فلسطين، كما استمعنا إلى مناظرة بين ويزمان وبين المفتي. الشاعران خصّيصان في إنشاد الزجل، وقد سمعت من الشيخ سلام نونيته المعروفة :

أقــــول للجنـــــة التقسيم مــــاذا ؟
خبــأت لنـــا ومـــاذا تحكمينـــا ؟

وعندما كنا نهم بوداع السيد السفير غازي والدكتور العراقي والأخوين عبد الحي وعبد النبي... سلّمني الأُستاذ غازي ظرفاً قال انه بعث إلي من لدن الشيخ عبد القدوس، ما كنت أجد الوقت لمعرفة ما بداخله إلا أنني عرفت فيها بعد، عندما امتطيت متن الطائرة، أن الأمر لا يتعلق بما سماه الشيخ «الشيء البسيط»... ولكنه كان «شيئا مركباً» يضبط الأوقات وبعضه الآخر يساعد على كتابة المذكرات !!

لقد أجاب الشيخ عن تحيتي بأحسن منها ! كنت أهديته محفظة جلدية من صنع فاس... لقد ساعدني زميلي على «هدايا السرور» التي كانت تنتظرني... كنت فعلا أفكر في بنيتي الجديدة (آس) :

إن يكن عهــــــــــــدك ورداً
إن عهــــــــدي لـــــــــك آسٌ !!

هذا إلى «الباقيات الصالحات»...

وفي الطائرة حيّانا المضيفون ببعض الصحف، كان منها جريدة (النضال) المغربية وفيها نونية للأُستاذ عبد اللطيف خالص في رثاء الشيخ المدني ابن الحسني رحمه الله، ثم صحيفة (فرانس سوار) العدد الذي يحمل تاريخ 23 يونيه 1959 حيث قرأنا خبرا يلفت النظر... يتعلق باكتساح موجة الحرارة لفرنسا حيث بلغت 23 درجة !! وحيث بلغ عدد الوفيات إحدى عشر وفاة !! ترى لو سمع هؤلاء عن درجة الحرارة في البقاع التي كنّا في زيارتها بالأمس ؟!...



هدي السيرة النبوية في التربية والتعليم

للأستاذ محمد المنوني

من معطيات السيرة النبوية تكوين ثقافة إسلامية تنظم المجتمع الإسلامي على المستوى الصالح : عقيدة وشعائر وسلوكا ومعاملات وجنايات، فتتناول ـ إلى جانب الحياة الدينية ـ تنظيم الأسرة والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومن أولى ميزاتها أنها تستمد تعاليمها من أوامر الله سبحانه، مصدرها هو القرآن الكريم والحديث الشريف وما اشتق منهما، وتأخذ من غيرها ما لا يناقض الإسلام.

ومن هنا يتبين أنها ثقافة مستقلة، لا تشابه الثقافة اللاهوتية الكهنوتية، ولا تلتقي مع الاشتراكية الديمقراطية التي تفصل الدين عن السياسة، وبالأحرى الاشتراكية الشيوعية، وهي تنكر الخالق والأديان.

☆

☆ ☆

وقد اختلفت الاتجاهات في الغرض من التثقيف، فالغربيون يهدفون إلى أن الغاية هي المعرفة للمعرفة، بينما يرى فريق منهم أن الغاية من ذلك أنها وسيلة لتطوير البشرية ورقيها.

غير أن غاية الإسلام من الثقافة هي إسعاد البشرية في دنياها وأخراها.

ولهذا ينادي الإسلام بتعميم التثقيف لسائر الأفراد، في تعليم إلزامي يتناول معرفة أصول الإيمان، واللازم من شرائع الإسلام، مع علم المحرمات الخمس في الآية الكريمة : ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن...**﴾، الآية، ورابعاً معرفة أحكام المعاشرة والمعاملة، والواجب في هذا النوع الأخير يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم.

فللحاكم ثقافة إلزامية.

ولكل من المتزوجين علم يخصهما.

وهكذا الشأن في التاجر والصانع.

حتى المسافر يتعلم أحكام ما يعرض له من حالات.

وقد جاء عنه صلى تعالى عليه وآله وسلم أنه كان يعلم كل من تعاطى عملا أحكامه وتكاليفه.

فهذه الأصناف ـ على تفاصيلها ـ كلها من ثقافة الإسلام الإجبارية، ويرجع تحقيق هذا التعليم إلى الحكام والعلماء قال الغزالي :

«وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه ـ فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية ـ أن يخرج إلى من يجاور بلده... ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم... فإن قام به واحد سقط الحرج عن الأخرين، وإلاعم الحرج الكافة أجمعين.

وإنما يجب التبليغ على أهل العلم، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها، ولعمري الإثم على الفقهاء أشد، لأن قدرتهم فيه أظهر، وهو ببضاعتهم أليق...».

☆

☆ ☆

وقد اهتم العلماء في واجبات الحرفيين بنقط خاصة، فيذكر ابن الحاج في «المدخل» عن مهنة الغراسة أنها تحتاج إلى علم بها وفيها، فأما العلم بها فهو العلم بصناعة الغراسة وما يصلحها وما يفسدها.

ومثل هذا أشار له في مهنتي الفلاحة والقرازة، وفي تعبير آخر لنفس المصدر : «يجب على الصانع أن يتعلم صناعته وفقهها.

ونحو من هذا ما يشير له ابن أبي جمرة : من تعليم الإماء ما يُحتاجُ له من أشغال البيت، فضلا عن تأديبهن بالآداب الشرعية.

☆

☆ ☆

وإلى هذه الثقافة الإلزامية نشير إلى فروض الكفاية، فيأتي في طليعتها التفقه في الدين : ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾.

وهي إشارة ـ أيضاً ـ إلى الحض على الرحلة للتثقيف، وتحمل المشاق في سبيله.

وعن فرض الكفاية يقول الغزالي : «أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى، وسقط الفرض عن الباقين.

ولا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات ـ أيضا ـ من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجافة».

☆

☆ ☆

وحرصاً على نشر الثقافة الإسلامية على نطاق واسع، امتنع المسلمون الأولون من أخذ الأجرة على التعليم، وعن التأليف يذكر الخوارزمي عند افتتاحية كتاب «الجبر والمقابلة» : أن العلماء لم يزالوا يؤلفون احتساباً، وأنه ألف كتابه لحاجة الناس.

وفي تعبير لحاجي خليفة : فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب.

ولهذه الغاية كانت أماكن التعليم مباحة للجميع، ولا تزال لم تحجر بيناء المدارس.

والغاية من ذلك كله هو تعميم التثقيف بين سائر أفراد الأمة، حتى في إدارة الأمور الشخصية.

☆

☆ ☆

كذلك اهتمت هذه الثقافة بالتطبيق الأخلاقي، فقام التعليم الإسلامي على تربية المتعلم على العمل بالأخلاق الحسنة : من الإخلاص والصبر وحسن النية والإحسان، حتى يتربى في المتعلمين الوازع الديني، ليحرسهم ويمنعهم من الانحراف.

☆

☆ ☆

ومن حسنات الثقافة الإسلامية اهتمامها بمبدإ التعادلية بين علوم الإسلام والثقافات الوافدة، فتكون الأصالة للمواد التي تهتم باللغة العربية وبالقرآن الكريم والحديث الشريف وبمجموعة التراث الحضاري الذي خلفه السلف وديعة لدى الخلف، حتى يكون مجموع ذلك سندا لتشريعنا، ومصدرا لإحياء لغتنا، ومرجعاً لبعث حضارتنا، ومرجعاً للإرشاد والدعوة والحجاج.

وقد تعرض هذا التراث لمضايقات متعددة في فترات مختلفة، وكان أولها ظهور العلوم الوافدة في صدر الدولة العباسية، فلمعت ـ أولا ـ بالعراق، ثم أخذت تنتشر في بقية العالم الإسلامي.

ولما كانت هذه العلوم مكتوبة بلغات أجنبية لم ينصرف المتعلمون كلهم أو غالبيتهم لتعلم تلك الألسن، وإنما انصرفت زمر منهم لذلك، حيث قاموا بتعريبها، وأسست لهذه الغاية دار الحكمة ببغداد، حتى تكون لهذا الفريق، ويبقى التعليم الأصيل يسير في مهيعه دون مضايقة.

ويبدو أن منشآت في مناطق أخرى كان من أهدافها خدمة هذه الغاية، وذلك مثل بيت الحكمة بالقيروان أيام الأغالبة، ودار الحكمة بالقاهرة أيام الفاطميين.

ثم اتبع هذا الاتجاه في عصر النهضة بالنسبة لدار العلوم مع الأزهر بمصر، والمدرسة الصادقية مع الزيتونة بتونس.

وهي مجموعة من النماذج تبين لنا سياسة الإسلام في الأخذ بالعلوم الدخيلة النافعة، مع الاحتفاظ بأصالة التعليم الديني.

ومن جهة أخرى نتبين كيف كانت الترجمة إلى العربية تحل عقدة جهل الآخرين باللغات.

ومرة أخرى يستخلص من ذلك اهتمام التربية الإسلامية بوجود طائفة يتوفرون على معرفة اللغات، وهي نقطة تتأكد بوجود دواعي ذلك، كتوقف الدفاع أو الإدارة عليها، وكالعلم بلغات الأمم المدعوة، أو بلغات الحجاج الديني، ومن هنا نتبين أن اللغات المعنية بالأمر ليست اللغات الحية وحدها، وإنما تشمل غيرها أيضاً.

☆

☆ ☆

ولمراعاة الأصالة في الثقافة الإسلامية شواهد، منها منع تفسير القرآن الكريم بالرأي، والدعوة إلى الاقتصار في العقائد على الوارد...

وفي ميدان الدراسة : الاستناد على المصادر الوثيقة، ولهذا كان الرجوع لكتب الأقدمين من أهم أركان العلم.

كذلك كثر الحض على اختيار الشيوخ المفضلين، «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»، وقال ابن مسعود ض : «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه عن شرارهم ضلوا».

☆

☆ ☆

ومن مبادي هذه الثقافة مراعاة استعداد المتعلمين، جاء عن ابن عمر ض مرفوعاً : «أمرنا ـ معاشر الأنبياء ـ أن نكلم الناس على قدر عقولهم»، وجاء في تفسير الرباني : الذي يعلم بصغار العلم قبل كباره».

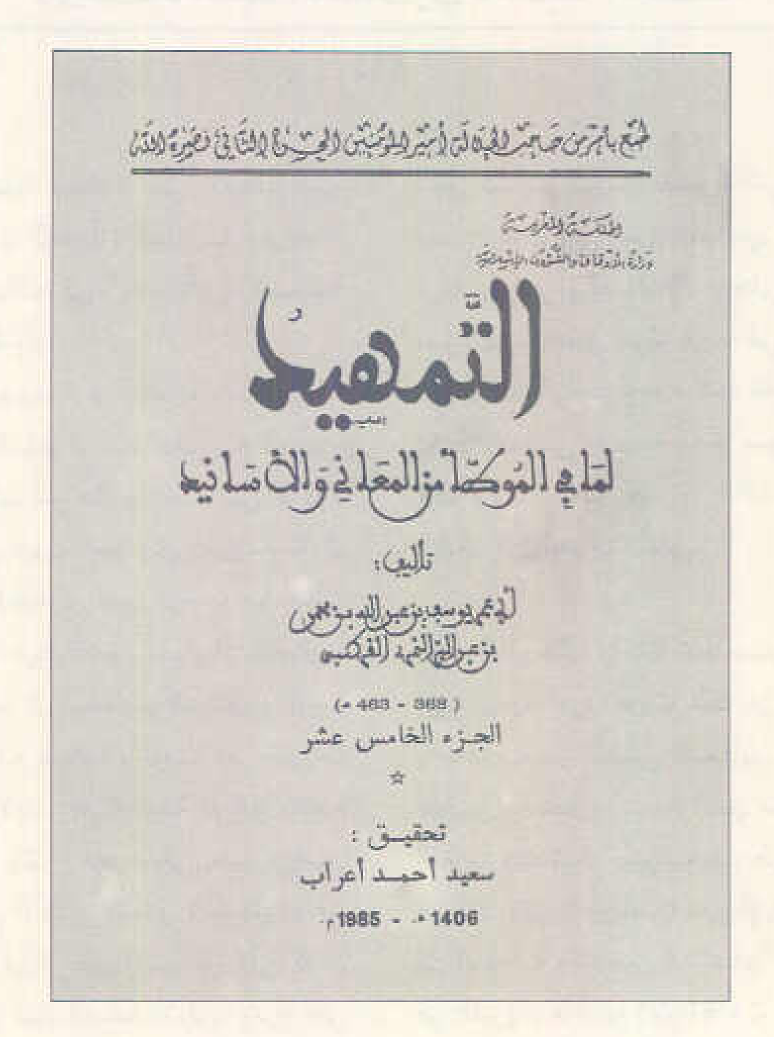
ومن هذا أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه اللائق به، ولا يذكر له أن وراء ذلك تدقيقاً يدخره عنه أستاذه، قال الغزالي بعد هذا : «وبهذا يعلم أن يكون من تقيد من العوام بقيد الشرع، ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف... وحسن مع ذلك سيرته، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده، بل ينبغي أن يخلى وحرفته».

ومن مسائل هذا الباب، تحذير المعلمين من تحديث الناس بما لا يعرفون، فيروي البخاري عن علي ض : «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينفرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»، ولمسلم في مقدمة الصحيح موقوفاً على ابن مسعود ض : «ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم».

وقد كانت مراعاة استعداد المتعلمين إحدى الأهداف لاختصار المتأخرين كتبهم، يشير لهذا قول الإمام النووي في افتتاحية شرحه لصحيح مسلم : «ولو لا ضعف الهمم وقلة الراغبين لبسطته، فبلغت به ما يزيد على مائة من المجلدات.

وفي تعبير لأبي علي حسن العطار شيخ الأزهر «...اقتضت الحكمة الإلهية أن يقوم في كل عصر من يدون لأهل ذلك العصر على شاكلة عقولهم، ويقرب إليهم كلام من تقدم على قدر قرائحهم وفهومهم، طلباً للتسهيل، وروما للتحصيل».

وبعد فإن الموضوع لا يزال يتطلب الشيء الكثير، غير أن ضيق المدة بين تاريخ الاستدعاء وتوقيت المؤتمر : حال دون التبسط في العرض، ولهذا لا يمكن إلا أن أختتم قائلا : يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.


طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

التمهيد
لما في الموطأ من المعاني والأسانيد

تأليف :
الإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
بن عبد البر النمري القرطبي
(368 - 463 هـ)
الجزء الخامس عشر
☆
تحقيق :
سعيد أحمد أعراب
1406هـ - 1985م

كيف طبع الإسلام المسار الحضاري في المغرب

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

(1)

نجح الإسلام في بسط سيادته على الأقاليم التي خضعت لحد الآن لتأثيرات الحضارة الهيلينية لإفريقيا وأصبح الأسطول العربي سائدا في البحار التي اكتسحتها القطع الرومانية أجيالا متطاولة.

ولكن نشر الدين الجديد كان يتطلب دائما مزيدا من التوسع التمديني الذي لم يتم بطابع الفتوح الاستعمارية، وهكذا لم تكد تمر عشرون سنة على استقرار البعثة المحمدية حتى انبرت الجيوش العربية تخرق الصحراء الليبية. وهنا بدأ (عقبة بن نافع) الزحف عبر أقاليم المغرب الأقصى إلى سبتة حيث اقتبله (يوليان الغماري) الذي كان واليا على إقليم الريف باسم قسطنطين الرابع امبراطور بيزانس وقدم له هدايا وأطلعه على عورات إسبانيا والبربر فأقره في ولايته باسم الخليفة ثم فتح طنجة عنوة بعد استعصاء أهلها وتقدم نحو وليلي بجبل زرهون (قصر فرعون) فاحتلها ثم الأطلس فقاتل المصامدة في حروب عنيفة لم يخلصه فيها سوى (زناتة) التي كان المغراويون منها قد أسلموا منذ الحملة الأولى، وعرج على الحوز فدخل مدينة (نفيس) التي ظلت مع أغمات أكبر مدن الجنوب (إلى القرن الخامس حيث أسست مراكش) ثم درعة والسوس وبعد احتلال (إيجلى) انعطف مثقلا بالسبايا نحو أسفي فادخل قوائم فرسه في البحر رامزا إلى رغبته في مواصلة الزحف لإعلاء كلمة الله لولا هذا الحاجز وهنا اصطدم بملثمي (صنهاجة) ثم مسوفة) وراء السوس فأثخن فيهم وعاد أدراجه بعد أن جالت جيوشه في المغرب من الشمال إلى الجنوب الأقصى.

فقفل عقبة راجعا بعد هذه الفتوح الخاطفة إلى القيروان ولا ندري هل تم ذلك عن طريق ممر تازة أو عبر واحات منحدر الأطلس الصحراوي ويظهر أن عقبة ارتكب غلطتين باستفزاز كسيلة الذي صحبه أثناء زحفه إلى المغرب وبتشتيت جيوشه في طريق العودة مما شجع حاميات (تهودة) (وبادس) على الإيقاع به مع زهاء ثلاثمائة من الصحابة والتابعين استشهدوا جميعهم وزحف (كسيلة) في القيروان فاحتلها (عام 64 هـ).

ولكن لم يكد عبد الملك بن مروان يستبد بالملك حتى جهز زهير البلوي بجيش عتيد فزحف نحو القيروان (عام 69 هـ) وقتل كسيلة وانهزم البربر فطاردهم العرب إلى وادي ملوية حيث لجأت أوربة إلى وليلي.

وكانت الفتوح لحد الآن عارضة حيث لم يحتفظ العرب بغير إفريقية وظلت أمامهم مفازات عبرتها الجيوش الأموية دون أن تستتب حامياتها وكان ذلك من حظ (موسى بن نصير) الذي توغل في المغرب ففتح طنجة ثم انحدر إلى سهول الأطلنطيك بعد أن عرج على سبتة فاستولى على مدينة (سكومة) الأوربية قرب فاس ثم زحف نحو درعة وتافيلالت في حين توجه ابنه إلى السوس وقد اتخذ طنجة مقر قيادته فولى عليها طارق بن زياد وأنزل معه رهائن المصامدة واثنى عشر ألفا من البربر وسبعة وعشرين عربيا لتعليم القرآن والفقه وبذلك انضم برابرة المغرب عن بكرة أبيهم باستثناء جزء من الأطلس - إلى الفاتح العربي واعتنقوا الإسلام وكونوا أطر القيادة والولاية في البلاد.

أصبح المغرب جزءا من دار الخلافة الأموية، وتعاقب عليه الولاة المقيمون بالقيروان والذين لم يكونوا معززين بأكثر من مائة وخمسين ألفا من العرب والمشارقة، والواقع أن نسبة العرب الذين استقروا بشمال المغرب الأقصى كانت ضئيلة نزح معظمهم إلى الأندلس.

ثم جاء دور عبيد الله بن الحبحاب (1) فعين بدوره على طنجة والمغرب الأقصى عمر بن عبيد الله المرادي وعلى الجنوب ولده إسماعيل وبالأندلس عبد الرحمن الغافقي بطل بلاط الشهداء وقد عمد عامل طنجة إلى تخميس البربر (2) حيث فرض عليهم خمس أموالهم بدعوى أنهم فيئ للمسلمين متعديا في ذلك الاعشار والزكوات الشرعية، وقد انتشر في المغرب الإباضية والصفرية عن طريق العراقيين نزحوا إلى الغرب للدعوة إلى إقامة دولة إسلامية على أساس نظريتهم في الخلافة وقد صادفت هذه النظرية قبولا عند كثير من البربر الذين رأوا في هذا الفهم للإسلام استجابة لميولهم التحررية وأيدهم البرغواطيون، فانتفضوا على ابن الحبحاب الجائر وقد قاد الثورة في أحواز طنجة أحد قادة الصفرية وهو ميسرة المضغري (3) (عام 122 هـ) الذي قتل عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادي وولى مكانه عبد الأعلى بن جريج الإفريقي الرومي أحد أئمة الصفرية.

وانتهى الخبر إلى هشام فعزل ابن الحبحاب وولى مكانه كلثوم بن عياض (عام 123 هـ) وانفسح المجال في المغرب أمام الخوارج وانفصل البربر عن الخلفاء الأمويين وحذا حذوهم برابرة الأندلس، فوطد صالح بن طريف دعايته بتامسنا بين سلا وأسفي، وقد كان والده طريف من قواد ميسرة الصفرى فارتأى بعد وفاة رئيسه المضغري أن يدعي النبوة فانتحل مذهبا جديدا فنسب إلى برغواطة (4) وألغى بعض أركان الإسلام وشوه باقيها ووضع قرآنا من ثمانين سورة زعم أنه وحي من الله.

لم يكد ينتصف القرن الثاني حتى كانت إفريقيا الشمالية موزعة بين عدة دويلات أسسها مهاجرون عرب فصالح في نكور وعبد الرحمن الداخل في الأندلس علاوة على الإمارات الخارجية في تلمسان وسجلماسة وتامسنا (البرغواطيون).

واستمرت المناوشات عام 169 هـ، حيث ثبتت (وقعة الفخ) على ثلاثة أميال من مكة بين موسى الهادي بن محمد المهدي ابن المنصور والحسين بن علي ابن الحسن المثلث فقتل وفر المولى إدريس إلى مصر ومنها إلى المغرب الأقصى بمساعدة بعض الشيعة (5) صحبة مولاه راشد فنزل

---

1) ابن الحبحاب هو الذي بعث حفيد عقبة بن نافع وهو حبيب بن أبي عبيدة إلى السوس الأقصى فاحتله وبلغ تخوم السودان وغنم كثيرا من الذهب والفضة (الاستقصاء ج 1 ص 48).

2) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري، طبعة بيروت عام 1950 ج 1 ص 52.

3) المدغري حسب ابن عذاري (المغرب 1 ص 52) أو المضغري (الاستقصاء ج 1 ص 48).

4) هي بطن من المصامدة حسب ابن خلدون.

5) وهو واضح المسكين القائم على البريد العباسي بمصر (ابن خلدون).

بمدينة وليلي (عام 172 هـ) (6) ضيفا على رئيسها اسحق ابن محمد بن عبد الحميد الأوربي البربري الذي بايعه وانخلع من طاعة العباسيين.

اتجه المولى إدريس خاصة إلى غزو تامسنا ومنها شالة فأسلم من كان بها من يهود ونصارى ووثنيين ثم خرج (173 هـ) لاستكمال دعوته في تازة وجنوبي فاس وفازاز ثم تلمسان (7) فاستسلم له زعيم مغراوة محمد بن خزر الذي جعل حدا قبل بضع سنوات لإمارة أبي قرة الصفرية وكان سليمان أخو المولى إدريس قد سبقه إلى تلمسان حسب ابن خلدون (8) وبذلك امتدت منطقة نفوذ المولى إدريس إلى شمال المغرب (عدا مملكة نكور في سواحل الريف) وناحية تازة وسهول المحيط الأطلسي إلى مصب أبي رقراق وجنوبي مكناس وفاس إلى تادلة وسبو علاوة على تلمسان.

وكانت (كنزة) سرية الإمام الراحل حاملة فجمع (راشد) رؤساء البربر وقرر انتظار المولود حيث بلغ المولى إدريس الثاني نحوا من إحدى عشرة سنة فبايعه البربر (188 هـ) في جامع مدينة وليلي بعد أن توالت بيعتهم في مراحل صباه وورد على الأمير الفتي خمسمائة فارس عربي من إفريقية والأندلس فجعل منهم حرسه الرسمي.

اتخذ المولى إدريس المدينة الجديدة دار ملكه أقام بها إلى عام 197 هـ حيث غزا بلاد المصامدة واحتل مدينتي نفيس وأغمات وبعد سنتين توجه إلى تلمسان حيث أقام ثلاث سنوات.

وجود فاس بين الريف والأطلس يجعل منها مركزا اقتصاديا ممتازا يزداد أهمية بإشرافه على ممر تازة الواصل الشرق بالمغرب، ففاس هي مفترق الطرق الكبرى بين الجزائر وسهول الأطلنطيق وسواحل الريف وصحراء الجنوب.

وقد توفي المولى إدريس الثاني في سن مبكرة عام 213 (9) حيث ترك عدة أولاد عهد من بينهم لمحمد الذي قسم المغربي بين اخوته استجابة لجدته (كنزة) غير أن هذه التجزئة ما لبثت أن فتت في عضد الوحدة حيث ثار عيسى على أخيه محمد الذي أمر القاسم بقمع الثورة فامتنع وتصدى لذلك عمر وضم إلى إمارته الأقاليم الخاصة لأخويه عيسى والقاسم فجمع بين مراكز تمتد من الريف إلى نهر أم الربيع وقد اتسمت هذه المقاطعات بمناعة عسكرية.

وفي عام 292 هـ انتصب يحيى بن إدريس بن عمر الذي استصفى جميع الإمارات الإدريسية وأخضعها لسلطته وتوطدت في عهده الدولة الإدريسية الموحدة.

وفي (310 هـ) ثار بفاس الحسن الحجام حفيد القاسم ابن ادريس واستعاد نفوذ الأدارسة من فاس إلى البصرة وظل المغرب يتأرجح بين الشيعة والأمويين في معارك موصولة.

وكان رد فعل المعز الفاطمي ضد انضواء المغرب تحت راية الأمويين توجيه قائده جوهر الصقلي في عشرين ألف فارس من كتامة وصنهاجة عام 347 هـ، وكان الحسن كنون آخر الملوك الأدارسة بالمغرب حيث استمر حكمهم زهاء مائتي سنة.

وقد عرف المغرب بين انهيار حكم الأدارسة بفاس وقيام المرابطين فترة استمرت نحوا من مائة وأربعين سنة اتسمت بشيء غير قليل من اللبس والغموض إذا قورنت بالعصور التاريخية (10) الأخرى نظرا لتوالي التقلبات تحت تأثير الغارات المتلاحقة من طرف الفاطميين والأمويين وتجاذب هؤلاء الأدارسة والعافيين والزناتيين في خضم من الفوضى العارمة التي جعلت المغرب أحوج ما يكون إلى زعيم صالح يوحد البلاد وينشر الأمن والرخاء مثل ابن تاشفين.

---

6) حكى صاحب القرطاس قصة رحلة المولى إدريس من مصر إلى وليلي عن طريق برقة ثم القيروان في زي التجار ثم توجه إلى طنجة عبر وادي ملوية.

7) في هذه السنة أي عام 174 هـ بنى المولى إدريس مسجد تلمسان وأسس منبره وخط اسمه في صفحته وشاهده ابن خلدون في القرن الثامن وقد بقيت منارته قائمة إلى عام 1937 في جنان بحي أكادير وقد بنيت مكان المسجد.

8) يتناقض ابن خلدون حيث أكد في أخبار بني العباس أن سليمان مات في وقعة الفخ وكذا أبو الفداء.

9) وقد أكد البرنسي (الاستقصاء 1 ص 75) أنه توفي بوليلي ودفن إلى جنب أبيه.

10) هذه الفترة هي التي عناها كوتي في كتابه «العصور الغامضة بالمغرب».

وقد بلغ الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني اضطراب شؤون الصحراء فاستخلف يوسف بن تاشفين بالمغرب الأقصى بينما اتجه هو لاستكمال غزو السودان (إلى أن مات بادرار عام 480 هـ) (11).

ولم يكد المرابطي الأول يستقل بالأمر حتى رتب جيوشه في فرق أربع (12) جعل منها طلائع لتمهيد البلاد وما لبث أن نقل حاضرة ملكه إلى مدينة جديدة أشرف على تخطيطها هي مراكش (454 هـ) واختيار هذا الموقع ينم عن روح صحراوية وعن حاسة استراتيجية لأنه مفترق طرق الأطلس والصحراء.

وكانت في البداية معسكرا بسيطا ولكنها استحالت تدريجيا إلى حاضرة بمساجدها وقصرها (دار الحجر) وقد عزز الزعيم الصحراوي هذا الجهاز الحضاري بعمال نصبهم في الأقاليم ومظاهر جديدة كالأعلام والطبول العسكرية.

وفي عام 473 هـ فتح ابن تاشفين اكرسيف ومليلية واستكمل احتلال الريف فهدم نكور واتجه نحو المغرب الشرقي فاقتحم وجدة وإقليم بني يزناسن وتلمسان مستأصلا شأفة المغراويين وقد أحال هذه العاصمة الزناتية إلى ثغر محصن واختط بأعلاها مدينة تاكرارت (أي المحلة) وهي تلمسان الحالية. وكان الفنش قد دوخ عام (475 هـ) معظم الأقاليم بالأندلس فكان الاستنجاد إجماعيا من طرف الأمراء والعلماء والشعب بالبطل المرابطي الذي هب لإنقاذ الإسلام.

خف ابن عباد لمقابلة (13) ابن تاشفين بالمغرب جاعلا رهن إشارته الجزيرة الخضراء ليتخذها مقرا ترابط فيه جيوشه وكانت سبتة قد انصاعت فعزز الأمير المرابطي جهازها وتوافدت عليه فيها كتائب المجاهدين فأجاز بها إلى الأندلس (479 هـ).

وانبرى القائد اللمتوني داود بن عائشة في عشرة آلاف فارس يتقدمهم المعتمد وابن صادح (المرية) وابن حبوس (غرناطة) وابن مسلمة (الثغر الأعلى) وابن ذي النون وابن الأفطس وغيرهم يتولى الجند على المراحل والمنازل حتى حلوا بعد استراحة في طرطوشة أمام بطليوس بالزلاقة (تعرف اليوم بسكراجة) فانقض أنجاد صنهاجة الذين اقتحموا محلة الاذفونش وقتلوا حاميتها وعمد ابن تاشفين إلى خطة العرب في العراك فوالى الكر في حرب باردة ما لبث أوارها أن اشتعل عندما تدخلت آلاف الصحراويين بالدرق اللمطية والمزراق والسيوف تبدد من ضرباتها فرسان الأفرنج في ساعة كان أذان الجمعة يدوي في العدوتين داعيا بالنصر للمجاهدين. وعاد يوسف إلى العدوة على أثر وفاة ولي عهده أبي بكر - بعد أن عرج على ظاهر اشبيلية معززا جانب المسلمين بحاميات قوامها ثلاثة آلاف جندي صدا لعدوان محتمل من العصابات المنكسرة، فعاد أمير المسلمين أدراجه إلى المغرب بعد أن أقام سير اللمتوني واليا على الأندلس.

وقد واصل سير زحفه (عام 489 هـ) واستولى على معظم بلاد الأندلس بإعانة الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف (493 هـ) وبعد أربع سنوات قام ابن تاشفين بالجواز الرابع (497 هـ) إلى الأندلس (14) وكان صيته قد ذاع في العالم الإسلامي حتى هم الغزالي بالرحلة إليه ومات يوسف أوائل 500 هـ فقام علي بعهد من والده وعمره ثلاث وعشرين سنة.

وما لبث علي بن يوسف أن جاز إلى الأندلس عن طريق سبتة (503 هـ) في جيش كثيف احتل في إقليم قشتالة الجديدة 27 حصنا ثم مجريط وجاز أمير المسلمين للمرة الثانية (513 هـ) حيث مهد غرب الأندلس في حركة

---

11) عاد أبو بكر مرة ثانية إلى المغرب فاقتبله يوسف بالجيش والهدايا مشعرا إياه باستقلاله فلم يسع الأمير الصحراوي إلا أن عاد ادراجه بعد تولية ابن عمه نهائيا على المغرب.

12) جعل على كل منها قائدا من بين القواد الأربعة وهم سير بن أبي بكر اللمتوني ومحمد بن تميم الكدالي وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني وعدد جنود الفرقة خمسة آلاف واحتفظ هو بقيادة نصف المجموع وهو عشرون ألفا وما لبث هذا العدد أن ارتفع إلى مائة ألف في ضمنهم الاغزاز المشارقة.

13) هذه المقابلة تمت حسب ابن خلدون في فاس وحسب غيره في طنجة وهو المرجح.

14) حسب ابن خلدون الذي تختلف روايته عن رواية ابن أبي زرع.

استكمل بها وحدة المملكة المرابطية تحت إمارة تميم الذي ما لبث أن توفى وظلت الجزر الشرقية (الباليار) المحررة غربي الأندلس تحت أمرة محمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية ووالي تاشفين بن علي فتح الحصون ثم عاد إلى مراكش حيث نصب واليا للعهد ولم تكد تمر أربع سنوات حتى بايعه الناس أميرا لدى وفاة والده (7 رجب 537 هـ) وكان الموحدون قد بدأوا يقضون مضاجع الدولة المرابطية.

وفي هذا العهد ظهر جيش نظامي جديد تعزز بالاغزاز (15) المشارقة علاوة على فرسان القبائل البربرية وقد درب على الحياة العسكرية غير أن أغلبيته كانت من القبائل المستنفرة عند الحاجة وقد استعرض يوسف جيشه العتيد في حصن لرقة خلال جوازه الأول للأندلس (16) كما استعرض حفيده تاشفين قواته في تلمسان عام 538 هـ (17).

وقد أدخل المرابطون عنصرا جديدا في الفن البربري وعززوا الحصون والقلاع التي استمدت من الهندسة الأطلسية، ومن الحصون المرابطية قلعتا بني تودة بفاس وامركو لمراقبة بدو الريف.

ودارت معركة عام 516 هـ مني فيها اللمتونيون بأول هزيمة فاتسع نفوذ ابن تومرت الذي أقام عام 519 هـ بتينمل دارا ومسجدا، وتينمل حوض خصيب على وادي نفيس طويل دقيق في شعبة الأطلس الكبير وكانت مناعة الجبل خير حمى من سطوة اللمتونيين، وكان مجلس العشرة يشكل مستشاري الإمام وأركان حربه والتحق بالعشرة أربعون ممثلا للقبائل الكبرى لتكوين آيت الخمسين في شكل مجلس للشيوخ الموحدين وتجهيز جيش من عشرة آلاف زحف على مراكش عام 523 هـ فهزم اللمتونيين وطاردهم إلى مراكش فحاصرها أربعين يوما ولكن نجدات المرابطين فكت هذا الخناق في معركة عنيفة بالبحيرة وصمدت الكتلة الموحدية فأمعنت في تحصين حاضرتها حيث استعرض ابن تومرت جيشه للمرة الأخيرة ولم تمر أربعة أشهر على وقعة البحيرة حتى توفى المهدي (بين 13 و29 رمضان عام 524 هـ).

وانبرى عبد المومن في غزوة استمرت سبع سنين (534 ـ 541 هـ) لفتح المغرب الأوسط بعد تمهيد المغرب الأقصى، وطفق عبد المومن يعزز قواته بانضمام سكان الجبل والواحات والعناصر الفارة من المرابطين فاصطدم مع فلول المرابطين المنظمة والمعززة بالميليشية المسيحية التي كان يقودها (الروبرتير) القطلاني بجهازه العتيد وفنه العسكري المحكم غير أن وفاة هذا القائد الإسباني (539 هـ ـ 1145م) فسحت مجال السهول أمام الموحدين وكللت حملات الموحدين بالنصر والسيادة على مجموع المغرب وانتقل جهاز الدولة الجديدة إلى مراكش التي اختارها الخليفة ووافقه العلماء بعد تهديم مآثر المرابطين بها حيث أقيمت الكتبية فوق إنقاض (دار الحجر).

وما أن انتهى عبد المومن من تمهيد المغرب الأقصى حتى اتجه نحو الأندلس وكان عهد جديد لملوك الطوائف قد انبثق باستقلال إمارات قديمة وبروز رؤساء جدد وزحزح المرابطون عن قلاع ومدن كإشبيلية وغرناطة ثم الجزر الشرقية، غير أن انبعاث الدولة، على يد عبد المومن ما لبث أن تمخض عن انضمام الأميرال المرابطي على ابن ميمون إلى الموحدين، وفي عام 545 هـ زحف عبد المومن إلى سبتة عن طريق سلا فاستقدم إلى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط أعيان الأندلس للاستعلام والاستحثات إلى الوحدة وكانت إفريقية نكبت بالسيل العارم الذي انحدر إليها من بني هلال وبني سليم فوصل عبد المومن إلى عاصمة الجزائر في مائتي ألف جندي، وقد استصرخت به وفود إفريقية حين نكبتها الجنود الصقلية فهب عام 554 هـ يغذ السير نحو المغرب الأدنى في حركة متئدة تصون المحاصيل

---

15) الأنيس المطرب ج 2 ص 4.

16) المعجب ص 77.

17) الحلل الموشية ص 108.

ضاربا المثال الصالح في إقامة شعائر الدين واحتذاء سنن السلف فوصل إلى تونس معززا بسبعين قطعة بحرية فانصاع أهلها مستأمنين بينما اتجهت الجيوش الموحدية لفتح طرابلس ومرابض نفوسة وصفاقس وسوسة وقابس والحصون الإفريقية وهب أسطول صقلية في هذه الآونة في مائة وخمسين سفينة وطرادة لإنجاد الرعايا التورمانديين المحاصرين فصده الأسطول الموحدي في مطاردة اسفرت عن أسر سبعة مراكب.

وفي عام 555 هـ ـ سنة الأخماس ـ اكتملت وحدة القسم الشرقي الامبراطورية الموحدية من برقة إلى تلمسان حيث أقرت الحاميات، وهكذا انشغل الخليفة طوال خمس عشرة سنة في توطيد الشق الإفريقي من الامبراطورية فزحف في نفس العام نحو العدوة الشمالية بعد أن أصدر الأمر وهو في غمرة الجهاد بتحصين جبل الفتح (جبل طارق)، وكان الأسطول قد نما جهازه عام 557 هـ بأربعمائة قطعة رابطت في الثغور الكبرى منها مائة وعشرون في المعمورة (وهي المهدية بمصب نهر سبو) ومائة موزعة على طنجة وسبتة وبادس وموانئ الريف ومائة أخرى في مراسي إفريقية والجزائر وثمانون بسواحل الأندلس كما تعزز العتاد والسلاح وديوان الجيش بأربعين ألف فارس كومي وانتظم الحشد (عام 558 هـ) فتوافد الجنود من كل الأنحاء استعدادا للجواز الثاني إلى الأندلس وكان العرب الهلاليون في صف واحد مع زناتة والموحدين وباقي البربر في ثلاثمائة ألف فارس انتشروا بين مصبي سبو وأبي رقراق إلا أن المنية عاجلت الخليفة بسلا (18 جمادى الثانية 558هـ).

وبعد وفاة عبد المومن بايع الموحدون أبا يعقوب يوسف (558 هـ ـ 580 هـ).

ومرت ثماني سنوات (571 هـ 579 هـ) مهد الخليفة خلالها إفريقية فأعاد الكرة على الأندلس في جوازين واستنفر حشود البربر والعرب والاغزاز فعبر بهم (580 هـ) إلى غرب الأندلس ومات الأمير قرب الجزيرة الخضراء (10 ربيع الثاني 580 هـ) فنقل إلى تنميل حيث دفن بجانب قبر والده.

تلقى ولي العهد أبو يوسف يعقوب البيعة الأولى باشبيلية عام 580هـ، وواصل خلال ثلاث سنوات فتوحه للجزائر وطرابلس وانضمت إلى الخليفة أفواج من الاغزاز الأكراد الذين كانوا في جيش قراقوش فاندرجوا في سلك الجيش الموحدي وتفككت أوصال العرب المشغبين وزج بهم في خضم القبائل البربرية بالمغرب الأقصى كرصيد للجهاد في الأندلس وهكذا نزل بنو هلال وجشم الخلط في تامسنا بينما في الغرب استقر بنو رباح.

وعاد المنصور من إفريقية فنهض من جديد إلى الأندلس في جوازه الثاني (591 هـ)، وما كاد يطأ أرض الأندلس حتى اتجه صوب جنوب قشتالة وعسكر قرب قلعة رباح واستعرض الجيش ثم نزل حصن الأرك فرتب قواته في وجه العدو وعلى ميمنته الأندلسيون وبميسرته العرب والبربر وأمامه المتطوعون والاغزاز والرماة وهو يتوسط القلب بقيادة ابن أبي حفص الهنتاتي فانبرت الخيالة البربرية واقتحمت الأوعار التي تحصنت فيها عشرات الآلاف من الإسبان فانكسرت طليعة العدو وقرعت طبول النصر وظهر الخلل في صفوف الفونس بعد توالي النجدات الموحدية والتي اطبقت على حصن الأرك وطاردت الفلول المتعثرة وأسرت آلافا من الجنود ما لبث المنصور أن حررهم محتفظا بكتل من الاسلاب والعتاد والخيول، وعاد المنصور إلى مراكش (594 هـ) وتلقب بالمنصور ثم ما لبث أن توفي (ربيع الأول عام 595 هـ).

وكان القرنان الخامس والسادس أبرز العصور العلمية في المغرب حيث أصبح بلاط مراكش ملتقى الفلاسفة والأطباء والشعراء وتحرر الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل (18)، وبذلك أمكن للموحدين تحقيق وحدة الإسلام السياسية من قشتالة إلى طرابلس إلى السودان وقد شيدت

18) عبد الواحد المراكشي في المعجب ص 176.

القلاع والأسوار في مختلف الحواضر ومدت القنوات منذ ظهور الدولة.

وكان للموحدين جيش عتيد اقتلع جذور النورمانديين من افريقية بفضل أسطول قوي ساد البحار فكان أول أسطول في المتوسط (حسب اندري جوليان) وأسست في هذا العهد كتابة لديوان الجيش النظامي الذي كانت نواته الأولى هي ثلاثة آلاف الطلبة الذين تم تدريبهم بالإضافة إلى العلوم التقليدية على ركوب الخيل والسباحة والرماية والتجديف في بحيرة المسرة (المنارة) وتضخم هذا الجيش بانضمام الاغزاز والأكراد والعرب إلى أن بلغ نصف مليون.

وبعد وفاة المنصور خلفه ولي عهده محمد الناصر لدين الله وتجددت بيعته (عام 595 هـ) وكان رجلا شجاعا واستعاد مجموع إفريقية وانتصب الهنتاتي جد الحفصيين واليا عليها فركز الخليفة بذلك سلطة الحفصيين في تونس قبل أن يعود إلى حاضرة ملكه (604 هـ) وانفسح بانهيار بني الغانية مجال تحرير جزيرة ميورقة التي استعصت على المنصور فنازلها الأسطول الموحدي بإمرة أبي العلاء وأبي سعيد بن أبي حفص وقتل واليها عبد الله أخو ابن غانية وولى عليها عبد الله الكومي الذي أسندت إليه بعد ذلك أميرالية الأسطول وتوالى على ميورقة ومنورقة بعد أبي زيد عم الخليفة عاملان نيفا وعشرين سنة إلى أن احتل ميورقة ملك أراكون عام 627 هـ - 1230م، واقتحم الفونس قلعة رباح التي كانت أمنع الحصون واصطدم بالناصر فهزمه في حصن العقاب (15 صفر 609 هـ / 1212م)، وكانت ضربة قاسية انهارت بها مقومات الأمبراطورية الموحدية.

كما أن قواد الفردوس المتخاذلين لم يستطيعوا تحقيق الانتفاضة اللازمة لتدارك الأمر فظل الخلاف ينخر كيان الامبراطورية الموحدية طوال نصف قرن وهي متماسكة وقدلى أسفر انحلال المقومات العسكرية والروح السياسية عند مشيخة الموحدين عن انبثاق معسكرات في البلاط مما شجع الحفصيين على الاستقلال بتونس وزناتة وبني عبد الواد وبني زيان بالجزائر وبني مرين على الزحف على الشمال وتمردت القبائل العربية في سهول المحيط الأطلنطيقي وبنو معقل في واحات الصحراء.

إن الزمان كان يخدم المسيحية إذ تمزقت وحدة الأندلس المسلمة بقيام إمارات مستقلة بقيادة ولاة موحدين أو أمراء أندلسيين تجددت بها دويلات ملوك الطوائف للمرة الثالثة وبذلك تفتتت هذه الدويلات واحدة واحدة تحت ضربات فرديناند الثالث ملك قشتالة وجيم الأول أمير أراكون اللذين تكتلا لاقتسام النفوذ، وهكذا لم تكد تمر ثلاثون سنة حتى كان نصف الأندلس في قبضة المسيحيين وظلت المملكة النصرية وحدها قائمة في تبعيتها لقشتالة ولم يكن في وسع الموحدين نجدة الأندلس المتفككة لما غمرهم من انهيار تدريجي وكان صيت المغرب بدأ ينهار في الخارج مما شجع أسطولا جنويا على محاصرة سبتة وفرض غرامة أربعمائة ألف في مقابل الأفراج عنها وكان العهد قد بعد بين المغرب وهذه الغارات الأفرنجية على ثغوره لأن أدعياء الملك كانوا في شغل شاغل بتطاحنهم غير أن بني مرين توالت انتصاراتهم فاكتمل انقراض الدولة المومنية التي أقامت حول مراكش امبراطورية شملت الأندلس وإفريقية والصحراء إلى السودان.

وكان يعقوب بن عبد الحق (657 - 685 هـ) - (1269 - 1286م) بحق أبرز أمراء بني مرين، لم تنكس له راية ولم يهزم له جيش فحرر سلا من الأفرنج المتواطئين مع يعقوب بن أخيه عبد الله (658 هـ) حيث انتقل من تازة إلى مصب أبي رقراق في ظرف أربع وعشرين ساعة.

واستعرض يعقوب حشوده العربية (سفيان والخلط وذوي حسان والشبانات ورباح والهبط) في طريقه إلى تلمسان.

واستكملت وحدة البلاد من جديد في حدودها الإفريقية ووجد المرينيون في المغرب الجديد ثروة في الرجال والسكان واستقر العمران وانتشر الرغد وازدهر الاقتصاد في الحواضر وتمخض استيطان البدو والاعراب في السهول والواحات عن اتجاه اجتماعي جديد في المجتمعات البربرية عدا الأطلس الذي احتفظ بأصالته واستقلاله الذاتي

بالرغم عن بربرية الدولة، وملأت العناصر العربية الجديدة أزيد من نصف البلاد والتف معظمها حول يقعوب الذي أمسى أقوى ملك في الغرب الإسلامي حيث ارتكز على العرب وزناتة معا في قيادة جيوشه وتوطيدها.

وكانت مطامح الفونس العاشر في غزو الثغور الإفريقية لم تتبلور بعد لأن غاراته لم تكن تعدو جولات لنهب السواحل المغربية مع تضييق الخناق على المملكة النصرية.

وقد استنفر الخليفة المتطوعين من جميع القبائل واتجه أوائل عام 676 هـ من جديد نحو قصر المجاز (القصر الصغير) من حيث ابحر إلى طريف.

ولم تسفر حركات الجهاد المتوالية ضد قشتالة عن أي تعديل في التخوم القائمة بين الإسلام والمسيحية إذ تمخضت الانتصارات عن اختضاد شوكة قشتالة وتوطيد مملكة غرناطة التي واصلت الاضطلاع برسالة خالدة في الفردوس المفقود.

وكان الناصر أبو يعقوب يوسف (685 ـ 706 هـ / 1286 ـ 1307م). جوادا شهما مهيبا قام بتحرير الرعية من الضيافة الاجبارية ورعاية أمن الطرق.

وقد نقض (سانجة) عقود السلام فابحر يوسف إلى العدوة بعد أن مهد قائد الحاميات المرينية الطريق بغارات هوجاء ضد قشتالة فالتحم الأسطولان في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ونزل الجيش المريني بعد انهزام القطع القشتالية لمواصلة الغارات على اشبيلية وشريش والعودة إلى المغرب (691 هـ).

وزحف يوسف لحصار تلمسان وأدار عليها سورا ثانيا وخندقا سحيقا وأحاطها بالمجانيق واستمر التطويق الخانق مائة شهر وفي عام 692 هـ اختط يوسف بجانب السور قصرا ومسجدا وانتظم عمران هذه المدينة الجديدة (المنصورة) وكانت قوات يوسف تغزو النواحي الشرقية (وهران ومستغانم وتنس وشرشال وانشريس ومليانة والمدية والجزائر) وتنافس الحفصيون في خطب ود سلطان المغرب الظافر الذي ورد عليه يوسف شريف مكة ويرد ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون أحد مماليك الأيوبيين بالهدايا والتهاني مع بيعة شرفاء الحرم المكي وقرر الخليفة الأشراف شخصيا على العمليات إلى الريف والجبل فاقتحم حصن (علودان) وانتقل إلى طنجة (708 هـ) وقد اختطت تطوان من جديد كمركز لتنسيق الغارات وكان قد مر على بناء قصبتها في عهد يوسف نحو ربع قرن (685 هـ) وخف السلطان إلى الرباط لتفقد الحال وتعزيز الأسطول ببناء قطع جديدة في دار الصناعة بسلا.

ولعل أعظم ملوك بني مرين وأوسعهم نفوذا هو أبو الحسن الذي أقر في حصن تاوريرت حامية عسكرية لمراقبة حدود المغرب الشرقية ثم أعاد الكرة على المغرب الشرقي فاحتل وجدة وحواضر المغرب الأوسط وتكتلت زناتة كلها تحت لواء أبي الحسن الذي ذاع صيته في العالم الإسلامي وتواردت عليه برد سلطان مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وتبودلت (738 هـ) الخطابات والهدايا الثمينة من الأحجار الكريمة والحلل المذهبة والمرصعات والدرق اللمطية والخيول والصحف واستونفت العلائق بعد وفاة الناصر (741 هـ) مع نجله أبي الفداء إسماعيل حيث وصل الوفد المغربي إلى مصر بعد أربع سنوات (745 هـ) وقد وصلت كذلك تهاني السودان عن طريق سفارة وجهها سلطان مالي (منسي موسى) إلى أبي الحسن فبعث سلطان المغرب وفد الرد على التهنئة مع هدايا فاخرة وهكذا حقق أبو الحسن ما طمح إليه أسلافه فرضخ له ملوك عصره واكتمل بعقدهم انصياع ملك غرناطة محمد الرابع (نجل السلطان أبي الوليد بن أبي سعيد فرج بن الأحمر) الذي وفد على أبي الحسن بفاس عام 732 هـ للاستنجاد به ضد القشتاليين حيث كانوا قد احتلوا جبل الفتح (جبل طارق) منذ ربع قرن (709 هـ) فاسترد الأمير أبو مالك نجل السلطان المريني هذا الحصن (733 هـ) بخمسة آلاف من الأجناد البواسل غير أن هذه الامبراطورية الجديدة كانت منهارة من أساسها وهيأ أبو الحسن الأساطيل لغزو العدوة فتواردت على سبتة ست عشرة قطعة بحرية بامرة ابن فرجون قائد أسطول بجاية تعزز بها الجهاز الملاحي المريني فتجمعت مائة سفينة هزمت الأسطول

المسيحي وقتلت قائدة (الملند) واستاقت السفن المسلوبة إلى الثغور الإسلامية (شوال 740 هـ) ثم أجاز أبو الحسن فعسكر حول (طريف) وطوق المدينة واستنجد الفونس بأساطيل البرتغال وجنوة فحالت في الزقاق دون وصول المؤن إلى السلطان ونضب الزاد في الجيش المريني بينما تعزز القشتاليون بفيلق برتغالي ولم يكد يمضي نصف عام على حصار طريف حتى دخلها القشتاليون ليلا واستمر العراك في الصباح وفوجئ المسلمون فتراجعوا أمام زحف الحامية التي استولت على ذخائر الفسطاط الملكي وأضرمت النيران في المعسكر والتجأ أبو الحسن إلى جبل الفتح وعبر الزقاق (7 جمادى الثانية 741 هـ / 28 نونبر 1340) وبذلك مني الخليفة المريني بأكبر هزيمة في وقعة طريف قطعت الأمل في استيناف الجهاد بالأندلس فواجهت المملكة النصرية مصيرها بوسائلها الخاصة.

ومع ذلك بقي جبل الفتح تحت الحكم الإسلامي أزيد من قرن (1462م).

وبويع أبو عنان (749 ـ 759 هـ) فمهد المغربين ولكن دواعي الانهيار كانت تنخر كيان الدولة المرينية وتجددت تلك الظاهرة المستديمة في تاريخ المغرب منذ عهد (ماسينيسة) وهي الصراع الموصول بين القبائل الرحالة والأفواج القارة في القرى والحواضر، نعم أن ثورات الاعراب الجامحة اضافت إلى هلهلة الجهاز العسكري المريني الذي عجلت انقساماته بالانهيار.

وقد خلف بنو مرين الموحدين فوجهوا الفن اتجاها جديدا تبلورت فيه الازدواجية المغربية الأندلسية وانكبوا على إقامة المدن المحصنة ونقش المساجد والمدارس.

أما القوة العسكرية فإنها لم تقل مناعة عنها في عهد الموحدين وقد شاركت قبائل زناتة والعرب المستقرون في المغرب فكون هؤلاء كتائب الفرسان بينما اختص الأندلسيون في حمل الأقواس والمرتزقة كنباليين ورماة واستعملت الجيوش المرينية لأول مرة البارود في محاصرة سجلماسة عام 671 هـ (19) تعزز الجيش بمرتزقة من الأغزاز هم من بقايا العهد الموحدي ووحدة الزي عند زناتة والعرب والمسيحيين (عمائم منسدلة على الاكتاف ومناطق مبهرجة ورماح) وقد اعتنى المرينيون بالصوفية فجعلوا منهم روادا في طلائع الجهاد بالأندلس غير أن هذا الإطار الفخم ما لبث أن تهلهل بانبثاق معسكرات داخل البلاط وتدخل المرتزقة والمليشية المسيحية حيث فتك الوزير عمر الفودودي بالسلطان أبي سالم بتواطؤ مع قائد غرسية بن انطول (21 ذى القعدة 762 هـ).

وظهرت في الجنوب والصحراء إمارات إقطاعية ونكل الفودودي بانطول وجنده لتآمرهم مع بعض الوزراء المعتقلين وكانت ملحمة عنيفة مات في غمرتها معظم الأجناد المسيحيين وفكر الوزير الثائر في اقتسام المغرب مع الزعيم الهنتاتي وبذلك انفصمت عرى الوحدة المغربية بظهور مملكتي مراكش وفاس تحت سلطة الأميرين.

وكان عهد الحجابة قد أصبح بداية عصر جديد في المغرب فتغيرت كثير من الاتجاهات والعوائد والأوضاع الاجتماعية بسبب طغيان القبائل العربية التي أمست تتحكم في مصير الدولة في المغارب الثلاثة مما احنق أمثال ابن خلدون على عصاباتها المهرجة وتساوقت شتى العناصر في هذه الوجهة الاستئصالية فشاعت الأوبئة وخربت الأمصار واندرست كثير من معالم الحضارة وأطل الاستعمار الأوربي الناشئ مكشرا عن أنيابه في الشرق الأقصى وإفريقيا وسواحل المغرب فاحتل البرتغاليون سبتة (818 هـ) وبقي أبو سعيد على العرش خمس سنوات إلى أن توفى عام 823 هـ فخلفه ابنه عبد الحق الذي كابد الأمرين من زحف البرتغاليين على طنجة عام 841 هـ واحتلالهم لها عام 869 هـ والاستيلاء على القصر الصغير (قصر المجاز أو قصر مصمودة) عام 863 هـ.

وهكذا بدأت مظاهر أزمة عصيبة تلوح في أفق قاتم بسبب تطاحن بني وطاس وبني مرين ثم السعديين وزحف

---

19) حسب ابن خلدون وصاحب الذخيرة السنية (ص 158) ويؤكد صاحب (الحلل الموشية) استعمال ابن عباد للمطاردات والرعادات في الجواز الثاني لابن تاشفين إلى الأندلس 481 هـ (ص 55).

الصليب على ثغور الأندلس وسواحل المغرب ضمن حركة استعمارية عارمة في نطاق ما يسمى Reconquista وبرزت مراكز الهند الاقتصادية وانتقلت أوربا من العصور الوسطى إلى فترة ما قبل النهضة وامحت معالم الفردوس المفقود وزحف الإسلام من الشرق على أوربا تحت راية العثمانيين وأصبح المغرب نظرا لوضعه الجغرافي موزعا بين مطامع الأتراك في حدوده الشرقية والإسبان شمالا والعالم الجديد غربا وكانت سواحله بالبحر الأبيض المتوسط مسرحا لعراك عنيف بين الهلال والصليب تبلور في سقوط الاستانة (858 هـ / 1453م).

وأبرز سمة طبعت الفورة الشعبية في هذا العصر الذهبي هي ثورة العلماء والصوفية ضد تدخل الصليب في شؤون الإسلام واحتلال المسيحية لثغور المسلمين وبدأت نقطة هذا الانطلاق في حركة الجهاد المنبثقة في ربض سبتة التي كانت أول معقل مغربي اقتحمته الكاثوليكية ولمس المسلمون خطرا داهما لم تنزجر قبائل العرب من جرائه عن عيثها ولا الملوك الحفصيون والزيانيون والوطاسيون عن تناحرهم.

وكان رجال التصوف يؤسسون المعاقل لدعم حركة الجهاد فاختط المجاهد أبو جمعة العلمي ثم ابن عمه علي بن موسى بن راشد في نفس السنة مدينة شفشاون في نقطة استراتيجية سيرتكز عليها آل الخطابي في حرب الريف 1920 ـ 1926 ثم شيد المهاجرون الأندلسيون المنحدرون إلى المغرب قبيل استيلاء الإسبان على غرناطة عام 897 هـ مدينة تطوان بمساعدة بني راشد فأصبحت قاعدة للهجمات التي والاها المجاهدون بقيادة على المنظري ضد الوجود الأجنبي في المغرب وكان البرتغاليون قد اكتسحوا معظم ثغور الشمال وبدأوا يزحفون نحو المراكز الساحلية بالجنوب (أنفا عام 874 والبريجة عام 907 وأكادير عام 910) فمات في غضون ذلك محمد الوطاسي (910 هـ) وخلفه ولده محمد البرتغالي الذي خاض غمرة الجهاد في الشمال بينما انبثق السعديون لمواجهة الاحتلال الأجنبي في الجنوب وقد قاوم الشعب في هذه الغضون مقاومة عنيفة رغم قلة الحاميات النظامية فكبدت الجماهير العدو خسارات فادحة في أسفي وأزمور طوال سنوات عديدة وزحف الجيش البرتغالي (912 ـ 914 هـ) نحو أصيلا المحتلة منذ عام 876 هـ للاقتصاص من الذين أذاقوه مرارة الأسر سنوات فالتحم الفريقان داخل المدينة ولكن النصر حالف الأسطول البرتغالي والإسباني الذي عزز مراكزه في المتوسط والأطلنطقي بتأسيس بادس واحتلال وهران (914 هـ) ثم المعمورة المهدية (920 هـ) وفي نفس الفترة (922 ـ 923 هـ / 1515 ـ 1517م) بدأ العملاق التركي يغزو الجناح الشرقي من البحر المتوسط فكانت بداية عصر التحجر والانحطاط في العالم العربي إذ انقلبت العصور الوسطى (395 هـ / 1453م) التي ازدهرت في فترة منها معالم الحضارة الإسلامية إلى عهد صراع بين مدنية إسلامية متحضرة وحضارة أوربية نامية وساوق هذا الصراع في الصعيد العالمي صراع إقليمي بين السعديين والوطاسيين.

وهكذا تمخضت القمة الصليبية عن وقوع المغرب في منطقة نفوذ البرتغاليين كرد فعل لاحتلال المغاربة للأندلس طوال ثمانمائة سنة وحملات القراصنة الذين اتخذوا من بعض المراسي المغربية ملجأ لأساطيلهم. وكانت قلعة سانطا كروزا بأكادير قاعدة برتغالية في المحيط الأطلنطقي وقد استغرق البرتغاليون نحوا من ثلاثة أرباع قرن في احتلال مراسي الشمال إلى نهر سبو وما يقاربها في ضم مراسي الجنوب من مصب أم الربيع إلى السوس وبذلك قبضوا على زمام معظم المرافئ المغربية (عدا سلا وبادس) التي استحالت إلى حصون تحت ضغط الغارات الوطنية ولكن هذا الهيكل ما لبث أن تضعضع بسبب الانتفاضات الشعبية التي ساندت تطوان والشاون والعرائش والقصر الكبير غير أن تخاذل بعض القبائل في الجنوب فسح المجال موقتا لحماية برتغالية فعلية ونفوذ اقتصادي خطير من السوس إلى درعة ومن آسفي إلى الرحامنة وأرباض مراكش ولكن الجماهير ظلت في عراك عنيف مع المسيحيين تبلور في وقائع منها الغزوة التي أججها قرب أصيلا القائد عبد الواحد العروسي (940 هـ) وكان تهالك

الأدعياء على العروش هو العامل الحاسم في تقويضها بالعدوتين فهذه مملكة غرناطة قد اعتلى عرشها السلطان أبو الحسن علي بن سعد فدفع القشتاليون أخاه محمدا الزغل لمناوأته وحظي بالبيعة في مالقة فانقسمت الدولة شطرين (880 هـ). وكانت قشتالة قد اتحدت مع الأراكون بسبب زواج إيزابيلا وفرديناند وانقطعت إمدادات المغرب باحتلال مراسي الزقاق وتطويق السواحل وانتقال الهجوم البرتغالي إلى عقر الديار المغربية فاسترجعت الكاثوليكية بذلك آخر معقل عربي في الأندلس وانعقد أول اجتماع مسيحي بين ملوك الكاثوليكية في قصر الحمراء غداة الاحتلال ورغم الشروط السبعة والستين التي حاول الغرناطيون بها ضمانة حريتهم الدينية وأموالهم بدأت سلسلة قاسية من التعسفات دفعت الأمير المخلوع إلى الهجرة لفاس وتنصير المسلمين بعد بضع سنوات (904 هـ). وسفرت ثورات المسلمين العارمة بأمصار مملكة غرناطة الشهيدة عن تشتيتهم وإدماجهم في شمال البلاد وغربها عام 1570م ولكن تعلق الكثير منهم بالإسلام حدا فيليب الثالث في نفيهم نهائيا (1609 ـ 1612م) ففسح المغرب صدره للمهاجرين وورث حضارة الأندلس اليانعة.

وكان لسقوط الأندلس وغزو البرتغاليين والإسبان لسواحل إفريقيا الشمالية رد فعل قوي في نفوس الجماهير التي انتفضت في الحواضر والبوادي للجهاد في معركة صليبية عنيفة اتخذت المغرب مسرحا لها وقد أذكى هذا الاعتداء الروح العسكرية وبغض الأجنبي المغير وتبطنت هذه الوجهة الساذجة باتجاه صوفي جديد نما وترعرع ضمن وحدة شعبية شاملة قاد فورتها العلماء والصوفية والاشراف وانضاف إلى ازدهار الثقافة الإسلامية إشعاع روحي جعل من الأمة الواعية كتلة متراصة في وجه العدو.

وفي هذا الخضم العارم انبرى السعديون لقيادة الثورة تحت شارة الانتساب لآل البيت وكان البرتغاليون قد نفذوا إلى السوس، واكتمل تحرير الثغور الجنوبية باحتلال فونتي (947 هـ) واختطاط مرساها (أكادير) ثم الدخول إلى آسفي وأزمور (948 هـ) اللتين نزح عنهما البرتغاليون.

فنقل السعديون عاصمتهم إلى مراكش وعززوا جيشهم بالأتراك الذي قدموا مع أبي حسون بقيادة الكاهية صالح باي (وهم اليكشارية أي الجيش الجديد).

وكان الشغل الشاغل لمحمد الشيخ هو مطامع الأتراك بالمغرب حيث أوفد السلطان سليمان للدعوة له على المنابر وسك النقود باسمه احتذاء بأبي حسون فشعر بالخطر الداهم ولم يكد رسول الباب العالي يعود إلى القسطنطينية حتى صدر الأمر بدس بعض صعالكة الأتراك لاغتيال الأمير الذي كان في نفس الوقت يسعى في التحالف مع الإسبان لطرد العثمانيين من إفريقيا الشمالية.

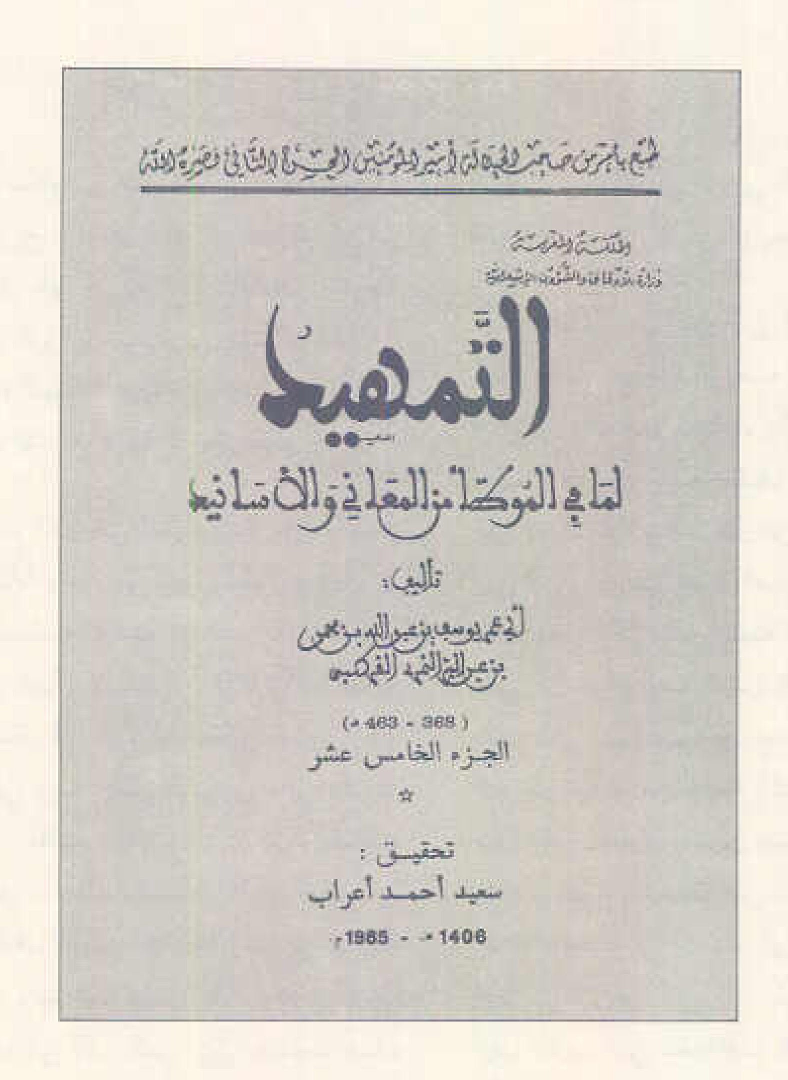
وكان الأتراك مشتغلين في هذه الفترة باحتلال البلقان وأوربا الوسطى فكان للقراصنة الفضل الأول في طرد الاسبان من ثغور الجزائر وتونس وإخضاع الايالتين للحكم العثماني ضد بني عبد الواد والحفصيين وكان القراصنة قد استقلوا ببعض المراسي وأسسوا جمهوريات حرة وتزعموا حركة الجهاد في البحر المتوسط ومن هؤلاء الإخوان عروج وخير الدين الذي عمد تعزيزا لقوته إلى ضم إيالته للأتراك بالدعوة للسلطان سليم الذي جهزه بالجيش والمدفعية فاحتل عنابة وقسطنطينة وأصبحت جزائر بني مزغنة عاصمة الجزائر التركية ثم احتل عاصمة الخضراء (تونس) (940 هـ) التي استردها الحفصيون ثم احتلها الأتراك (977 هـ) وأصبح خير الدين قبطان باشا أي (981 ـ 983 هـ) (1574 ـ 1576م) وهو معروف بالملوخ وقد واجه منذ اعتلائه العرش مشكلة خطيرة هي وجود عمه عبد الملك وأحمد في القسطنطينية لاجئين عند السلطان سليم يستحثانه لإمدادهما بالجيش والعتاد لاعتلاء أريكة المغرب الأقصى. فانتظمت الحملة واستلف عبد الملك المال والعتاد وزحف نحو المغرب الأقصى في حشود تركية ففت ذلك في عضد المتوكل الذي سارع إلى النزوح ودخل أبو مروان إلى فاس (سابع ذى الحجة 983 هـ ـ 31 مارس 1576م).

وقد امتاز مولاي عبد الملك (983 ـ 986 هـ) (1576 ـ 1578م) بأصالة في الرأي نتجت عن تقلباته في الخارج واحتكاكه بشتى الحضارات التي كانت تتفاعل إذ ذاك في

الامبراطورية العثمانية حيث أجاد الإسبانية والإيطالية والتركية.

وبعد مبايعته بفاس وبذل المال والهدايا للجند التركي مع عشرة مدافع والتظاهر بالدعوة للسلطان مراد على المنابر رحل العثمانيون عن المغرب واتجه الأمير نحو مراكش في جيش جديد تعزز قوامه الفاسي والأندلسي بأتراك وجزائريين (زواوة) وعرب واصطدم الأميران في وادي شراط فانهزم المتوكل ثم استخلف أخاه بفاس وكلفه بتجهيز العرائش لمواجهة حركة البرتغاليين بأصيلا.

ولم يكن أبو مروان يهتم بأكثر من ضمان استقلال المغرب مهما تكن الوسائل وكان يتوجس خيفة من مطامع الأتراك لذلك لم ير بدا من محالفة الإسبان لا سيما وأن خصمه المتوكل يحاول الاستعانة بهم لإعادة الكرة على العرش ووازن الإسبان بين المعسكرين ففضلوا الجالس على العرش فلم يسع المتوكل آنذاك إلا الاستنجاد بالبرتغال وقد حنكت التجربة أبا مروان في الاستانة فأصبح يقدر فعالية الدسائس التي تحاك في الحقل الدولي فعمد إلى نهج سياسة والده في السوس بتشجيع التجار الإنجليز دون الانغمار في تحالف سري طبقا لرغبة الملكة إيلزبيت التي أوفدت لهذه الغاية سفيرها إيدمون هوكان Hogan Edmond كما سعى في ربط صلات ودية بفرنسا صديقة الأتراك لضمان حيادها أو توسيطها عند الاقتضاء.



مؤتــة و اليرموك

موقعتان توأمــان تتمّم إحداهما الأخرى

للدكتور محمّد نجيب البهبيــتي

مؤتة واليرموك تتكاملان حتى لتمثلان موقعة واحدة ذات أثر حاسم في تاريخ الإنسان. فلو أن النصر لم يتم في كلتيهما للمسلمين لظل باب جزيرة العرب الشمالي مفتوحا على مصراعيه لاندفاع غزو روماني عربي مشترك كان من الممكن أن يحطم نواة النهضة العربية الإسلامية في مهدها الأول، ويعطل مجرى التاريخ قرونا لا يعلم طولها إلا الله.

ولعل نسبة الحسم التاريخي لمعركة مثل مؤتة يبدو غريبا لدى من قرأ كتابات مؤرخي العرب عنها، ورأى منهم من اعتبرها هزيمة للمسلمين، ومنهم من اعتبر نجاة الجيش الإسلامي الذي حارب فيها - وعدده كان ثلاثة آلاف مقاتل - نصرا اعتبارا، لا حقيقة، لأن هذه الطائفة من المؤمنين قد استطاعت أن تقوم في وجه جيش عربي روماني مشترك بلغ تعداده مائتي ألف، فقتلت منه ما قتلت، ثم استطاعت الانسحاب المنظم الذي رسمه لها قائدها الرابع خالد بن الوليد، بعد مقتل قوادها الأولين الثلاثة: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، وهم من أعظم المسلمين شأنا وقربا إلى قلب النبي ﷺ، فعدّت هذه الطائفة الثانية من المؤرخين هذا الانسحاب للجيش الصغير الناجي من الطوفان الرومي العربي عملا معجزا، يعتبر في ذاته نصرا ما كان يمكن أن يحققه إلا خالد بن الوليد القائد الذي لم يهزم في حرب قط.

والفئتان من المؤرخين كلتاهما لم يقعا على حقيقة العمل الذي خرجت له هذه القلة القليلة من المسلمين : ماهيته، وهدفه، ومجراه، وأثره الذي رمى به النبي إلى تحقيقه، فخرج وحققه تحقيقا أثلج صدر النبي ﷺ، وإن كان قد كلم فيه بفقد رجال عزوا عليه، وأحبهم. وهذا هو ما ألهى المؤرخين عن أهمية العمل، فتركزت عليه أنظارهم.

ونحن لكي نقدر حقيقة (مؤتة) وعملها في التاريخ، يتعين أن نضع تحت النظرة الجامعة الموقف العربي في بيئته التي نشأ فيها ودرج، وموقعه الخطر بين قوتين كبيرتين تَحُفَّانه من جانبيه الشمالي والشرقي، والنظرة التي كان هذان العدوان ينظران بها إلى الإسلام، وهما يريانه يشب وينمو، وينبسط على أرض الجزيرة العربية شاملا أعماقها، منسابا في مد دائم إلى أطرافها، مقتربا في هدير مُصِمٍّ إلى الأراضي التي كانا يقيمان فيها، أو يشغلانها من أرض العرب التي شغلاها بتفرق العرب واشتغال بعضهم ببأس بعض.

العدو الخبيث المخادع الحاقد الذي لا يمكن حقده.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيد بن مسعود، وهو يرسله على رأس أول بعث جرده لفتح فارس، بعد بعوث أبي بكر رضي الله عنه، وقد كانت لتفتيت سنان الحربة الموجهة من قبل فارس إلى صدر الجزيرة العربية، استعدادا لتحقيق حلم كان قد أخذ يراود الفرس في فتح بلاد العرب، بعد أن قتلوا النعمان الخامس غدرا، وقد كان هو وجيشه من القبائل العربية المحالفة له وهم درعها الواقي كما كانوا من قبل، هم أنفسهم، درع فارس الذي يصد عنهم انفجارات العرب المتكررة على طول حقب التاريخ على الفرس.

فلقد أنس الفرس في هذا العهد الأخير من الفترة الجاهلية الأخيرة، من أنفسهم ظن القوة التي تمكنهم من إخضاع العرب في الجزيرة لسلطانهم، ولما أحسوا أن النعمان الخامس المنذري هو العقبة التي تعترض طريقهم إلى تحقيق مطلبهم قتلوه بعد أن استدعوه إلى عاصمتهم على أمان منه لهم.

ولولا أن هذا العهد نفسه كان مرحلة اضطراب وصراع على الملك بين المتنافسين من أعضاء أسرة الملك الفارسي، لأقدم الفرس على غزو الجزيرة العربية من شرقها. ولم يكن الفرس بغفلة عن عمل التوحيد الذي راح الإسلام يحققه للعرب الذين ظلوا متفرقين، يتفتتون بعد وحدة كلما تهيأت لهم على التاريخ وحدة. فالنبي ﷺ، قد أرسل فيما أرسل من رسله إلى الملوك إلى كسرى برسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، فهاج ومزق الرسالة. فالفرس بعد أن وجدوا شيئا من الاستقرار في ظل ملكهم الأخير، وبعد أن شلوا يد المناذرة، راحوا يستعدون للوثوب على الجزيرة. وقد بدأوا ببناء مسالح على حدود العراق الغربية، لتأمين مواثب أولية لهم على ما وراءها من أرض الجزيرة، وراحوا يصطنعون باسم الحلف أمراء جدد من طيئ ومن تيم. على أن هذه العملية التي كانت قد توقفت في ظل الفوضى التي أصابت أداة الحكم فيهم بما يشبه الشلل فترة، أخذت تتحرك من جديد.

وكما أن الفرس لم يكونوا بغفلة عما كان يحدث في الجزيرة، كذلك لم يكن قادة المسلمين بغيب عما كان يحدث داخل فارس، وفي العراق العربية استعدادا للوثوب، فكانت بعوث أبي بكر رضي الله عنه إلى فارس عملا يزلزل به قواعد هذا التأهب للوثوب فيقول عمر لقائد بعثه الأول، وكان هذه المرة للفتح، وليس للتعطيل :

«إنك تقدم على أرض المكر والخديعة، والخيانة والجبرية. تقدم على قوم قد جرؤا على الشر **فعلموه** وتناسوا الخير فجهلوه. فانظر كيف تكون، واخزن لسانك، ولا تفشين سرك، فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة» (الطبري 4 ص : 66 ـ 67) كذلك كان فهم عمر رضي الله عنه للفرس، وتلك كانت وصيته لأول رجل بعث به على رأس جيش لحربهم، فلم تكن مواجهة عمر للفرس مواجهة من لا يعرفهم أو من هو بغفلة عن أهدافهم، أو من يقدم في حربهم على مجهول، أو على قوة لا يقدر جوانبها ومخاطرها، بل كان إقداما بصيرا، وكان فهمه واضحا للغاية وللطريق التي سيسلكها إليها، وما كان الفرس ليجهلوا رأي عمر هذا فيهم، وقبل عمر غزا المسلمون العراق في عهد أبي بكر رضي الله عنه، واستطاع المثنى بن حارثة الشيباني البكري أن يذلل أطراف العراق أولا، وشيبان لها قبل أن تسلم انتصار «ذي قار» على الفرس، وكان نصرا مدويا، يوم هزمت شيبان جيشهم انتقاما لغدر كسرى بصهرهم «النعمان الخامس» حين استدعاه على عهد ثم قتله، وقال النبي ﷺ، فيه قولته :

«اليوم انتصف العرب من العجم، وهم نُصروا بي».

وقد جاء مقتل النعمان الغادر نهاية لصراع مكبوت بينه وبين السلطان الفارسي الذي كان راح يستشري بعد انتصارهم على الروم في الوقائع التي فرحت قريش بنتيجتها واعتبرتها نصرا لدين وثني على النصرانية التي كان الإسلام ينظر إلى حقيقتها باعتبارها دينا موحدا،

فاعتبرت قريش هذا النصر هزيمة للإسلام الذي كان النبي يدعو إليه، وكانت ترفضه وتستمسك بشركها. فنزل قوله تعالى :

﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وكان الفرس ينالون نصرهم دائما على الروم بمساعدة ملوك المناذرة العرب الذين كانوا يقومون إلى جانبهم في حروبهم مع الروم دائما، كما كان الروم ينالون نصرهم على الفرس بمساعدة ملوك الغساسنة الذين كانوا يقومون إلى جانبهم في حروبهم ضد الفرس.

وفي تاريخ الفترة الأخيرة لدولتي المناذرة في العراق والغساسنة في الشام غموض واختلاط، وتداخل بين أسماء ملوك الدولتين، بل إن الاختلاط ليقع فيما هو أبعد من ذلك فيدخل فيهم اسم الحارث الأكبر الكندي (جد امرىء القيس الشاعر) وابنه.

وأعمق ما يطبع هذه الفترة من فترات التاريخ العربي هو أثر الملك «الحارث الكندي». فلقد وحد الرجل عرب شبه الجزيرة، وقادهم في انتصارات على الفرس والروم جميعا، وابتلع ملكه الدولتين العربيتين في العراق والشام، واستفاض حتى شمل آسيا الصغرى وأشرف على البوسفور، وهدد القسطنطينية، واضطر الروم إلى عقد معاهدة بينهم وبينه يقوم فيها الفريقان كل من الآخر مقام النظير المساوي، وهي المعاهدة التي استغل امرؤ القيس الشاعر شروطها في طلبه مساعدة قيصر القسطنطينية ومده بجيش يعينه على استرجاع ملك آبائه بعد أن فقده في انتقاضة مفاجئة «لأسد» عليه.

وقد عاش الحارث الكندي طويلا، وبلغ من العمر أمدا حمله على أن يتبع سياسة رمى بها إلى إيجاد نوع من الانسجام بين ماضي المنطقة العربي وبين واقعها الذي انتهت إليه في عهده، وفي أعقاب انتصاراته.

فرد على العراق ملكها «المنذر بن امرئ القيس» (ابن ماء السماء) بعد أن زوجه ابنته «هندا»، التي كان له منها ابنه الملك من بعده : (عمرو بن هند). وكان التنظيم العسكري في الجاهلية يعتمد على «القبيلة» باعتبارها وحدات عسكرية كبيرة تنقسم عند العمل الحربي إلى وحدات تنظيمية أصغر، فهي تخضع لقيادات تتسلسل من كبيرة إلى صغيرة لضمان التماسك بينها، وضبط حركتها في القتال، وقد اتصل هذا النظام في ظل الإسلام، وكانت أصغر وحدات العمل القتالي (عشرة) من المقاتلين، عليهم (عريف)، يعرفهم بأسمائهم، ويقودهم في الحرب،القيادة التي تستهدي بأوامر القائد العام وتندمج مع غيرها في تنفيذ خطته، وكان هذا يلقب عسكريا «الجرار».

وقد أدخل «خالد بن الوليد» في نطاق هذا التنظيم الجامع نظام الكراديس، وصيره إطارا يلتف على عدد من الوحدات الصغيرة في أقسام الفصائل، وكان ذلك في واقعة (اليرموك) في حرب الروم، ثم اتبع «سعد بن أبي وقاص» هذا النظام بمجموعه في (القادسية) وما جاء بعدها في حرب الفرس.

وكان كبار قواد جيوش «الحارث الكندي» في حروبه أبناءه، جعل كل واحد منهم على رأس مجموعة من القبائل، فكانوا يحاربون معه عليها.

ولما كبرت سن «الحارث» ظل أبناؤه كل على رأس المجموعة التي كان يقودها في ظل أبيه، واعتبر ملكا لها. وما كاد الحارث يموت حتى انقسم أبناؤه فيما بينهم واختلفت القبائل بينهم، واحتربت بينهم الحرب وتعاظمت ضحاياها، وخشي مغبتها حكماؤهم فانقلبوا إلى طلب النجاة منها تحت إمرة «كليب، خاصة بعد أن رأوا الأحباش ينزلون اليمن، ويحاولون الصعود منها إلى الشمال. وقد وحد الشماليون صفوفهم تحت إمرة كليب، ولقيهم «كليب» في (خزازي) بالعرب الشماليين ففض جموعهم وهزمهم،وفيما كان «كليب» يسعى إلى تنظيم ملكه الجديد، انقسمت أسرة الملك على نفسها، وقتله غيلة ابن عمه جساس، وانقسمت ربيعة إلى قسمين : بكر وتغلب، ونشبت بينهما الحرب دامية اتصلت طويلا.

وكـان للمنـاذرة صهر في بكر، فلمـا قتـل الفرس «النعمـان» قـامت بكر بحرب الفرس وهزمتهم في «ذي قـار» التي سبقت إليها الإشارة، انتقاما لصهرها.

لم تكن امبراطـوريـة الفرس إذن عنـد العرب قـوة تستعصي على الهزيمة، كما لم يكن الروم قوة تستعصي على الهـزيمـة، فقـد هـزمـوهم في أكثر من مـوقعـة، ثم إنهم كانوا يعرفون معرفة اليقين، عن طريق التجربة التي مرت بهـا دولتـاهم في الشـام وفي العراق أن النصر الذي كـانت تحصله إحدى الامبراطوريتين على الأخرى كان يعتمد إلى مدى بعيد على سيوفهم، وكتـائبهم التي كـانت تقوم إلى جانب كل منهما.

وكانت بكر ـ وشيبـان منها خاصة ـ أحدث العرب لقاء للفرس، وانتصارا عليهمـا،وكـان المثنى بن حـارثـة الشيبـاني هو أول قـائد عربي مسلم عمـل مع فصـائلـه من شيبـان في حرب الفرس في العراق أول عمـل منظم وجـدد لهم الهزائم واحدة بعد أخرى.

ونحن من علاقـة الفرس بـالمنـاذرة، ومن علاقـة الروم بـالغـسـاسنـة في أواخر العصر الجـاهلي بـإزاء ظـاهرتين متشابهتين. فالروم قد غدروا بالملك الغسـاني، فـاستـدرجوه على عهـد وقتلوه قبل الإسلام بقليل والفرس صنعـوا الصنيع نفسـه بالنعمان.

وقـد هـزم الفرس الروم في الـواقعـة التي أشـار إليهـا القرآن الكريم قبـل قتلهم النعمـان، وانهـزم الروم في حربهم هذه بعد غدرهم بالملك الغساني.

وغدر الفريقين كل بحليفه العربي يجيء بعد مرحلـة من افتقاد الفرس التحمس لهم لـدى النعمـان، وافتقـاد الروم التحمس لهم من الغسـاسنـة، ولم ينتبـه وضـع الـدولتين العربيتين إلى هذا الفتور إلا بعد الـدروس التي تلقوهـا من انتصـارات الحـارث الكنـدي على الـدولتين، وتبينهم اعتـلاء كلمـة العرب على هـاتين الامبراطوريتين بـاتحـادهم ثم مـا كان من عودة المد إلى سلطان الامبراطوريتين بعـد افتراق أبناء الحارث، وتـافك العرب دماءهم فيمـا بينهم، وصيرورة قوتهم إلى الضعف بـالخـلاف، وهـذا مـا دفـع بـالنعمـان إلى التقارب مع الغساسنة.

وجسامة الخسـائر التي لقيهـا العرب في هـذه الحروب الأهليـة فجرت في قلوب كبـارهم بغضهـا، وحملتهم على السـعي إلى وقف رحـاهـا. وقـد تبين لهم أن أخطر أسبـاب هذه الفتنـة كـان صراع الرؤسـاء على السلطـان، فـالتقت كلمتهم على تجنيبهم هذه الرياسة جملة باختيار ملك يأتون به من خارج هذه القبائل التي طحنتها هذه الحرب،ولذلـك تـوجهوا إلى اليمن يختـارون لقبـائلهم مجتمعـة ملكـا من ملـوكهـا إذ أنه في ملـوك اليمن كـانت تلتقي كلمتهم بعـد الفرقـة، ويمضون إلى القوة بعـد الضعف، وكـان هـذا وجهـا من وجوه نصبهم باستعادة الوحدة.

وفيما كـان شيوخ القوم وحكمـاؤهم يلتمسـون الوحـدة عن طريق الملك الواحـد يختـارونه لقبـائلهم من خـارجهـا كـان شعراؤهم يسعون بين المتنـافسين على الملـك لتوحيـد كلمـة العرب، ورفع أسبـاب الخلاف بينهم، وقـد فقـد عـدد كبير منهم حيـاتـه في هـذا المسعى، ولم يكن تحفـز الفرس من جـانب للوثوب على ملـك المنـاذرة في العراق، وتحفـز الروم للوثوب على ملك الغساسنة بالشام،إلا رد فعل للخوف من قيام هذا الاتحـاد العربي النـاهض إلى جـانبهم، وذكرى «الحارث الكندي» لا تزال غصة تقض مضاجعهم.

ثم جاءت الدعوة الإسلامية، وانتهت إليهم في الجانبين أخبـارهـا، ولم يكن مطلبهـا تـوحيـد كلمـة العرب في جزيرتهم فحسـب، وإنمـا كـانت رسـالـة إلهيـة يمضي العرب تحت لوائها إلى توحيد عالم بتمـامـه في ظل شريعـة اللـه، بـأن ثبت لهم أنهم لن يهـدأوا مـا دامـوا ممـزقين بين قـوتين تتصارعان الصراع الدائم الرامي على ابتلاع عالمهم.

والأخبار العربية الباقيـة عن هـذه الفترة تثبت أمرين متنـاقضين في وصف وقع هـذا الوضع العربي الجـديـد على الامبراطوريتين المجاورتين :

ففي فـارس التخـادع للنفس المشبع بـالغرور المترجم عن نزق عرف به الفرس خلال تـاريخهم في المنطقـة بـإزاء العرب، وهـذا يقـع منهم مـع أن هـزيمتهم أمـام فريـق من العرب في (ذي قـار) كـانت لا تـزال تلـوح في الأفـق، وهزائمهم أما «الحارث الكندي» قبل ذلـك كـانت رهبتهـا لا تزال تأخذ بأعنـاقهم وقلوبهم، لكن أملا واحـدا كـان يجعلهم

يكلون النتائج إلى المستقبل، وهذا الأمل كان معلقا بأن يقع الخلاف بين العرب، فيمتص قواهم في حروب يوجهها بعضهم في وجه بعض، وقد كان الماضي القريب يدل على هذا : فأبناء الحارث الكندي قد قتل بعضهم بعضا فتحطمت الدولة التي بناها أبوهم وبنوها معه. حتى (كندة) قد مزقتها الفتن، فقتلت «أسد» ملكها غيلة، ثم تولى المناذرة استئصال شأفة أمراء أسرتها المالكة، لم يبقوا منهم على أحد إلا أميرا واحدا هرب، ولكنه لم يستطع استرداد ملك آبائه، ثم مات غريبا : وهو امرؤ القيس الشاعر.

لذلك قبل الفرس التحدي، ولما جاءت ملكهم رسالة النبي مزقها، فدعا النبي ربه أن يمزق ملكه. ثم إن الفرس كانوا يتهيأون للوثوب على جزيرة العرب أيام جاءتهم رسالة النبي، وكان قتلهم «النعمان الأخير» وتوهمهم إمكان انطلاق يدهم في ملكه، تمهيدا لهذا الوثوب، وكان «النعمان» قد تنبأ بذلك، وحاول أن يرد عنه الفرس ونبه إليه طائفة من كبار رجال العرب، فلقي في هذا الصراع الصامت مصرعه.

وحديث الوفود العربية التي حشدها «النعمان» إلى بلاط كسري، حديث مؤرخ صادق، لا تعتوره الشبهات إلا في رأس جاهل بتاريخ تلك الفترة الانتقالية من حياة المنطقة. كل خط من خطوطه يضع في ضوء النهار قطعة من ذلك الصراع الذي كان قد سار شوطا بعيدا بين العرب والفرس والملك الذي كان يتصور أنه في طريقه إلى حرب مع العرب الذين خرج من بينهم هذا النبي الذي يدعوه اليوم إلى الخضوع المطلق له من غير أن يرفع في وجهه يدا، قمين به أن ينبذ هذا الاقتراح إلى صاحبه.

كان هذا موقف الفرس، أما موقف الروم فكان مضادا لهذا الموقف الفارسي. كانت أعين الروم مفتوحة دائما على ما يقع في قلب الجزيرة، وقد عرفوا بظهور نبي فيها يدعو إلى الله دعوة تلتقي إلى حد بعيد مع النصرانية التي يدينون بها، وإن هرقل ليتابع في اهتمام أخبار هذه الدعوة، فتجار قريش يأتون الشام والقسطنطينية كل عام مرة، وكبار قريش يلتقون به في بلاطه، وإنه ليسألهم عنه فيجيبونه صادقين بما عرفوه عن النبي، وعن نضاله في سبيل نشر رسالته، وما من شك في أن بعض هؤلاء المتعاطفين مع الإسلام قد أخبروه بأن هذا النبي قد تنبأ بانتصاره على الفرس من يوم أن انهزم الروم أمام الفرس، وأن هذه النبوءة قد تحققت، وأنه اعتبر نصر الروم نصرا لدين كتابي يلتقي مع دينه في الكثير، وأنه قد نزل عليه في ذلك قرآن يؤكد النصر الرومي على الفرس قبل أن يتحقق النصر بأعوام، وقد تحقق صدقه.

وهذا ليس بالشيء اليسير، عند قياس عقائد الناس، والتماس ما يترك العمل فيهم من أثر، ولذلك لا يغرب ما جاءنا عن هرقل من أنه كان شديد التردد في مواجهة الإسلام بالعداوة، على ما كان قومه يريدون ويطلبون. فلقد كان هرقل مقتنعا بأنه بإزاء دين جديد لا يقل صحة عما أتى به السابقون من الأنبياء، ومن بينهم عيسى، حتى لو أنه كان يرى، كما يرى قومه، أن عيسى لم يكن مجرد نبي مثل غيره من الأنبياء، فلم يكن وقع الدين الجديد في نفسه ينبع من اعتبار واحد، وإنما كان ينبع من شتى الاعتبارات. والامبراطورية الرومانية في أوجها عجزت عن اقتحام الجزيرة، فوقفت عند أبوابها، ثم انتهت إلى القناعة بالاحتجاب وراء سور الغساسنة آخرا.

واهتمام الروم بما كان يجري داخل الجزيرة العربية، وتقديرهم بأن كثيرا من تاريخهم كان يرتبط به، أمران يقومان في نفوسهم على أساس من الماضي والحاضر، وارتباط القسطنطينية بملك الغساسنة في الشام كان ارتباطا أملته التجارب، وجلاه لهم الزمن ضرورة لسلامة حدودهم، ولأمانهم فيما وراء الشام، بل وفيما هو أبعد من ذلك : لأمان عاصمتهم نفسها. والمرحلة الأخيرة من مراحل وجودهم في المنطقة قد تردد فيها ذكر التقدم العربي، وإيغاله في الأناضول، وتهديده القسطنطينية : يأتيهم تارة من قبل المناذرة وهم يعينون الفرس، وتارة من قبل عرب داخل الجزيرة. فلا غرابة في ثقل نفس هرقل أو غيره من قياصرتهم بما كان يقع داخل الجزيرة العربية.

وعلاقة رومة بما كان يجري في اليمن، وتأييدها الغزو الحبشي لليمن، وحشد كنيستها ومبشريها في جنوب الجزيرة، على مدد من الزمان وتطاول، كل هذه تضعنا

بإزاء الأهمية التي كانت للجزيرة العربية عندهم قبل الإسلام، وهي لذلك أجدر بها عندهم بعد الإسلام : سواء أكان ذلك في القسطنطينية القريبة أو رومة البعيدة.

إن شعورا بشيء من الغرابة قد يستيقظ بنفوس بعض مؤرخينا اليوم حين يأتون إلى قراءة ما كتبه المؤرخون السابقون من المسلمين مصورا وباسطا لحالة العلاقة بين العرب والروم في الجاهلية أو في صدر الإسلام، وهذا الشعور إنما ينبني على تصورهم خطأ هذه العلاقة على ضوء ما أوقعه المؤرخون الأوروبيون المتأخرون في نفوسهم من أن الروم كانوا هم الأعلون أبدا، كما أنهم كذلك اليوم، وهو زعم باطل يلح الأوروبيون في محاولة تقريره وتأكيده، طموحا منهم إلى بناء قاعدة خيالية يستقر عليها استمرار حاضرهم، ولا أمانة فيه للتاريخ، ولا وفاء له. الأوروبيون لا يلقون إلى التاريخ بالا، ولا يقيمون له وزنا، وإنما يعتبرونه أداة من أدوات الصراع بين الأجناس، وهم من أجل ذلك يكيفونه لمصلحتهم.

وقد ترك لنا المؤرخون المسلمون وصفا لرد فعل قيام الإسلام في القسطنطينية، وتركوا معه وصفا لرد فعله في (المدائن) عاصمة فارس إذا ذاك، فكان ردين متناقضين ولو أن الحافز في تصويرهما كان الاستنجاد بموقف «هرقل» لتأييد الإسلام، لكان هذا الحافز نفسه سببا يجعلهم يزيفون به تعاطف كسرى معه لكنهم لم يفعلوا، وإنما قدموا لنا موقف كل من العاصمتين كما عرفوه، لا يقوم وراء التصوير الهوى.

ولقد كانت القسطنطينية خاصة أشد حساسية بما يقع في شمال الجزيرة، كما كانت رومة أشد حساسية بما يقع في جنوبها.

وقد أضيف إلى الموقف في الشمال عنصر آخر : وذلك هو موقف ملك غسان الشمالي الملاصق للحجاز، والشديد التأثر بما يقع فيه وفي شمال الجزيرة، وهذا الملك يحالف الروم. وكان انبساط الإسلام على شمال الجزيرة فيما يلاصق الحجاز امتدادا في دائرة يعتبرها الغساسنة مجالهم الحيوي، وموطن القبائل التي هي مدد قوتهم ومعدنها عند احتسابهم مرتكزات قوتهم، ومهيئات قيامهم مقام الحليف للروم فهو السد الذي يقيهم تدفق عرب الداخل، وهذا السد قد بدأ ينهار بغزوات النبي، وهذا يجردهم من علة وجودهم كقوة فاعلة.

فكان التمدد الإسلامي نحو الشمال عاملا يهدد الغساسنة والروم جميعا، وقد دخلت هذه الحقيقة بثقلها الكبير في تكييف موقف الروم والغساسنة جميعا وذلك في حياة الرسول، وبعد موته. وأخذ الغساسنة يستعدون لغزو المدينة، ويحشدون جيوشهم في الشام، وكانوا على وشك المسير لولا أن استوقفهم هرقل حتى يستعد بجيشه معهم.

ففي حياة النبي كان حشده في (مؤتة) هجوما قصد به إلى تفتيت جيوش الروم والغساسنة التي كانت قد تجمعت في تخوم (البلقاء) في الأردن على أطراف الشام، استعدادا للنهوض إلى الحجاز. ولم يكن تجمع هذه القوة ومقصدها خافيا على القيادة الإسلامية. فيقول عمر رضي الله عنه :

«... وكان لي صديق من الأنصار، إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن حينئذ نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا فقد امتلأت صدورنا منه. (وهذه رواية مسلم للحديث. أما الترمذي فيزيد على ذلك قوله :) «فكنا نحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا» قال مسلم : «فأتى صاحبي الأنصاري يدق الباب، وقال : افتح افتح. فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : أشد من ذلك، اعتزل النبي ﷺ أزواجه». (من مسلم : حديث الطلاق، ومن الترمذي : تفسير سورة التحريم).

فلم يكن إخراج النبي ﷺ جيشه عملا مرتجلا أو غير محسوب، إنما كان عملا دقيقا، محسوبا، له أسبابه ونتائجه، وخطره، وأثره.

أبو عمر ابن عبد البر الناقد من خلال كتابه



للأستاذ سعيد أعراب

ربما كانت المئة الخامسة للهجرة أخصب فترة في تاريخ الغرب الإسلامي - بالعلماء والمفكرين، ورجال التخصص في شتى العلوم والفنون؛ فمن المتخصصين في علوم القرآن : أبو عمرو الداني، وأبو محمد مكي بن أبي طالب، وأبو العباس أحمد بن عمار المهدوي.

وفي الفقه وعلوم الحديث : أبو الوليد الباجي، وأبو محمد ابن حزم.

وفي اللغة وعلوم العربية : ابن سيده، وابن معمر، وتمام بن غالب.

وفي التاريخ والسير : ابن حيان وأبو حامد الغرناطي.

وفي الترسل والنقد : ابن شهيد، وابن برد، والفتح بن خاقان.

وفي الأدب والشعر : ابن دراج، وابن زيدون، وابن خفاجة، وسواهم كثير.

ولعل القمة الشامخة التي تنتظم هذه الفنون جميعها، هي شخصية أبي عمر ابن عبد البر، العالم الموسوعي، حافظ المغرب، وإمام المحدثين؛[1] وقد خلف ثورة ضخمة في فقه السنة وعلوم الإسناد، وله آراء جريئة في نقد الرجال وتوثيقهم.[2] والحديث عن ذلك لا يتسع له صدر هذا البحث، فلنقصر القول على ما جاء مبثوثا في كتابه ((التمهيد))، وينبغي أن نشير إلى أن المؤلف صدره بمقدمة بين فيها الخطة التي سار عليها في الكتاب، والمنهج الذي اتبعه في نقد الرجال، فقد تحدث عن :

1 - الأخبار الدالة على البحث عن صحة النقل، وموضع المتصل والمرسل.. وعن أخبار مالك وموضعه من الإمامة في علم الديانة، ومكانته من الانتقاد والتوقي في الرواية.

2 - وأومأ إلى ذكر بعض أحوال الرواة وأنسابهم، وأسنانهم، ومنازلهم، وتاريخ وفياتهم.

3 - وأعطى نبذة عن ألقاب الحديث : المرسل، والمسند، والمنقطع، والمتصل، والموقوف... وأطال في معنى التدليس، ومن يقبل قوله في ذلك، ومن لا يقبل.

---

1) انظر في ترجمته : الحميدي - جذوة المقتبس : 344 - 346، والضبي : بغية الملتمس : 474، وابن بشكوال : الصلة : 6/6، وابن سعيد : المغرب في حلي المغرب 64/2 - 69، والذهبي : العبر : 255/3، والتذكرة 306/3 - 309، وابن كثير : البداية والنهاية 104/12، وابن الأثير : اللباب 253/2، وابن فرحون : الديباج : 357، وابن العماد : شذرات الذهب 314/3 - 316، وسركيس : معجم المطبوعات : 199، والزركلي : الإعلام 316/9، وكحالة معجم المؤلفين : 315/3 - 316.

2) وقد أورد طائفة منها الحافظ ابن حجر في كتابيه «تهذيب التهذيب» ولسان الميزان».

4 - وخلص إلى القول في الوضع، والكذب على رسول الله - ﷺ - وما احتاط به علماء المسلمين في هذا الباب، فشرطوا في راوي الحديث شروطا، ووضعوا لذلك قيودا قلما توفرت إلا في الصفوة المختارة التي لا يرقى إليها أي شك أو ارتياب : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين». قيل لابن المبارك : أما تخشى على هذا الحديث أن تفسده المبتدعة ؟ قال : كلا، فأين جهابذته ؟!

5 - ومن هنا يرى ابن عبد البر أن لهذا العلم أهله وقادته، ولا مكان فيه للطفيليين : «فعلم الحديث له طرق يصعب سلوكها على من لم يصل بعنايته إليها، ويقطع كثيرا من أيامه فيها، ومن اقتصر على حديث مالك (وأضرابه)، فقد كفي تعب التفتيش والبحث، ووضع يده في ذلك على عروة وثقى لاتنفصم».[3]

6 - ويتركز نقد ابن عبد البر على أساسين اثنين، هما :

أ - متن الحديث.

ب - إسناده (رواته).

وسأقتصر في هذه العجالة على جانب نقد الرجال وتوثيقهم، وأرجئ الحديث عن نقد المتن إلى فرصة أخرى - بحول الله.

وقد جردت كل أجزاء التمهيد - سواء منها المطبوع أو المخطوط، وأثرت في الهامش إلى الجزء والصفحة أو اللوحة - بالنسبة للمخطوط، وربما أحلت القارئ على المصادر التي اعتمدها ابن عبد البر، أو التي تتصل بالموضوع بشكل أو بآخر - والله الموفق.

1 - **بقية بن الوليد :**[4] روى حديث «هلاك أمتي في القدرية والعصبية والرواية عن غير ثبت» - وقد انفرد به عن أبي العلاء، وهو إسناد فيه ضعف لا تقوم به حجة؛ قال ابن عبد البر : وإنما ذكرته ليعرف، والحديث الضعيف لا يرفع - وإن لم يحتج به، ورب حديث ضعيف الإسناد، صحيح المعنى.[5]

2 - **عبد الكريم بن أبي المخارق :**[6] مجتمع على ضعفه وتركه، وإنما روى عنه مالك، لأنه لم يعرفه، إذ لم يكن من بلده، وهو حسن السمت والصلاة، فغره ذلك منه، ولم يدخل في كتابه حكما انفرد به.[7]

3 - **كريب بن أبي مسلم :** مولى ابن عباس، ثقة حجة فيما نقل من أثر في الدين.[9]

4 - **إبراهيم بن عباد**[10] أثبت.[11]

5 - **إبراهيم بن أبي بعلة :**[12] معدود في التابعين، سكن الشام وعمر طويلا، كان ثقة فاضلا، له أدب ومعرفة.[13]

3) انظر التمهيد ج 60/1.

4) هو أبو يحمد - بضم الياء وسكون الحاء المهملة وكسر الميم - الكلاعي الحمصي، ثقة - إن حدث عن ثقة، وضعيف - إن حدث عن ضعيف، قال فيه أبو حاتم الرازي - عن أبي مسهر - بقية أحاديثه ليست نقية، فكن منها على تقية. (ت 197 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 1 ق 434/1 - 435، والتاريخ الكبير للبخاري ج 1 / ق 2 ص 150 وتذكرة الحفاظ 289/1 - 290، والتقريب 165/1، وتهذيب التهذيب 473/1.

5) التمهيد ج 58/1، وج 274/2.

6) أبو أمية البصري المعلم، قال فيه أبو حاتم عن أيوب : يرحمه الله كان غير ثقة، وعن أحمد بن حنبل أن ابن عيينة كان يستضعفه، قلت له : هو ضعيف ؟ قال : نعم، وقال النسائي والدارقطني : متروك، وعن أبي داود والخليلي : ما روى مالك عن أضعف منه (ت 127 هـ).
انظر الجرح والتعديل م أ ج 59/3، والتاريخ الكبير م أ ج 3 ق 89/2، والتقريب 516/1، وتهذيب التهذيب 376/6 - 378.

7) التمهيد ج 60/1، وص 161 من نفس الجزء.

8) أبو رشيدين الهاشمي مولاهم، أجمعوا على أنه ثقة (ت 98 هـ).
انظر طبقات ابن سعد 293/5، والجرح والتعديل م 7 ج 3 - ق 1998/2، والتاريخ الكبير م 7 - ج 231/4، والتقريب 134/2، وتهذيب التهذيب 433/8.

9) التمهيد 94/1.

10) هو إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عباد بن هانئ الشجري، ضعفه ابن أبي حاتم وزكاه غيره، الجرح والتعديل ج 1 - ق 192/2، والتاريخ الكبير ج 1 - ق 336/1، والميزان 74/1، والتقريب 75/1، وتهذيب التهذيب 176/1.

11) التمهيد 102/1.

12) أبو إسماعيل شمر بن يقظان بن المرتحل العقيلي المقدسي أو الرملي.
انظر الجرح والتعديل م 2 / ج 1 - ق 105/1، والتاريخ الكبير ج 1/ ق 310/1 - 311 وتهذيب التهذيب 142/1.

13) التمهيد 114/1 - 115.

6 ـ **طلحة بن عبيد الله بن كريز :**[14] خزاعي تابعي مدني ثقة.[15]

7 ـ **أبـو عبـــد الغني الحسن بن علي :**[16] حديثه (في فضل عرفة) غريب من حديث مـالـك، وليس محفوظا عنه إلا من هذا الوجه،[17] قال ابن عبد البر : وأبو عبد الغني لا أعرفه،[18] وأهل العلم ما زالوا يسـامحون أنفسهم في رواية الرغائب والفضائل عن كل أحد،[19] وإنما كانوا يتشددون في أحاديث الأحكام.[20]

8 ـ **إسماعيـل بن محمـد بن سعـد بن أبي وقاص :**[21] أحد الجلة الأشراف، قرشي زهري، ثقة حجة فيما نقل.[22]

9 ـ **إسماعيل بن أبي حكيم :**[23] كان فـاضلا ثقة، سكن المدينة وبها توفي،[24] وهو حجة فيما روى عنه جماعة أهل العلم.[25]

10 ـ **عبيـدة بن سفيـان الحضرمي :**[26] من تابعي أهل المدينة، ثقة حجة فيما نقل.[27]

11 ـ **عطاء بن يسـار :**[28] من الفضلاء العبـاد العلماء، كـان صـاحب قصص، ذكر علي بن المـديني عن يحيى بن سعيد القطان، أن هشام بن عروة قال فيه : مـا رأيت قاصا أفضل من عطاء بن يسار.[29]

12 ـ **إسحاق بن عبيدة الله[30] بن أبي طلحة الأنصاري أبو نجيح :**[31] من تـابعي أهل المدينة من صغارهم، وهو حجة ثقة فيما نقل، له إخوة جماعة كلهم قد روى عنهم العلم، وإسحـاق هـذا أرفعهم وأعلمهم، وأثبتهم رواية، وكان مالك لا يقدم عليه أحدا.[32]

13 ـ **ابن عون :**[33] ثقة، وفيه قال الشاعر :

خـذوا عن مـالـك وعن ابن عـون
ولا ترووا أحـاديث ابن دأب[34]

---

14) كريز كله بضم الكاف، إلا هذا فإنه بالفتح، ذكره ابن حبـان في الثقات وقال فيه أحمد والنسائي : ثقة، له في الصحيح حديث واحد في الدعاء لأخيه بظهر الغيب.
انظر الجرح والتعديل م 4 ـ ج 2 ـ ق 474/1، والتاريخ الكبير م 4 ـ ج 2 ق 347/2، والتقريب 379/1، وتهذيب التهذيب 22/5.

15) التمهيد 114/1 ـ 115.

16) ترجمه الذهبي في الميزان، وقال فيه : الأزدي المعاني، روى عن مالك وعبد الرزاق، قال فيه ابن حبان : يضع على الثقات لا تحل الرواية عنه بحال، وعن ابن عدي أن له أحاديث لا يتابع عليها في فضل علي، وأورد حديثه هذا في فضل عرفة.
ـ انظر ج 505/1.

17) قال ابن حجر في اللسان : إن حديثه هذا أخرجه الدارقطني في الغرائب من طريقه، وقال فيه : إنه باطل وضعه عبد الغني على عبد الرزاق.
ـ انظر ج 226/2 ـ 227.

18) وقول ابن عبد البر : لا أعرفه، معناه : أنه مجهول لا تصح الرواية عنه، ومر بنا ـ آنفا ـ عن ابن حبان وابن عدي أنه معروف بوضعه على الثقات.

19) مذهب ابن عبد البر أنه يعمل بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال، ويتساهل في روايتها عن كل أحد، وقد تردد قوله هذا في مواضع من كتابه التمهيد، ومن المتشددين في هذا الباب القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي كما نجد ذلك جليا في كتابه «الإلماع».

20) التمهيد 127/1.

21) أبو محمد الزهري المدني، وثقه الجماعة، انظر الجرح والتعديل م 2 ـ ج 1 ـ ق 194/1، والتاريخ الكبير ج 1/ ـ ق 371/1، والتقريب 73/1، وتهذيب التهذيب 329/1 ـ 330.

22) التمهيد 129/1.

23) القرشي مولاهم المدني، وثقه غير واحد، انظر الجرح والتعديل م 2 ـ ج 1 ـ ق 164/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 330/1، وتهذيب التهذيب 289/1.

24) سنة (130 هـ).

25) انظر التمهيد ج 139/1.

26) ذكره ابن حبان في الثقات، انظر الجرح والتعديل م 6 ج 91/3، والتاريخ الكبير م 6 ـ ج 3 ـ ق 82/2، والتقريب 547/1، وتهذيب التهذيب 83/7.

27) التمهيد 139/1.

28) أبو محمد مولى ميمونة ـ زوج النبي ـ ص ـ انظر الجرح والتعديل م 6 ج 338/3، والتاريخ الكبير م 6 ـ ج 3 ـ ق 461/2، وتهذيب التهذيب 217/7 ـ 218.

29) التمهيد 173/1 ـ 174.

30) في الأصل (عبيد بن أبي طلحة) ـ بإسقاط اسم الجلالة، والصواب ما أثبتناه.

31) المدني النجاري، أجمعوا على توثيقه، قال فيه ابن معين : ثقة حجة، (ت 132 هـ).
انظر الجرح والتعديل م 2 ج 1 ـ ق 226/1، وتهذيب التهذيب 239/1 ـ 240.

32) انظر التمهيد ج 197/1 ـ 198.

33) هو أبو عون عبد الله بن عون بن أرطبان المزني مولاهم البصري، وثقه غير واحد، وقال فيه ابن المبارك : ما رأيت أفضل منه : (ت 151 هـ) انظر الجرح والتعديل م 2 ـ ق 131/2، والتاريخ الكبير ج 3 ـ ق 163/1 وتهذيب التهذيب 346/5 ـ 349.

34) التمهيد 214/1 ـ 215 ـ وانظر في ترجمة ابن دأب : تهذيب التهذيب 153/9، والخلاصة : 335.

14 ـ إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي :[35] وضع حديث (المرأة وحدها صف)، وهو لا يعرف إلا به.[36]

15 ـ زفر بن صعصعة :[37] قال ابن عبد البر : لا نعلم لزفر بن صعصعة ولا لأبيه غير هذا الحديث : (كان ـ ﷺ ـ إذا انصرف من صلاة الغداة، قال : هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا ؟) قال : وهما مدنيان.[38]

16 ـ أيوب السختياني :[39] أحد أئمة الجماعة في الحديث والإمامة والاستقامة، وكان من عباد العلماء وحفاظهم وخيارهم، وعن هشام بن عروة : ما قدم علينا أحد من أهل العراق أفضل من أيوب السختياني، وعن الحسن : أيوب سيد شباب أهل البصرة، وكان ابن سيرين إذا حدث عن أيوب بالحديث، قال حدثني الصدوق؛ وعن مالك وشعبة : أنهما قالا : ما حدثناكم عن أحد ـ إلا وأيوب أفضل منه.[40]

17 ـ أيوب بن حبيب :[41] من ثقات أهل المدينة، قال البخاري : روى عنه مالك، وفليح، وعباد بن إسحاق.[42]

18 ـ ثور بن زيد الديلي :[43] من أهل المدينة، صدوق، لم يتهمه أحد بالكذب، وكان ينسب إلى رأي الخوارج والقول بالقدر، ولم يكن يدعو إلى شيء من ذلك: قال فيه أحمد بن حنبل : صالح الحديث ـ وقد روى عنه مالك ـ وكان ابن حنبل يقول : حسبك برواية مالك عنه !

وعن علي بن المديني : أن يحيى بن سعيد كان يأبى إلا أن يوثق ثور بن زيد، وقال : إنما كان رأيه، وأما الحديث، فإنه ثقة.[44]

19 ـ حبيب (بن إبراهيم بن زريق)[45] روى حديث (كان ـ ﷺ ـ يقبل الهدية ويثيب عليها)، قال ابن عبد البر : استناده غير صحيح، لتفرد حبيب به عن مالك.[46]

20 ـ عكرمة مولى ابن عباس،[47]، من جلة العلماء، لا يقدح فيه كلام من تكلم، فيه، لأنه لا حجة مع من تكلم فيه، أما قول سعيد بن المسيب فيه، فقد ذكر العلة الموجبة للعداوة بينهما ـ أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي في كتاب الانتفاع بجلود الميتة، وتكلم فيه ابن سيرين، قال ابن عبد البر : ولا خلاف أعلمه بين نقاد أهل العلم ـ أنه أعلم بكتاب الله من ابن سيرين، وقد يظن الإنسان ظنا يغضب له، ولا يملك نفسه، وكان سفيان الثوري يقول : خذوا تفسير القرآن عن أربعة : عن عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك ـ فبدأ بعكرمة.

---

35) أبو يحيى، انظر ترجمته في الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 203/1، والميزان للذهبي 253/1، واللسان لابن حجر 441/1 ـ 442.

36) التمهيد 268/1.

37) هو زفر بن صعصعة بن مالك، قال فيه النسائي : ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 608/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 430/1، وتهذيب التهذيب 327/3.

38) انظر التمهيد 313/1.

39) أبو بكر أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، ولقه غير واحد. (ت 131 هـ) انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 255/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 1 ص 409، وتهذيب التهذيب 397/1 ـ 398.

40) التمهيد 339/1 ـ 341.

41) الزهري المدني، قال فيه النسائي : ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات (ت 131 هـ)، انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 244/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 411/1.

42) ذكره في التاريخ الكبير، وانظر التمهيد لابن عبد البر 390/1 ـ 391.

43) مولاهم المدني (ت 135 هـ). انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 468/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 181/2، والميزان 373/1، وتهذيب التهذيب 31/2 ـ 32.

44) انظر التمهيد 1/2 ـ 2.

45) أبو محمد حبيب بن أبي حبيب : مرزوق أو زريق الحنيفي المصري، كاتب مالك، قال فيه أحمد : ليس بثقة، وقال عنه أبو داود : كان من أكذب الناس، وقال أبو حاتم متروك الحديث. (ت 218 هـ).
انظر الميزان 452/1 ـ 453، وتهذيب التهذيب 181/2 ـ 182.

46) انظر التمهيد 6/2.

47) أبو عبد الله عكرمة البربري المدني مولي ابن عباس، وثقه غير واحد، واعتمده البخاري، وقال فيه شهر بن حوشب : عكرمة حبر هذه الأمة، وهو أحد أوعية العلم، قال الذهبي : تكلم فيه لرأيه، لا لحفظه. (ت 105 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 3 ـ ق 7/2 ـ 9، والتاريخ الكبير ج 49/4، والميزان 93/3، وتهذيب التهذيب 263/7 ـ 273.

وعن عمرو بن دينار قال : دفع إلي جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة، قال فجعل جابر يقول : هذا عكرمة، هذا مولى ابن عباس، هذا البحر، فاسألوه؛ وفي رواية : قال : هذا أعلم الناس !

وقيل لسعيد بن جبير : تعلم أحدا أعلم منك ؟ قال : نعم عكرمة، ولو كف عنهم عكرمة من حديثه، لشدت إليه المطايا؛ وعن أيوب قال : قال عكرمة : أرأيت هؤلاء الذين يكذبونني من خلفي ؟ أفلا يكذبونني في وجهي ؟ قال عثمان بن حكيم : جاء عكرمة إلى أبي أمامة بن سهل - وأنا جالس - فقال : أسمعت ابن عباس يقول : ما حدثكم به عكرمة فصدقوه، فإنه لم يكذب علي ؟ قال نعم، فقد روي أن عبد الله بن عباس قال له : اخرج يا عكرمة فأفت الناس، ومن سألك عما لايعنيه، فلا تفته، فإنك تطرح عن نفسك ثلثي مئونة الناس؛ قيل ليحيى بن معين : عكرمة أحب اليك ؟ أو سعيد بن جبير ؟ فقال : ثقة وثقة؛ قيل : فعكرمة، أو عبيد الله بن عبد الله ؟ قال : كلاهما - ولم يخير.

وقال أحمد بن عبد الله صالح الكوفي : عكرمة مولى ابن عباس ثقة، وهو بريء مما رماه الناس به من الحرورية (نسبة إلى حاروراء : مكان نزل به الخوارج).

قال أبو عبد الله المروزي : قد أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا... ولقد سألت إسحاق بن راهويه عن الاحتجاج بحديثه، فقال لي : عكرمة قد ثبتت عدالته بصحبة ابن عباس وملازمته إياه، وبأن غير واحد من أهل العلم رووا عنه وعدلوه، وما زال أهل العلم بعدهم يروون عنه.

وينتهي ابن عبد البر في حديثه عن عكرمة - إلى القول بأن جماعة الفقهاء وأئمة الحديث الذين لهم بصر بالفقه والنظر : هذا قولهم : انه لا يقبل من ابن معين ولا من غيره - فيمن اشتهر بالعلم وعرف به، وصحت عدالته وفهمه؛ إلا أن يتبين الوجه الذي يجرحه به - على حسب ما يجوز من تجريح العدل المبرز العدالة في الشهادات، وهذا الذي لا يصح أن يعتقد، ولا يحل أن يلتفت إلى ما خالفه.[48]

21 - **جعفر بن محمد بن علي :** بن حسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بالصادق؛[49] كان ثقة مأمونا عاقلا حكيما، ورعا فاضلا؛ وإليه تنسب الجعفرية، وتدعيه من الشيعة الإمامية، وتكذب عليه الشيعة كثيرا، ولم يكن هناك في الحفظ.

وذكر عن مالك أنه قال : اختلفت إلى جعفر بن محمد زمانا - وما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصل، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن؛ وما رأيته يحدث عن رسول الله - ﷺ - إلا على طهارة، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله ![50]

22 - **أبو علي الحنفي :**[51] ثقة.[52]

23 - **سيف بن سليمان :**[53]، وقال يحيى القطان : ما رأيت أحفظ منه ![54]

24 - **قيس بن سعد الحبشي :**[55] ثقة[56].

---

48) التمهيد 26/2 ـ 35.

49) الهاشمي العلوي أبو عبد الله المدني، وثقه غير واحد، (ت 148 هـ)
انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 487/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 1998/2، وتهذيب التهذيب 103/2.

50) التمهيد 66/2 ـ 67.

51) هو عبيد الله بن عبد المجيد البصري، وثقه العجلي والدارقطني، وابن قانع، وذكره ابن حبان في الثقات. (ت 209 هـ).
انظر التاريخ الكبير ج 3 ـ ق 390/1، والميزان 13/3، وتهذيب التهذيب 34/7.

52) التمهيد 138/2 ـ 140.

53) أبو سليمان المخزومي مولاهم المكي، قال الساجي : أجمعوا على أنه صدوق ثقة، غير أنه اتهم بالقدر. (ت 156 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 2 ـ ق 274/1، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 171/2، وتهذيب التهذيب 294/4 ـ 295.

54) التمهيد 138/2 ـ 140.

55) أبو عبد الملك قيس بن سعد المكي الحبشي ـ وتصحف في التمهيد ج 139/2 ـ رقم (1048) ـ «بالحنفي»، وثقه غير واحد. (ت 119 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 3 ـ ق 99/2، والتاريخ الكبير ج 154/4، وتهذيب التهذيب 397/8.

56) التمهيد 138/2 ـ 140.

25 ـ أبو عبيدة حميد الطويل البصري : مولى طلحة الطلحات،[57] ثقة، روى عنه جماعة من الأئمة، تناول رجل حميدا عند يونس بن عبيد، فقال : أكثر الله فينا أمثاله ![58]

26 ـ أبو بكر عبد الله بن حكيم الداهري :[59]، مدني مجتمع على ضعفه[60].

27 ـ حبيب بن عبد الرحمان الأنصاري :[61]، مدني ثقة[62].

28 ـ عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم : بن عمر بن الخطاب[63]، أحد أئمة الحديث الاثبات في الحفظ والنقل[64].

29 ـ ربيعة بن أبي عبد الرحمان المدني :[65]، صاحب الرأي، تابعي، كان أحد الفقهاء الثقات الذين عليهم مدار الفتوى، يذكر مع جلة التابعين في الفتوى بالمدينة، وكان مالك يفضله ويرفع به، ويثني عليه في الفقه والفضل ـ على أنه ممن اعتزل حلقته، لإغراقه في الرأي[66].

30 ـ الزبير بن عدي[67]، ثقة[68].

31 ـ أبو أسامة زيد بن أسلم[69]، أحد ثقات أهل المدينة، وكان من العلماء العباد الفضلاء، وزعموا أنه كان أعلم أهل المدينة بتأويل القرآن ـ بعد محمد بن كعب القرظي، وكان يشاور في زمن القاسم، وسالم، وقال مالك : كان زيد بن أسلم من العلماء الذين يخشون الله، قال : وكان ينبسط إلي، وكان يقول : ابن آدم، اتق الله يحبك الناس ـ وإن كرهوا[70].

32 ـ والده أسلم أبو خالد[71] مولى عمر بن الخطاب، من جلة الموالي ـ علما ودينا وثقة[72].

33 ـ بسر بن سعيد[73]، كان مولى لحضرموت، من أهل المدينة، وكان ثقة فاضلا حسنا، وكان مالك يثني على بسر بن سعيد ويفضله ويرفع به في ورعه وفضله[74].

34 ـ أبو داود عبد الحرمان بن هرمز المعروف بالاعرج[75]، كان صاحب قرآن وحديث، وكان ثقة مأمونا[76].

---

57) هو حميد بن أبي حميد الخزاعي مولاهم، ثقة جليل (ت 143 هـ).
انظر الجرح والتعديل «ج 1 ـ ق 221/2، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 348/2، والميزان 610/1، وتهذيب التهذيب 38/3.

58) التمهيد 167/2 ـ 168.

59) ترجمه ابن حجر في اللسان، وقال فيه عن البيهقي : ضعيف، وقال أحمد بن حنبل وابن المديني : ليس بشيء، وقال الجوجزاني : كذاب.
وقال فيه ابن معين : ليس بثقة، وكذلك قال النسائي.
انظر ج 277/3 ـ 278.

60) التمهيد ج 184/2.

61) أبو الحارث المديني الخزرجي، وثقه غير واحد. (ت 132 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 387/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 209/1، وتهذيب التهذيب 281/2.

62) التمهيد 278/2.

63) أبو عثمان العدوي العمري المدني، أحد الفقهاء السبعة، ثقة حافظ متفق عليه. (ت 147 هـ).
انظر التاريخ الكبير ج 3 ـ ق 295/1، والتذكرة للذهبي 160/1، والتقريب 537/1، وتهذيب التهذيب 39/7 ـ 40، والخلاصة : 252.

64) التمهيد 281/2.

65) أبو عثمان المدني، المعروف بربيعة الرأي، ثقة كثير الحديث. (ت 136 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 475/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 286/1، والتقريب 247/1، وتهذيب التهذيب 258/3.

66) التمهيد 1/3 ـ 5.

67) أبو عدي الهمداني اليامي الكوفي، تابعي ثقة (ت 131 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 579/2 ـ 580، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 410/1 ـ 411، والتقريب 258/1، وتهذيب 317/3.

68) التمهيد 11/2.

69) المدني الفقيه، وثقه غير واحد، (ت 136 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 555/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 387/1، والتقريب 272/1، وتهذيب التهذيب 395/3 ـ 397.

70) التمهيد 240/3 ـ 241.

71) مدني ثقة، من كبار التابعين، (ت 80 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 304/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 23/2 ـ 24، والتقريب 64/1، وتهذيب 266/1.

72) التمهيد 241/3.

73) المدني العابد، ثقة كثير الحديث، قال أبو حاتم : لا يسأل عن مثله (ت 101 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 423/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 123/2، والتقريب 97/1، وتهذيب التهذيب، 437/1.

74) التمهيد 271/3 ـ 272.

75) المدني، مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، تابعي ثقة، (ت 117 هـ).
انظر الجرح والتعديل ج 2 ـ ق 297/2، والتاريخ الكبير ج 3 ـ ق 361/1، وتذكرة الحفاظ 97/1، وطبقات القراء 381/1، والتقريب 501/1، وتهذيب التهذيب 290/6 ـ 291، والخلاصة : 236.

76) التمهيد 272/3.

35 ـ عبد الرحمان بن عسيلة[77]، تابعي ثقة[78].

36 ـ زهير بن محمد[79]، لا يحتج به[80].

37 ـ ابراهيم بن محمد بن أبي يحيى المدني[81]، متروك الحديث[82].

38 ـ اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة[83]، ضعيف[84].

39 ـ المعتمر بن سليمان[85]، أخطأ في روايته عن خالد الحذاء، وكذلك أخطأ في قوله : إن الآتية بيعت إلى العطاء، وإنما بيعت في أعطيات الناس لا إلى العطاء[86].

40 ـ عمارة بن غزية[87] ـ وهو لا بأس به، وقد احتج به أحمد بن حنبل[88].

41 ـ حكيم بن جبير[89]، متروك الحديث[90].

42 ـ أبو هبيرة يحيى بن عباد[91]، ثقة[92].

43 ـ أبو عمر بن محمد بن حريث[93] مجهول[94].

44 ـ وجده : حريث[95] مجهول كذلك، ليس له ذكر في

---

77) عسيلة ـ مصغرا ـ المرادي، أبو عبد الله الصنابحي، سماه مالك في الموطأ ـ خطأ ـ عبد الله، قلب كنيته فجعلها اسمه، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال فيه العجلي : شامي تابعي ثقة، توفي ما بين السبعين إلى الثمانين.
أنظر الجرح والتعديل ج 2 ـ ق 262/2، والتاريخ الكبير ج 3 ـ ق 321/1، والتقريب 391/1، وتهذيب التهذيب 229/6 ـ 230.

78) التمهيد ج 4,3/4، 31.

79) أبو المنذر التميمي الخراساني المروزي الخرقي، قدم الشام وسكن الحجاز، اختلفوا فيه : وثقه جماعة، وضعفه آخرون، قال البخاري : ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير، وما روى عنه أهل البصرة فهو صحيح؛ وعن ابن معين أنه ضعيف، وقال مرة ليس بالقوي، (ت 162 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 589/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 417/1، والميزان 84/2، والتقريب 265/1، وتهذيب التهذيب 348/3 ـ 350.

80) التمهيد 3/4.

81) أبو اسحاق، سئل مالك عنه : أكان ثقة ؟ قال : لا ـ ولا ثقة في دينه؛ وعن أحمد بن حنبل : أنه لا يكتب حديثه، ترك الناس حديثه، قال : كان يروي أحاديث منكرة لا أصل لها، وكان يأخذ بعضها في كتبه، وقال يحيى بن سعيد : كذاب. (ت 184 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 125/1 ـ 126، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 323/1 ـ 324، والميزان 57/1 ـ 61، والتقريب 42/1، وتهذيب التهذيب 158/1.

82) التمهيد 20/4.

83) أبو سليمان إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة الأسود الأموي، مولى آل عثمان بن عفان المدني، قال البخاري : تركوه، وقال أحمد : لا تحل ـ عندي ـ الرواية عنه، وقال ابن عمار : ضعيف ذاهب، ومثله للبزار والساجي. (ت 136 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 227/1 ـ 228، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 396/1، والميزان 193/1، والتقريب 59/1، وتهذيب التهذيب 240/1 ـ 242.

84) التمهيد 20/4.

85) أبو محمد التيمي البصري، وثقه غير واحد، وقال فيه ابن خراش : صدوق يخطىء في حفظه (ت 187 هـ) ـ وهو الذي اعتمده ابن عبد البر.
أنظر الجرح والتعديل ج 4 ـ ق 402/1 ـ 403، والتاريخ الكبير ج 4 ـ ق 49/2، والميزان 142/4، والتقريب 263/2، وتهذيب التهذيب 227/10 ـ 228.

86) التمهيد 77/4 ـ 78.

87) الأنصاري المازني المدني، قال فيه ابن معين : صدوق صالح، وقال النسائي : لا بأس به، وضعفه ابن حزم وجماعة من المتأخرين. (ت 140 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 3 ـ ق 368/2، والتاريخ الكبير ج 3 ـ ق 503/2 ـ 504، والميزان 178/3، والتقريب 50/2، وتهذيب التهذيب 422/7.

88) التمهيد 95/4.

89) الأسدي الكوفي، قال فيه ابن معين : ليس بشيء، وقال أبو يعقوب ابن أبي شيبة : ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم : منكر الحديث، له رأي غير محمود، وعن الدارقطني أنه متروك الحديث.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 201/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 16/1، والميزان 583/1، والتقريب 193/1، وتهذيب التهذيب 445/2 ـ 446.

90) التمهيد 102/4.

91) الأنصاري السلمي الكوفي، وثقه غير واحد.
أنظر الجرح والتعديل ج 4 ـ ق 172/2، والتاريخ الكبير ج 4 ـ ق 291/2، والميزان 388/4، والتقريب 350/2، وتهذيب التهذيب 234/11.

92) التمهيد 148/4.

93) العذري، قال فيه أبو جعفر الطحاوي : مجهول، ولعله هو الذي اعتمده ابن عبد البر، قال ابن حجر : وذكره ابن حبان في الثقات.
أنظر تهذيب التهذيب 180/12 ـ 181.

94) التمهيد 201/3.

95) حريث بن سليم، وقيل ابن سليمان، ويقال ابن عمار، روى عن أبي هريرة حديث (الخط أمام المصلي) ـ وهو حديث تفرد به اسماعيل ابن أمية، وقد اختلف عليه.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 262/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 71/1، وتهذيب التهذيب 235/2 ـ 236.

غير هذا الحديث، ولا يحتج بمثل هذا من الحديث[96].

45 - أبو صالح ذكوان السمان[97]، مدني نزيل الكوفة، ثقة مامون على ما روى وحمل من أثر في الدين[98].

46 - جويرية[99]، ثقة تفرد بخبر : ان عمر أخذ الصدقة من الخيل[100].

47 - يحيى بن يحيى الليثي[101] راوي الموطا، أخطأ في ذكر نافع بين زيد بن أسلم وابراهيم بن عبد الله بن حنين، قال ابن عبد البر : وهو خطأ - عندي - لا شك فيه، فلذلك لم أر لذلك هذا الاسناد وجها، وهو الصواب - إن شاء الله، وهو مما يحفظ من خطأ يحيى في الموطأ وغلطه؛ ومثل هذا من غلطه الواضح أيضا - روايته في كتاب الحج عن مالك، عن نافع، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن رسول الله ﷺ - أهدي جملا كان لأبي جهل بن هشام، وهذا غلط غير مشكل، وليس لذكر نافع في هذا الاسناد وجه، وإنما رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر، لا عن نافع[102].

48 - إبراهيم بن عبد الله بن حنين[103]، لم يكن بالحافظ[104].

ويشير ابن عبد البر هنا - إلى أن الصحابة جميعهم ثقات عدول مأمونون... فواجب قبول ما نقل كل واحد منهم وشهد به على نبيه / ﷺ، لا في اجتهاداتهم وآرائهم، ولا فيما اختلفوا فيه بينهم[105]،

49 - حسين بن عبد الله بن ضميرة[106]، متروك الحديث، مدني، ولا يصح حديثه : (الصلاة الوسطى صلاة الصبح) - بهذا الاسناد[107].

50 - سفيان بن عيينة[108]، روى حديث العقيقة عن عبيد بن الزبير، وأبيه... قال أبو داود : وهم ابن عيينة فيه، وقال ابن عبد البر : لا أدري من أين قال هذا أبو داود - وابن عيينة حافظ ؟ - يعنى وزيادة الحافظ مقبولة[109]. ويأتي لابن عبد البر - بعد هذا : (وبلغني ان سفيان بن عيينة حدث بهذا الحديث (ما بين هذين وقت) - عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أنس بن مالك عن النبي - ﷺ

---

96) التمهيد 200/4.

97) الزيات المدني، أجمعوا على توثيقه (ت 101 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج - ق 450/2، والتاريخ الكبير ج 2 ق 260/1، والتذكرة 89/1، وتهذيب التهذيب 219/3 - 222.

98) التمهيد 202/4.

99) هو جويرية بن قدامة التيمي، ذكره ابن حبان في الثقات.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 - ق 530/1 - 531، والتاريخ الكبير ج 1 - ق 241/2، وتهذيب التهذيب 125/2 - 126.

100) التمهيد ج 218/4.

101) أبو محمد يحيى بن يحيى الليثى المغربي الأندلسي، أصله من مصمودة طنجة، قال فيه ابن عبد البر : كان إمام أهل بلده المقتدى به، وكان ثقة عاقلا، حسن الهدي والسمت، ولم يكن له بصر بالحديث. (ت 234 هـ).
أنظر تاريخ علماء الأندلس 197/2، والانتقاء : 58، والجذوة : 359، وترتيب المدارك 379/3، والديباج 352/2.

102) التمهيد 261/4.

103) الهاشمي مولاهم المدني أبو إسحاق، قال فيه النسائي : ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، ولم نقف على من لمزه في حفظه، ولعل ابن عبد البر أخذ ذلك من قول البخاري في حديث ابن حنين عن علي (نهى رسول الله ﷺ عن القراءة في الركوع) قال : ولم يصح فيه عن ابن عباس، وما روى مالك عن نافع أصح.
أنظر التاريخ الكبير 1 - ق 299/1 - 300، وتهذيب التهذيب 133/1 - 134.

104) التمهيد 262/4.

105) التمهيد 267/4.

106) الحميري المدني، قال فيه أبو حاتم : متروك الحديث كذاب، وقال ابن معين : ليس بثقة ولا مأمون، وقال البخاري : منكر الحديث ضعيف.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 - ق 57/2 - 58، والتاريخ الكبير ج 1 - ق 388/2 - 389، والميزان 538/1 - 539.

107) التمهيد 287/4.

108) الهلالي أبو محمد الكوفي، أجمعوا على حفظه وتوثيقه. (ت 198 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 2 - ق 225/1 - 227، والتاريخ الكبير ج 2 - ق 95/2، والتذكرة 162/1، وتهذيب التهذيب 117/4.

109) التمهيد 315/4 - 317.

قـــال : ومـــا أدري كيف صحـــة هـــذا عن سفيان[110] ؟.

51 ـ همـام (بن يحيى)[111]، روى عن قتـادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ـ ﷺ ـ : (كـل غـلام رهين، تذبح عنه يوم السابع، ويحلق رأسه ويدمى) مكـان ويسمى ـ إلا همـامـا، قـال أبو داود : (ويـدمى) وهم من همام[112].

52 ـ عاصم بن عمر بن قتادة[113]، ليس بالقوي[114].

53 ـ عبد العزيز بن محمد بن عبيد الله الـدراوردي[115]، صدوق ولكن حفظه ليس بالجيد[116].

54 ـ عبـد اللـه بن جعفر بن نجيح[117] ـ والـد علي بن المديني، وقد اجتمع على ضعفه[118].

55 ـ اسماعيل بن أبي أويس[119].

56 ـ أخوه عبد الحميد[120].

57 ـ أبـوه أبـو أويس[121] ـ ثـلاثتهم ضعـاف لا يحتـج بهم[122].

58 ـ عمر بن كثير الثقفي[123]ثقة،وهو من أشرف ثقـات أهل المدينة[124].

59 ـ عباد بن كثير الثقفي[125]، كان رجلا فـاضلا عـابدا، ليس بـالقـوى، كـان ابن عيينـــة يمتع من ذكره إلا بخير، وقـال ابن معين : ضعيف الحـديث، وقـــال

---

110) التمهيد 333/4.

111) العوذي البصري، أحد علماء البصرة، قال فيه أبو حاتم : ثقة، وكان يحيى القطان لا يرضى حفظه (ت 164 هـ)، وهو الذي يراه ابن عبد البر.
أنظر الجرح والتعديل ج 4 ـ ق 107/2 ـ 109، والتاريخ الكبير ج 4 ـ ق 237/2، والميزان 309/4 ـ 310.

112) التمهيد 320/4.

113) أبو عمرو الأنصاري الظفري المدني، أحد العلماء التابعين، وثقه جماعة، وضعفه آخرون ـ كما عند عبد الحق في الأحكام، وانتقده ابن القطان وقال : إنه ثقة عند جميعهم، لم أعرف أحدا ضعفه، ولا ذكره في الضعفاء (ت 120 هـ).

114) التمهيد 338/4.

115) أبو محمد المدني، وثقه مالك وغيره، وقال فيه أبو زرعة : سيء الحفظ، فربما حدث من حفظه الشيء فيخطيء، وهو الذي اعتمده ابن عبد البر، وقال النسائي : ليس بالقوي (ت 187 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 2 ـ ق 395/2 ـ 396، والتاريخ الكبير ج 3 ـ ق 25/2، والميزان 633/2، واللباب 496/1، وتهذيب التهذيب 353/6 ـ 355.

116) التمهيد ج 24/5.

117) أبو جعفر السعدي، مولاهم المدني، قال فيه ابن معين : ليس بشيء، وقال عمرو بن علي : ضعيف الحديث؛ وعن أبي حاتم أنه منكر الحديث جدا (ت 178 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 2 ـ ق 23/2، والتاريخ الكبير ج 3 ـ ق 62/2، والميزان 401/2، وتهذيب التهذيب 174/5 ـ 176.

118) التمهيد 24/5.

119) أبو عبد الله اسماعيل بن عبد الله بن عبد الله بن أبي أويس بن أخت مالك بن أنس ونسيبه، قال معاوية بن صالح : هو وأبوه ضعيفان، وقيل : لا بأس به، وقال ابن أبي خيثمة عنه : صدوق ضعيف العقل، ليس بذاك، وأثنى عليه ابن معين وأحمد والبخاري، وأجاب ابن حجر عما قيل فيه بأن ذلك كان منه في شبيبته ثم انصلح، وقد أخرج له الشيخان في صحيحيهما، ويظن بهما أنهما ما أخرجا عنه إلا الصحيح من حديثه الذي شارك فيه الثقات.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 170/1، والتاريخ الكبير ج 1 ـ ق 364/1 وتهذيب التهذيب 310/1 ـ 312.

120) أبو بكر المدني الاعشى، قال فيه ابن معين ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال فيه النسائي : ضعيف وهو الذي اعتمده ابن عبد البر (ت 202 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 15/3، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 50/2، وتهذيب التهذيب 118/6، والخلاصة : 223.

121) عبد الله بن عبد الله بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني ـ ابن عم مالك بن أنس وسهره على أخته، وثقه أحمد، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال ابن معين : ليس بالقوى، وقال مرة : أبو أويس وابنه ضعيفان، وقال ابن المديني : كان عند أصحابنا ضعيفا، وقال أبو داود : صالح الحديث (ت 167 هـ).
أنظر الميزان 450/2، وتهذيب التهذيب 280/5، والخلاصة : 203.

122) التمهيد 39/5.

123) يتصل نسبه بعمر بن الخطاب، مدني نزل عسقلان، وثقه غير واحد (ت 150 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 131/3 ـ 132، والميزان 220/3، وتهذيب التهذيب 495/7.

124) التمهيد 41/5 ـ 42.

125) اختلفوا فيه، والأكثر على تضعيفه، ويكفي أنه لما مات بمكة لم يشهد سفيان الثوري جنازته، وكان ابن المبارك يقول : عباد بن كثير احذروا حديثه، توفي سنة بضع وخمسين ومائة.
أنظر الجرح والتعديل ج 74/3 ـ 75، والتاريخ الكبير ج 3 ـ ق 43/2، والميزان 375/2، وتهذيب التهذيب 100/5 ـ 102.

البخاري : فيه نظر، وذكر عبد الرزاق عن أبي مطيع قال : كان عباد بن كثير - عندنا - ثقة[126]، ويأتي لابن عبد البر أنه - عندهم - ضعيف لا يحتج به[127].

60 - حنش بن قيس الرحبي[128]، روى حديث (من جمع بين صلاتين من غير عذر، فقد أتى بابا من أبواب الكبائر) وهو حديث وإن كان إسناده لا يحتج بمثله من أجل حنش فإن معناه صحيح[129].

61 - هشام الدستوائي[130]، أثبت من روى عن يحيى بن أبي كثير[131].

62 - موسى بن علي بن رباح[132]، ليس بالقوي، وما انفرد به فليس بحجة[133].

63 - عمار بن سعد المرادي[134]، مجهول[135].

64 - الحجاج بن شداد[136] - مجهول[137].

65 - يحيى بن أزهر[138]، ضعيف لا يحتج بمثله[139].

66 - ابن لهيعة[140]، ضعيف لا يحتج بمثله[141].

67 - أبو صالح سعيد بن عبد الرحمان الغفاري المصري[142]، ليس بمشهور، ولا يصح له سماع من علي بن أبي طالب[143].

---

126) التمهيد 48/5.

127) التمهيد 429/6.

128) واسمه الحقيقي حسين أبو علي الواسطي، وحنش لقبه، وهو ضعيف متروك الحديث، يحدث بأحاديث بواطيل.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 - ق 63/2 - 64، والتاريخ الكبير ج 1 - ق 392/2، والميزان 546/1، وتهذيب التهذيب 364/2 - 365.

129) التمهيد 77/5.

130) أبو بكر البصري، أمير المومنين في الحديث، وقد أجمعوا على توثيقه (ت 152 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 4 - ق 59/2 - 60، والتاريخ الكبير ج 4 - ق 198/2، والميزان 300/4، وتهذيب التهذيب 43/11 - 45.

131) التمهيد 123/5 - 124.

132) اللخمي أبو عبد الرحمان المصري، وثقه جماعة، وقال ابن معين : ليس بالقوي، ويرى ابن عبد البر أن ما انفرد به لا يعتبر حجة. (ت 163 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 4 - ق 153/1 - 154، والتاريخ الكبير ج 289/4، والميزان 215/4، وتهذيب التهذيب 363/10 - 364.

133) التمهيد 125/5.

134) السلهمي، ويقال التجيبي المصري، وسلهم هو ابن ناجية بن مراد.
روى عنه بكير بن الأشج، وحيوة بن شريح، وعياش بن عباس، وعطاء بن دينار، ويحيى بن أيوب، وابن لهيعة، وآخرون.
ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن يونس : ثقة، توفي سنة (148 هـ) وكان فاضلا؛ بينما جهله ابن عبد البر، ولم يعرفه.
أنظر : الجرح والتعديل ج 390/3، والتقريب 47/2، وتهذيب التهذيب 401/7 - 402، والخلاصة : 279.

135) التمهيد 223/5 - 224.

136) الصنعاني، يعد في المصريين، روى عنه حيوة بن شريح، وابن لهيعة، ويحيى بن أزهر البصريون، روى له أبو داود حديثا واحدا في الصلاة ببابل، وذكره ابن حبان في الثقات.
وذهب ابن عبد البر، وابن القطان إلى أنه مجهول لا يعرف حاله.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 - ق 162/2، والتاريخ الكبير ج 1 - ق 377/2 والتقريب 153/1، وتهذيب التهذيب 202/2.

137) التمهيد 223/5 - 224.

138) المصري مولى قريش، روى عنه ابن وهب، وبكر بن مضر، وادريس بن يحيى الخولاني، وعبد الرحيم بن القاسم، وسعيد بن كثير بن عفير، قال ابن بكير : يحيى بن أزهر من أهل مصر، وأثنى عليه خيرا، وذكره ابن حبان في الثقات، وجهله ابن عبد البر.
أنظر الجرح والتعديل ج 4 - ق 128/2، والتاريخ الكبير ج 4 - ق 260/2، والتقريب 341/2، وتهذيب التهذيب 177/11.

139) التمهيد 123/5 - 124.

140) عبد الله أبو عبد الرحمان المصري، الفقيه القاضي، اختلف في شأنه : ضعفه جماعة، ووثقه آخرون، قال ابن أبي حاتم : سألت أبي وأبا زرعة عن الافريقي وابن لهيعة : أيهما أحب إليك ؟ فقالا جميعا : ضعيفان (ت 174 هـ).
أنظر الجرح والتعديل ج 2 - ق 145/2 - 148، والتاريخ الكبير ج 3 ق 180/2، والتقريب /2 وتهذيب التهذيب 373/5 - 379.

141) التمهيد 223/5 - 224.

142) أبو صالح الغفاري، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال العجلي : مصري تابعي ثقة، وقال ابن يونس : روايته عن علي مرسلة - وما أظنه سمع منه.
وقال ابن عبد البر : ليس بمشهور، ولا يصح له سماع من علي، انظر الجرح والتعديل ج 2 - ق 39/1 - 40، والتاريخ الكبير ج 2 - ق 491/1، وتهذيب التهذيب 58/4.

143) التمهيد 224/5.

68 ـ زيد بن جبيرة[144]، انفرد بحديث (لا يصلى في سبع مواطن..) وانكروه عليه[145].

69 ـ سعيد بن خالد الخزاعي[146]، مدني، ليس به بأس عند بعضهم، وقد ضعفه جماعة، منهم : أبو زرعة، وأبو حاتم، ويعقوب بن أبي شيبة، وجعلوا حديثه هذا (يجزىء من الجماعة إذا مرت أن يسلم أحدهم..) جعلوه منكرا، لأنه انفرد فيه بهذا الإسناد[147].

70 ـ عمر بن راشد[148]، يروى عن مالك بن أنس حديث (دخل رسول الله ﷺ على بلال، فوقف بالباب سائل فرده)، وقال ﷺ : لو صدق السائل ما أفلح من رده. قال ابن عبد البر : وهو حديث منكر لا أصل له من حديث مالك، ولا يصح عنه[149].

71 ـ محمد بن عبد الله[150]، ويقال ابن عبد الرحمان بن جبير[151] بن يسار، وضع على مالك حديث (ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان)[152].

72 ـ موسى بن محمد بن عطاء[153]، متروك، وضع على مالك حديث (هدية الله إلى المومن، السائل على بابه)[154].

73 ـ سعيد بن موسى[155]، متروك الحديث[156].

74 ـ عبسة بن عبد الرحمان[157]، ضعيف لا يحتج بمثله[158].

---

144) اجمعوا على تضعيفه، وقال الساجي : حدث عن داود بن الحصين بحديث منكر جدا ـ يعني حديث النهي عن الصلاة في سبعة مواطن.
أنظر الجرح والتعديل ج 1 ـ ق 559/2، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 390/1، وتهذيب التهذيب 400/3 ـ 401.

145) التمهيد 224/5.

146) سعيد الخزاعي، ذكره البخاري فيمن مات من الخمسين إلى الستين ومائة.
أنظر الجرح والتعديل ج 2 ـ ق 16/1، والتاريخ الكبير ج 2 ـ ق 469/1 وتهذيب التهذيب 21/4 ـ 22.

147) التمهيد 290/5.

148) أبو حفص الجارى ـ نسبة إلى الجار : قرية قرب المدينة المنورة، مولى عبد الرحمان بن أبان بن عثمان، قال أبو حاتم : وجدت حديثه كذبا وزورا. وقال النفيلي : منكر الحديث، وقال الدارقطني كان ضعيفا ولم يكن مرضيا، وكان يهتم بوضع الحديث على الثقات، وقال الحاكم وأبو نعيم : يروى عن مالك أحاديث موضوعة.
أنظر الجرح والتعديل ج 108/3، والميزان 195/3، واللسان : 303/4 ـ 304، وتهذيب التهذيب 436/7 ـ 437.

149) التمهيد 297/5.

150) اقتصر الذهبي على ذكره باسم محمد بن عبد الرحمان بن بحير ابن عبد الرحمان بن معاوية بن بحير بن ريسان ـ عن أبيه، عن مالك، قال : اتهمه ابن عدي، وقال ابن يونس : ليس بثقة، وقال أبو بكر الخطيب : كذاب.
قال ابن حجر : والذي في كتاب ابن يونس أنه متروك الحديث. (ت 292 هـ).
أنظر الميزان 621/3، واللسان 246/5.

151) في الميزان (حبير).

152) التمهيد 297/5 ـ 298.

153) أبو الطاهر الدمياطي البلقاوي المقدسي، كذبه أبو زرعة وأبو حاتم، وقال فيه النسائي : ليس بثقة، وقال الدارقطني وغيره : متروك الحديث، وقال أحمد بن حنبل : لا تحل الرواية عنه، كان يضع الحديث.
أنظر الجرح والتعديل ج 4 ـ ق 161/1، والميزان 219/4، واللسان 127/6 ـ 128.

154) التمهيد 298/5 ـ 299.

155) الأزدي، اتهمه ابن عدي بالوضع، ثم ساق له حديث (هدية الله إلى المومن، السائل).
أنظر الميزان 159/2 ـ 160، واللسان 44/3.

156) التمهيد 229/5.

157) ابن عيينة، وقال بعضهم : ابن عبد الرحمان الأموى، قال ابن معين عنه : لا شيء، وقال أبو زرعة : واهي الحديث، منكر الحديث، وقال أبو حاتم : متروك الحديث، كان يضع الحديث، وقال البخاري تركوه.
أنظر الجرح والتعديل ج 402/3 ـ 403، والتاريخ الكبير : ج 39/4، والميزان 301/3، وتهذيب التهذيب 160/8 ـ 161.

158) التمهيد 300/5.

أقطاب علم التجويد -2-

نابغة تازة : ابن بري

للأستاذ علي بن الشريف العلوي

التجويد من العلوم الهامة التي تفرغ لها الدارسون في المغرب لاعتباره من العلوم الدينية التي جاء الحض على تعلمها واتقانها لما لها من اتصال بالشعائر الدينية، بل وفي أحد أركان الدين الإسلامي الذي هو الصلاة، فالقارئ للقرآن مطلوب بتجويد القراءة سواء خارج الصلاة فاحرى في خلالها لأن ذلك يتعلق بصحة الصلاة، ومرتلاله الترتيل الذي أمر المولى به في قوله تعالى : **﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾** وقوله تعالى : **﴿ورتلناه ترتيلا﴾** وقول الرسول عليه السلام : «لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داوود لما سمع أبا موسى الأشعري يتلو القرآن»، ولذلك قال أبو موسى الأشعري «لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا»، ولقد سئل الإمام على كرم الله وجهه عن قوله تعالى : **﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾** فقال : «الترتيل هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف» - وعن ابن مسعود أنه قال : **﴿لا تنثره نثر الرمل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفول عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحد كم آخر السورة﴾**.

وهناك روايات أخرى في الموضوع، وقد أثبت العلماء في كثير من المواطن أن من لم يجود القرآن آثم، وقد قال صاحب الجزرية :

والأخذ بالتجويد حتم لازم
من لم يجود القرآن آثم
لأنه به الاله أنزلا
وهكذا منه إلينا وصلا

ومثل هذه الآيات والأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة واتفاق العلماء على ذلك جعل مجموعة هامة من العلماء في سائر الأنحاء يهتمون بعلم التجويد، والمغاربة ساهموا بقسط وافر في هذا الميدان، كما ساهموا في دراسة الروايات القرآنية، وخاصة القراآت السبع وحفظها عن ظهر قلب، ومنهم من حفظ القراآت العشر وتجدر الإشارة هنا إلى أننا حضرنا حزب القراآت يوميا بمسجد القرويين حيث هذا الحزب يتلى بعد صلاة العصر عن ظهر قلب من مجموعة من الشيوخ الأجلاء، ومع كامل الأسى، وشديد الأسف فإن هذا الحزب قد انتهى العمل به لقلة الحفاظ وتغيير الزمان، واشتغال الناس باتجاهات أخرى أتت على هذا العمل الجليل والقضاء عليه.

وقد تحدث رجال التجويد عن القراءات وحفظها، وعن علم التجويد واتقانه فقال الأستاذ يالوشه في شرحه على متن الجزرية ما يلي : إن مراعاة قواعد علم التجويد والأخذ به واجب وجوبا عينيا على كل قارئ من قراء القرآن، بل وعلى كل مسلم ولو امرأة، وإن كان المحفوظ سورة واحدة أو آية فقط، وأما بعلم القراآت السبعة والعشرية ففرض كفاية في كل إقليم، إبقاء للتواتر، وكذا حفظ القرآن عدا سورة الفاتحة فإنها فرض عين.

وبهذه المقارنة ندرك أن القراءة بالتجويد شيء لازم ومحتم بخلاف التحصيل على القرآن وحفظه كله برواية واحدة فإنه فرض كفاية فقط.

ومن الفخر بالنسبة لهذه الديار ديار المغرب، أن نبغ فيها أقطاب في هذا الميدان خلدوا أبحاثا قيمة وكتبا نافعة في هذا المجال، نذكر من بينهم الأستاذ علي بن بري صاحب الأرجوزة المسماة بالدرر اللوامع وقد قال في ختامها :

تم كتـــــاب الـــــدرر اللـــــوامـــع

في أصــل مقرإ الإمـــام نـــافـــع

نظمـــــه مبتغيـــــا لـــــلأجر

علي المعروف بـــــــــابن بري

سنـــــة سبـــع بعـــد تسعين مضت

من بعـــد ستمـــائـــة قـــد انقفت

في هذه الأبيات الثلاثة أشار الإمام علي بن بري إلى اسمه وإلى العصر الذي كان يعيش فيه، وهو القرن السابع والثامن الهجري.

وأشار في أبيات أخرى إلى شطر آخر من حياته وذلك عند قوله :

حسبمـــــا قرأت بـــــالجميـــــع

عن ابن حمـــــدون أبي الربيـــــع

المقرئ المحقـــــق الفصيـــــح

ذي السنـــــد المقـــــدم الصحيـــــح

ففي هذين البيتين يبين الطريقة التي أخذ بها القراءة سواء برواية ورش أو رواية قالون عن نافع وذلك عن شيخه أبي الربيع حمدون بن حمدون الشريسي، أحد أقطاب العلم بتازة المتوفى بها في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان عام تسع وسبعمائة وكما جاء في البيتين فإنه أثنى عليه الثناء الجم، ووصفه بالمقرئ المحقق الفصيح، صاحب السند الصحيح الذي لا يتقدم عليه غيره وما ذكره الإمام علي في نظمه لا يفي بإعطاء ترجمة وافية عنه وإن كانت منظومته يستخلص منها الكثير، فإنها ناطقة بعظمة الرجل، وطاقته العلمية الفسيحة، وسعة أفقه في العرفان وروعة أسلوبه في النظم، ومهارته الفنية في سبك تلك الأرجوزة، التي تعتبر في الواقع في بعض مقاطعها شعرا يفيض بالإحساس، كما يبرهن على الكفاءة الخلاقة والمبدعة، تلك الكفاءة التي سجلت ذاتيتها في التاريخ، وفرضت نفسها على العلماء المعترفين بإنجازه الرائع، وإبداعه الموفق، وخدمة المعرفة لجيله وللأجيال المقبلة، ومما يشهد لأعماله الدراسية والتدريسية، وتقدير التلاميذ له، وإعظامهم لعلمه وشخصه، ما يحكي عنه، ان الإمام ابن بري كان من عدوة تازة، مقصودا من طرف أهلها، وخلال ممارسته لهذه المهنة تولى القضاء بها أحد تلامذته، فأصبح التلميذ في موقف حرج من أستاذه الإمام ابن بري، ولم تطاوعه نفسه أن يكون الأستاذ عدلا يأتي لأداء الشهادة أمامه، لأنه شتان بين علم الأستاذ وعلم التلميذ وشتان ما بين سمعة العدل ابن بري لدى المواطنين بالمدينة وما جاورها، وما بين القاضي الذي لا يعتبر شيئا أمام الأستاذ فسعى التلميذ القاضي سعيا حثيثا في رفع مستوى أستاذه من الناحية الوظيفية وبالفعل تمكن من ذلك فارتفعت رتبة الأستاذ إلى كتابة الخلافة، وآنذاك رقى التلميذ بوضعيته القضائية فهذه الحادثة وحدها تدل على المكانة التي كان يتمتع بها لدى جمهرة السكان بصفة عامة، ورجال الحكم بصفة خاصة، أنه كان محبوبا من طرف الجميع.

إن الأستاذ لم يكن مقتصرا في عمله العلمي على هذه الأرجوزة التي سنتعرض لها بالتحليل في حديث مقبل إن شاء الله تعالى ولكن كانت له خدمات هائلة في مجال العلم، وآثار جليلة مما من شأنه أن يبوئه الدرجة الرفيعة بين العلماء المؤلفين في سائر أرجاء المغرب والعالم العربي والإسلامي، ويمتاز بالسبق في فن علم التجويد لأن أمثاله في هذا الميدان يعتبرون من القلائل سيما في مجال النظم لأن أرجوزته التي سماها بالدرر اللوامع تهافت عليها الدارسون، وشرحوها وعلقوا عليها وحفظوها عن ظهر قلب، فكانت لهم غنية عن غيرها، وأغنية يتمتعون بسبكها ورائع أسلوبها، وقيدا للشوارد العلمية الواردة في غضونها وقد توالى عليها العدد الهائل بالشرح لزيادة الفائدة وضرب الأمثلة ومن الشروح المفيدة عليها شرح الفجر الساطع على

النجوم الطوالع لأحد المؤلفين المغاربة، وكذلك النجوم الطوالع لأحد العلماء بتونس وهناك آخرون ممن اهتموا بهذه الأرجوزة الفريدة، وقد قال فيه صاحب النجوم الطوالع الشيخ إبراهيم المرغني ما يلي : كان رحمه الله عالما عاملا فارعا في علوم شتى كالقراآت وتوجيهها والتفسير والحديث والفقه والفرائض واللغة والنحو والعروض ذا نظم عذب وخط حسن قرأ على شيوخ عدة، وقد قدمت منهم أستاذه في القراآت، وله مؤلفات عديدة منها الأرجوزة التي أشرنا إليها والمسماة بالدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع، ومنها تأليف في الوثائق، وشرح على وثائق الغرناطي، وقد ابتدأ في تأليف كتاب على تهذيب البراذعي للمدونة، واختصر شرح الإيضاح لابن أبي الربيع الاشبيلي في النحو وقد أحسن في عمله هذا، وله شرح على عروض ابن السقاط وله غير ذلك من الكتابات المفيدة والتآليف الفائقة، مما يدل دلالة وافية على أن الرجل لم يعش لذاته وخاصة نفسه ولكنه عاش عاملا من أجل المواطنين جميعا، مضحيا في سبيلهم لحصول الفائدة العلمية، والارتقاء بهم إلى أرقى الدرجات،ولم يعش خاملا قابعا على نفسه بل انطلق إلى التدريس وخدمة الطلبة في أرضه والوافدين عليه من كل جهة من جهات المغرب ولم يعش مدخرا للعلم في مدده والبخل به على من قرب أو بعد عنه بل دونه في القرطاس، ونشره بين الناس، للفائدة والمتعة والاستيناس، بل تجاوز ذلك إلى درجة الإيمان بأن ما وهبه الله من علم ومعرفة، ما هو الاوديعة في صدره يجب أن يتركها أمانة خالدة في التاريخ لمن يأتي من الأجيال اللاحقة من بعده فدونها ورتبها، وأحسن تدوينها وترتيبها، وخلفها من بعده دررا لامعة، تنظم عقودا زاهية في كل جيل من الأجيال اللاحقة من بعده إلى يومنا هذا منذ أن أدركته الوفاة : ما بعد الثلاثين من القرن الثامن الهجري، وقبره ضريح معروف حيث وقع الاهتمام به أخيرا وأعطى له بعض ما يستحقه من العناية الواجبة على الأجيال المغربية بصفة عامة، وعلى الأجيال التازية بصفة خاصة، وحبذا لو وقع إحياء ذكرى هذا الرجل العلم الفذ، لتقديمه لجيلنا الحاضر بالصورة العلمية الحقة التي عاشها، والجهاد المتواصل الذي خاضه في سبيل نشر المعرفة، وأنه لمن الحق الواضح أن مدينة تازة إذا حق لها أن تفتخر بأمجادها وهي عديدة، فإن في مقدمة هذه الأمجاد الإمام علي ابن بري، وقد سميت إحدى الثانويات باسمه اعترافا بما قدمه من خدمات في مجال العلم وليس تخليدا لاسمه لأن اسمه خالد في الكتب المتعددة ولست مبالغا إذا قلت إن رفع اسمه على عدة معالم محترمة في تازة يعتبر تشريفا لهذه المدينة وزهوا بما صنعه أبناؤها، ودراسة كتبه ونشر علمه بين أرجاء هذه المدينة وفي سائر أنحاء المغرب يعتبر اعترافا وتقديرا لهذه الشخصية المغربية المثالية سيما إذا علمنا أن أرجوزته يدوي صداها بين أرجاء جامع الزيتون لدى علمائها وطلابها ـ فعلم الإمام ابن بري لم يقتصر على المغرب بل حمل الرسائل لأرجاء من العالم العربي والإسلامي.



النبأ العظيم..!

للشاعر الأستاذ علي الصقلي

أثخنت في قلب الدجى بتارا
تَجْتَثُّ شأفته، وتمحو العارا

وإلى سبيل الله، وهي محجة
بيضاء، تدعو الفاجر الكفارا

في بردك النبوي خير معلم
ساس العقول، وهذب الأفكارا

وبنى على هذي العقيدة أنفسا
وأقام دونَ حصونها أسوارا

ما بال هذا الكون أظلم أفقه ؟
فليُشرقِ التوحيد فيه منارا

وليوف طه بالأمانة، فالسما
ترعى خطاه يمنة ويسارا

☆ ☆ ☆

يا من كشفت عن القلوب غشاوة
وأحلت ليل التائهين نهارا

للّه أفئدة ألنت، ولم تكن
إلاكَلات ونحوه أحجاراً !

أوتيت من سر النبيئين الألى
أنت الموسط عقدهم، أسرارا

وبُعثت للمستضعفين، وكم همو
رحمى، وللمستعسرين يسارا

كم عاثر ـ ما لم تكن عثراته
في الله ـ كنت له تُقيل عِثارا

كم حائر مارمتَ تُلبسه الهدى
حللا، فعاد كأنه ما حارا

ولكم كُنود مُذ رآك، طحابه
للحق شوق كاللهيب مُثارا

☆ ☆ ☆

قل للألى فتنوا «بهيجل» وحزبه   و «بلنكولن» محررا مغوارا

من علم الإنسان مثل محمد   إن سيم يوما ذلة وصغارا

ألا ينام على أذاه، تأبيا   للظلم، فيه يرخص الأعمارا ؟

من حرّر العُبدان قبلَ محمد !   سلهم أكانوا قبله أحرارا !

من شرع الشورى، وشاد عمادها،   كمحمد، وأقرّها إقرارا !

من ذا الذي، من قبل، أشرك عانيا   في مال كافٍ ما علا مقدارا !

آخى إخاء العدل بينهما، فلا   إفراط من أحَدٍ، ولا إقتارا

وكذاك بَشرتِ الورى بحقوقهم   أمُّ القرى، لم تستشر ثوارا

من قبل «باريس» التي راحت بها   تشدو، ويشدو «سينها» هدارا

مِنن السماء على يديك إلى الورى   قد أسديت لو فتّحوا الأبصارا

جبريل أوحاها، تبارك وحيه   مسترحما، يجلو بها الأخطارا

أفلا يرى الإنسان كيف سمت به   لتُحله أعلى المشارف دارا

☆ ☆ ☆

إيه قريش، عَميتِ عن سنن الهدى   وأشحت وجهك دونه استكبارا

وجهلت قدر محمد، والكون، لو   تدرين، أجمع دونه أقدارا

لما دعا لِلّه، قلت : مسفه   أحلامنا، لم يالها إنكارا

هو شاعر، بل ساحر، لا ! بل به   مس غدا مستوجبا عقارا

لكن، وقد لاح اليقين محصحصا،   وليتِ، دون دعائه، الأدبارا

جرعتِه بِيد الجلامد أكبدا   كاساً دِهاقاً ملئت أضرارا

وأذقته طعم الهوان فلم يزد   رغم الأذى إلا لك استغفارا

صبر به اعتصم الكريم سماحة   أو مثل طه لايرى صبارا ؟!

حتى تاذنت السماء ليهجرن   باسم السماء أهيله والدارا

جبريل وابن أبي قحافة حوله   في موكب جم المهابة سارا

وسنى النبوة كالصباح يشي به   أيان أنجد ركبُه أو غارا

وصحت على النبإ العظيم معطرا   أم القرى يسري بها تيارا

نبأ كوشوشة العنادل بكرة   هزت له أعطافها استبشارا

هذي «ثنيات الوداع» تفجرت   نورا، يفيض على الورى أنهارا

طلعت بــه كــالشمس من خلف الربى ... من بعــد ليـل تــائــه إسفــارا
بشرى بهــا نــاغى الصبيــةَ تِربُهــا ... والجـــار راح بهـــا يهـزُّ الجــارا
في كـل صــدر فرحــة جيــاشــة ... أضحتْ منــورةً بــــه أغــوَارا
لكــأنني برحـــاب مكـــة بعـــده ... قـــد أقفرت ملتـــاعـــة اقفـــارا
وكـــأنمـــا البيت الحرام هنـــا، على ... شـــوق، ليثربَ لا يَلـــــذ قرارا

☆ ☆ ☆

يـــا يثرب الفيحـــاء، يـــا أم القرى ... طيبي حمىً لمحمـــــد، وجـــوارا
وتيمَّني بركـــــابـــــه، وتهللـي ... لبـــزوغـــــه، واستنطقي الأوتــــارا
وتضَمَّحــي بعبيــره، واستروحــي ... في ردنــــه فــلا زكـــا وعرارا
ودعي رمــالــك من أطــايب ريحــه ... تنــدى، فيُفعم عطرهـــا الأمصـــارا
هــذا الــذي وافــاك فــاكتحلت بــه ... عينــــــاك أنقى العــــــالمين إزارا
وأعـــزهم بيتـــا، وأكرمهم يـــدا، ... وأجلهم، عبرَ الـــزمـــــان، شعـــارا
وأرقهم طبعـــــا، وأرقـــــاهم ذُرىً ... وأشـــــدهم للمستغيث نفـــــارا
يــا أخت مكـــة، إن مكــة نـورهــا ... من نــورك الــزاهي المشعشــع غــارا !
حــاشــا مقــامــا في ذراهــا لم تـزل ... أنـــــــواره تستظلم الأنــــــوارا

☆ ☆ ☆

يـــا خير من لثم الثرى نعليــه، مـــذ ... كـــان الثرى، فــزَهــا بــذاك فخـــارا
حسبي انـوِّرُ بــاسمــك الغــالي فمي ... حسبي أقـــول : محمـــــد، إكبـــارا
كـــالمــزن فضــلاً، والربيــع نضـــارة ... والنجم فكرا، والجبـــــال وقـــــارا
كـــالــزهر خلقـــا، والفرات سجيـــة ... والنـــور طهرا، والخـــزام نجـــارا
كــالظـل في لفـح الهجيرة، كــالشـذا ... بين النســائم ذاكيـــا معطـــارا

☆ ☆ ☆

يـــا من بـــه كنـــا، ونبقى أمـــة ... وسطـــا، تخلـــد في العلي آثـــارا
هــا نحن بــاسمـك واسم دينـك لم نـزل ... نُبلي صِغـــــاراً للعلى وكبـــارا
فــاســأل بحـق من اجتبــاك مبلغــا ... للعـــائـــذين بحضنـــك استظهـــارا
للســـائلين بـــك الشفـــاعـــة منـــة ... ومن استطـــاب ببـــابـــك استقرارا

عيدُ المِنَن

للشاعر الأستاذ محمد عبد الرحمن الدرجاوي

يا مرحبا بك من عيد بك المنن ... عمت، وطاب بك الأوطان والزمن

أشرقت بالنور والعرفان تسعدنا ... وكان ضايقنا من قبلك المحن

نور أراد به المولى هدايتنا ... وليس في هديه أجر ولا ثمن

أهلاً في ليلة الاثنين ترسله ... أم القرى لجميع الناس يحتضن

خصت به من نساء الأرض آمنة ... وخص بين رجال الأرض مؤتمَن

عبد الإله الذبيح المرتضى خلقا ... والمصطفى حسبا في قومه الحسن

فأنجلا بشرا ما أنجلا ملكا ... لكنه بشر بالله متزن

بالله مرتفع لله متضع ... لله مبتضع في الله يمتحن

لم يبق من صنم يُطرى بمبعثه ... كلاً وما بقيت نار ولا وثن

قاد الجميع إلى المعبود يرشدهم ... فانقاد قوم وقوم دونه حرنوا

وحرم الشرك والإضرار في قرن ... والشرك بالله بالإضرار مقترن

ما حُرم السوء إلا من نتائجه ... ومن نتائجه الأحقاد والإحن

أتى بدين قويم طاهر حسن ... لا يهتدي بسواه الفاهم الفطن

إنا لنحتاج توحيد الصفوف به ... فوحدة دونه في عقدها وهن

وكل قومية من دونه زبد ... وما لرائدها نهج ولا سَنن

الفجر السّاطع على الصّحيح الجامع

للدكتور يوسف الكتاني

قدمت في البحث السابق بهذه المجلة العتيدة تعريفا مركزا لأول شروح صحيح البخاري على الاطلاق وهو كتاب «إعلام السنن» للخطابي وها أنا أتابع أبحاثي بتقديم تعريف عن ذخيرة أخرى من ذخائر المخطوطات بالخزائن المغربية وهو كتاب «الفجر الساطع على صحيح الجامع» في شرح البخاري للشيخ المحدث المفتي خطيب الحرم الإدريسي بزرهون أبي عبد الله محمد الفضيل بن الفاطمي الإدريسي الشبيهي الزرهوني المتوفى سنة 1318.هـ صاحب شرح البخاري الشهير الذي تحدث عنه صاحب «فهرس الفهارس» بقوله : «أنفس وأعلى ما كتبه المتأخرون من المالكية على الصحيح مطلقا وهو في أربع مجلدات، أنا متفرد الآن في الدنيا بروايته عن مؤلفه وقد استدرك في شرحه المذكور على الصحيح، وانتقد أمورا على الحافظ ابن حجر، وفق لها وغفل من قبله من الحافظ، مما يعلم منه أن الفتح بيد الله، وبالجملة فالرجل من مفاخر المتأخرين وممن يبتهج به صف شيوخنا رحمهم الله» (1).

ونسخته الأصلية موجودة في الخزانة الملكية في مجموعة الخزانة الزيدانية في ست مجلدات وهي التي اعتمدتها في التعريف بالشرح (2).

افتتح شرحه بمقدمتين :

الأولى : في آداب قراءة الحديث الشريف وما يطلب من قارئه ومستمعه وحاضر مجلسه من التعظيم له والتشريف، حيث روى أحاديث في الموضوع عن عياض في المدارك ملفتا النظر إلى أن الأولى لقارئ الحديث، أن يصلح النية وأن يكون على وضوء لأن قراءته على غير وضوء تكون مكروهة، وأنه يكره لقارئ الحديث أن يقوم لأحد لأنه قلة أدب وقلة احترام مع النبي ﷺ.

ولا ينبغي للقارئ أيضا إذا مر بذكر الله عز وجل أو رسوله أو الصحابة أن يقول قال الرسول .

وأنه ينبغي له بأن يعرف النحو واللغة وأسماء الرجال.

ثم تكلم عن نقل الحديث بالمعنى وما يطلب من سامع الحديث أن لا يرفع الصوت على حديث النبي ﷺ الخ...

1) فهرس الفهارس : 286/2 و287 عبد الحي الكتاني.

2) موجودة بالخزانة الملكية تحت عدد 773.

أما المقدمة الثانية فخصصها للتعريف بمؤلف الصحيح وبيان موضوعه وصنيعه فيه وعدد ما اشتمل عليه من الأحاديث والكتب والأبواب، وفي ذلك يقول : وأما صنيعه في جمع الأحاديث وتفريقها في الأبواب فإنه كما أخذ بالاستقراء يعمد إلى الحديث الواحد ويستنبط منه ما قدر عليه من الأحكام ويجعل لكل حكم ترجمة يضعها في المحل المناسب لها من الكتاب، ثم ينظر فيما اجتمع عنده من طرق ذلك الحديث، فإن ساوت الطرق الأحكام أثبت الحديث في كل ترجمة بطريقة من تلك الطرق، وربما تممه فيها كلها وربما اختصر في بعضها لمعنى يظهر له، وإن كانت الطرق أكثر ذكر الحديث في بعض تلك التراجم بطريقتين أو أكثر، حتى يأتي على آخرها، وإن كانت الأحكام أكثر، ذكر الحديث في بعض التراجم تاما وفي بعضها مختصرا أو معلقا، أو قال فيه حديث كذا حتى لا يبقى عليه من الأحكام شيء ولا من الطرق التي عنده، قال الحافظ ابن حجر : فعلم أنه لا يكرر إلا لفائدة، وفي التحقيق لا تكرار فيه ولم أره، ألف هذا يعني يذكر الحديث بمتنه وإسناده في محلين إلا في مواضع نادرة» إلى أن يقول : عدد أحاديثه الثلاثيات ثلاثة وعشرون، وهي أقصر أحاديثه إسنادا، وأطول سند فيه سند اسماعيل بن إدريس المذكور في باب ياجوج وماجوج فإنه تساعى، وأكثر سند ذكرا للصحابة سند أبي سليمان في باب رزق الحكام من كتاب الأحكام فإن فيه أربعة من الصحابة السائب ومن ذكر بعده.

وأطول حديث فيه حديث عمرة الحديبية المذكورة في كتاب الصلح، وأكثر أبوابه أحاديث باب ذكر الملائكة.

وأكثر من روى عنه من الصحابة أبو هريرة رضي الله عنه.

وأكثر أحاديثه تكرارا حديث بريرة فإنه كرره أكثر من عشرين مرة. ثم ذكر بعد المقدمتين سنده إلى الإمام البخاري عن شيوخه الثلاثة : أبي العباس أحمد بن محمد المرنيسي، وأبي عبد الله محمد بن حمدون بن الحاج السلمي، وأبي العباس أحمد بن محمد بناني... الخ (3).

ثم ذكر إجازة الشيخ أبي الحسن علي بن طاهر الوتري الحسيني المدني له،وهو أعلى سند يوجد في الدنيا (4)، عن شيخه عبد الغني العمري المدني، عن محمد بن يوسف الفربري، بسماعه من مؤلفه صاحب الصحيح، وأنه أخذ هذا السند عن شيخه المذكور بضريح قطب الاقطاب ونور الأنوار مولانا ادريس عام 1297 هجرية (5).

وبعد ذكر إجازته وسنده إلى البخاري، بدأ في الشرح من أول الصحيح بالكلام عن البسملة دون الصلاة لأنها غير ثابتة في أصله.

ثم تكلم عن الوحي لغة وشرعا، وتعريف النبي والرسول، ذاكرا سبب البدء بالآية إنا أوحينا إليك... لأن البخاري يستكمل بالترجمة بما وقع له من قرآن وسنة سنده وغيرها، مشيرا إلى الكلام الموجود على نسخة الصدفي والذي هو من زيادة أبي عمران ابن سعادة ذاكرا أن الأولى كان حقه أن يكتب في الطرة.

ثم عرف بأبي علي الصدفي والباجي وأبي در السرخسي والمستملي والكشميهني والفربري الرواة الأولين للصحيح.

ثم أخذ في إعراب حدثنا فلان وسمعت فلانا يقول :

وبدأ يشرح الحديث الأول إنما الأعمال بالنيات، متكلما عن موضع هذا الحديث وكثرة فوائده وصحته، شارحا ألفاظه وعباراته ومفرداته، مبينا معناه ذاكرا أقوال الشراح فيه.

هذا نموذج باختصار لطريقة شرحه للأحاديث والأبواب.

أما أسلوبه العام في شرحه وطريقته الخاصة فيه، فقد اعتمد فيه على بيان معنى الحديث وغامضه ومشكله وحل ألفاظه وإعرابه واعتماد الأقوال والتوجيهات التي يراها في

3) انظر هذا السند كاملا في المجلد الأول من الشرح المذكور. ص 13 و14.

4) الفجر الساطع ج 1 ص 14.

5) المرجع السابق ص 15.

شرحه وبيان مقصود الترجمة وشاهدها على ما ترجح عنده، مبينا الأحكام الشرعية مما وافق مذهب الإمام مالك، غير متعرض لأحوال الأسانيد وأسماء الرجال ووصل التعاليق، تجنبا للتكرار ولما سبق إليه في الشروح السابقة التي استمد من أغلبها، مستشهدا للمعنى الذي يختاره بالحديث كثيرا بالآية أحيانا (6).

وأحيانا ينقل القول منسوبا إلى صاحبه دون ذكر الكتاب المنقول عنه مثلا، قاله : العلامة ابن زكري، أو لابن الوقت كما جاء في شرحه لأول حديث، أو مثل قاله الدماميني.

ومن خصائصه أنه يهتم بإعراب الكلمات عند كل شرح ليصل إلى المعنى المقصود، وقد وفق فيه إلى نكت غريبة، وتنقيحات عجيبة، وتوشيحات مصيبة، وفوائد وغرر فريدة، وما أحسن ما قاله المؤلف عن شرحه في أول مقدمته ننقله تتميما للفائدة.

«وبعد، فهذا تقييد على الجامع الصحيح الحائز قصب السبق في ميدان التقديم والتفضيل والترجيح، تصنيف أمير المؤمنين في الحديث وقدوة الحفاظ والنقاد في القديم والحديث، المشرق فضله على هذه الأمة إشراق الكواكب الدراري، أبي عبد الله سيدي محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم البخاري، قصدت به التعلق بأذيال من تعلق الأولون والآخرون بأذياله، والانخراط في سلك من تصدى لبيان أحوال مولانا رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله، والتطفل على علماء أمته كي أدخل زمرتهم وأحتمى بحماهم عند شدائد الموقف وأهواله، وأسكن معهم حظيرة القدس في جوار عروس المملكة ﷺ وعلى آله. سلكت فيه في بيان معنى الحديث وغامضه ومشكله وحل ألفاظه وإعرابه أحسن المسالك، واقتصرت فيه من الأقوال والتوجيهات والتوفيقات والأجوبة وبيان مقصود الترجمة وشاهدها على ما ترجح عندي في ذلك، وآثرت فيه عن بيان الأحكام الشرعية ما وافق مذهب إمام الأئمة وإمامنا مالك، ولم أتعرض لأحوال الأسانيد وأسامي الرجال ووصل التعاليق والمتابعات لتكفيل فتح الباري بجميع ما هناك، ثم أنني وإن كنت مستمدا من تآليف من تكلم قبلي على هذا الكتاب : المشارق والنكت والكواكب والبهجة والفصيح والتنقيح والفتح والعمدة والمصابيح والتوضيح والتحفة والارشادين والمعونة والتشنيف والتوشيح وغير ذلك من التآليف الموضوعة عليه وعلى غيره، المرجوع إليها عند الترجيح والتصحيح، فقد فتح الله علي فيه بنكت غريبة، وأتحفني سبحانه بتنقيحات عجيبة وتوشيحات مصيبة وأرشدني وله الحمد والمنة لعيون فوائده وغرر زوائده، تقف دونها الأفكار وتبذل في تحصيلها نفائس الأعمار، فجاء بحمد الله على صغر حجمه ولطافة جرمه مشتملا على علم غزير وتدقيق وتحرير، يسر الناظر ويريح الخاطر، ويغني في بابه عن مطولاته الدفاتر، وسميته «الفجر الساطع على الصحيح الجامع»، والله سبحانه أسأل أن يسلك بمن فيه صوب الصواب وأن يجري على قلمي فيه إظهار الحق وفصل الخطاب، وإن يديم به النفع العام للخاص والعام، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يتقبله مني بجاه مولانا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وهكذا أتم الشيخ الفضيلي الشبيهي شرحه العظيم للبخاري فبيضه سنة 1313 وأخرجه سنة 1316 وراجعه وصححه سنة 1317 في ستة أجزاء كما يلي :

الأول : من كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ إلى باب استئذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد.

الثاني : من كتاب الجمعة باب فرض الجمعة إلى باب المعتكف يدخل رأسه البيت للغسل.

الثالث : من كتاب البيوع.

باب ما جاء في قول الله عز وجل : ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾ إلى القسامة في الجاهلية.

الرابع : باب مبعث النبي ﷺ إلى باب إذا أصاب القوم غنيمة فذبح بعضهم غنما أو ابلا بغير أمر أصحابهم لم يوكل.

الخامس : من كتاب الأضاحي باب سنة الأضحية

6) انظر ذلك مفصلا في مدرسة الإمام البخاري في المغرب 540/2 وما بعدها.

إلى باب الموعظة ساعة بعد ساعة.

السادس : من كتاب الرقاق.

إلى باب قول الله ونضع الموازين (7).

هذا وقد كنت وجهت إلى السيد مدير الديوان الملكي إثر إطلاعي ودراستي لهذا الشرح النفيس رسالة مرفوعة إلى جلالة الملك تتضمن رغبتي في إصدار أمره بطبع ونشر هذا التراث العظيم مع استعدادي لتحقيقه منفردا أو مع غيري من العلماء المتخصصين وذلك بالمطبعة الملكية أو ضمن مطبوعات لجنة التراث المشتركة، فهذا الشرح العظيم أحق بالعناية والتقديم من غيره وأني أؤكد رغبتي راجيا أن يحققها الله قريبا.

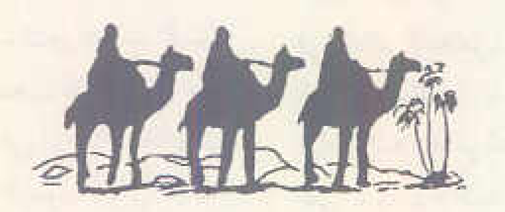
وتمتاز النسخة الزيدانية من هذا الشرح بإجازة فريدة نادرة مكتوبة على الصفحة الأولى من السدس الأول بخط المجيز الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الذي انفرد في الدنيا بروايته عن صاحبه اثر إتمامه وقبل وفاته بقليل، وقد أجاز للنقيب الشريف مولاي عبد الرحمان بن زيدان بالشرح المذكور وبكل ما أجاز المؤلف المجيز، وكانت هذه الإجازة الفريدة بتاريخ 1342 ونصها، كما هو منقول من الجزء المذكور بالحرف (8).

الحمد لله وكفى : وسلام على عباده الذين اصطفى **أما بعد، فقد من الله علي بسماعي لمواضع من هذا الشرح** المعجب، الآتي في باب التحرير والتحصيل بما يطرب، ومناولتي بجميعه من يد مؤلفه شيخنا ومفيدنا العلامة الفقيه المحدث الأصولي الخطيب المفتي المدرس شامة زرهون أبي عبد الله محمد الفضيل ابن الفاطمي الحسني الشبيهي الإدريسي الزرهوني وذلك يوم الاثنين، 6 جمادى الثانية سنة 1318 بداره بزرهون، وأجازني به وبكل ماله من مروي وتقييد وتأليف، إجازة عامة مطلقة، وأملى متفردا الآن في الدنيا برواية هذا الشرح عنه لا أعلم من استجازه فيه ولا بقي من يرويه عنه، إذ مات رحمه الله بعد ذلك بنحو الشهرين أي في شعبان 1318 بزرهون، وقد شاركته رحمه الله مع كبر سنه وقدم روايته، في شيخه المشرقي الذي روى عنه الصحيح داخله، وهو المحدث المسند الرحال أبو الخير علي بن طاهر الوتري المدني الحنفي فإنه أجازني عامة مروياته مكاتبة من المدينة المنورة عام 1320 هـ ومات سنة 1322 هـ في المدينة، فعاش بعد ذلك المؤلف تلميذه نحو خمس سنوات.

وقد أجزت به وبما أجازني به مؤلفه وغيره، حبنا وصفينا بهجة مكناسة الزيتون وزينتها، عالمها وأديبها وكريمها، العلامة التحرير الدراكة الأديب البارع الماجد الشهير، النقيب مولاي عبد الرحمان بن زيدان العلوي الإسماعيلي، نفع الله به العباد والبلاد، وأدام فضله شرقا إلى يوم التناد، قاله وكتبه خادم الحديث وأهله محمد عبد الحي بن الكبير بن محمد الكتاني الحسني الإدريسي بفاس، لطف الله به وبالمسلمين آمين، وذلك في يوم الثلاثاء 27 قعدة عام 1342 هـ بفاس وقد كانت صدرت مني إجازة عامة لمؤلفه قديما سنة 1324 والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.

7) مدرسة الإمام البخاري في المغرب 546/2.

8) المرجع السابق 547/2.



إسهامات علماء شبه القارة الهندية في
إثراء الفكر الإسلامي
وعنايتهم بعلوم الحديث الشريف والسيرة النبوية

للأستاذ محمد بنعبد الله

نص المحاضرة التي أسهم بها الأستاذ محمد بنعبد الله وقدمها إلى المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية الذي انعقد بإسلام آباد - باكستان، أيام 13/12، ربيع الأول عام 1406، 1985/11/26، وقد أدرجت ضمن البحوث المقدمة إلى المؤتمر لتترجم إلى اللغة الأردية...

ولا دنيا لمن لم يحي دينا...

أحي دولة الباكستان المؤمنة المجاهدة، العظيمة الراقية وهي تحتفل بمولد الرسول عليه السلام، بأبيات رائعة السمو والمعنى، زاخرة بحرارة الإيمان، وطمأنينة النفس، وبرد اليقين، لشاعر الشرق الحكيم الدكتور محمد إقبال الذي انبثق روحه من ضياء مكة، وتفتحت أشواقه من عبير المدينة، ففهم الإسلام على حقيقته التي أنزلها الله، وعلى رسالته التي بلغها خاتم الأنبياء محمد الرسول، وعلى سياسته التي نفذها الصحْبُ الكرام، ودعا إلى حضارة شرقية رائدة قوامها الله والروح، ونفر من حضارة غربية جافة عمادها الإنسان والمادة، وأشاد بما في الإسلام الذي حرر القلوب من إسارها، وطهر النفوس من أدناسها، وأصلح الأرض من أرجاسها فسخر أدبه ومواهبه لمحاربة الجاهلية، ومقاومة الثورة على الرسالات السماوية، والقيم الخلقية التي انتشرت في العالم الإسلامي، وصدّ تيار الردة الفكرية التي اكتسحت الطبقة المثقفة... يقول شاعركم الفذ وهو يصور في مناجاة صادقة إسلامية موحّدة مؤلفة سمحة، مشاعر بلاده المسلمة التي لبت نداء السماء، واستجابت لدعوة محمد خاتم الرسل والأنبياء :

من قـــــام يهتف بـــــاسم ذاتــــك قبلنـــــا ؟
من كـــــان يـــدعـــو الــــواحـــد القهــــارا ؟
عبــــدوا الكـــواكب والنجــــومَ جهـــالــــــةً
لم يبلغـــوا من هــــديهــــا أنــــوارا
هـــل أعلن التــــوحيـــــدَ داع قبلنــــا
وهــــدى القلـــوب إليــــك والأنظــــارا ؟
نـــدعـــو جهـــارا، لا إله ســـوى الـــذي
صنــــع الــــوجــــودَ وقـــدر الأقـــدارا

☆ ☆ ☆

إذا الإيمــــان ضـــاع، فـــلا أمــــان
ولا دنيـــــــا لمن لم يحي دينـــــــــا
ومن رضي الحيــــــــاة بغير دين
فقـــــد جعـــل الفنــــاء لهــــا قرينـــا
وفي التـــــوحيـــــد للهمم اتحـــــاد
ولن تبنـــــوا العـــــلا متفرقينـــــا

☆ ☆ ☆

ألـــم يبعـــث لأمتكـــم نبـي
يـــوحــدكم على نهـــج الـــوئـــام
ومصحفكم، وقبلتكم جميعــــــــــا
منـــــار لـــلأخـــوة والســـلام
وفـــوق الكـــلِّ رحمـــان رحيم،
إلاه واحــــــد رب الأنـــــام (1)

لقد كان الشاعر العظيم شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال بحق وحقيق، وبهذه التسبيحات والترتيلات وبشعره المقتبس من معدن الخلود، شاعر الرسالة، كما كان حسان بن ثابت شاعر الرسول، وكان أيضا، قد حاز شرف الدفاع عن المحمدية، كما كان حسان (2) شاعر الرسول قد حاز شرف الدفاع عن محمد، وما كان هذا الشاعر المؤمن الملهم الحكيم الدكتور محمد إقبال، إلا بضعة من طبيعة الهند المسلمة المؤمنة، نفخ فيها الإسلام من روحه، فخلصت خلوص الحق، وسطعت سطوع الهدى، وصفت صفاء الفطرة...

قياما أسعده اليوم في الملأ الأعلى، وحظيرة القدس، وهو ينظر من علياء خلوده إلى هذا المهرجان بعين الرضا والارتياح... ويا ما أطيب روحه الطاهر، وأمته الكريمة المؤمنة المرابطة، تحتفل، كما أراد شاعرها الحكيم، بموسم سيد الخلق مولانا محمد عليه السلام، وقد التأم الشمل، وأجمعت القوى، فنهضت، وانطلقت في طريق حافظ، تنشيء الحياة وتبني، فإذا هي مناط الأمل، ومعقد الرجاء، ومهوى أفئدة العروبة والإسلام...

وما أحرى الأمة الإسلامية، في رقاع الأرض، وبقاع المعمور، أن تحتفل في هذه الأيام، التي تفاقمت فيها الخطوب، وتوالت الأحداث، على العالم الإسلامي، بمولد المصطفى عليه السلام الذي خلص الإنسانية من آلامها، ورفع عنها إصرها، وحطم الأغلال التي كانت عليها، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، إلى رأي جميع، وخطة واضحة، وطريق مستقيم، وكلمة سواء...

إن رسالة سيدنا محمد لم تكن قاصرة على مجرد تصحيح العقيدة... وعبادة إله واحد... دون اقتلاع أسباب الفوضى والاضطراب، والقضاء على الفساد الذي استشرى في أطراف الجزيرة وفي كل مكان، ودون إقامة نظام شامل للحياة يقوم على العدالة والإنصاف، ودون تكريم الإنسانية والنهوض بها، وإعلان حقوق الإنسان...

لقد شهد العالم كله، على هذا التاريخ، يوم كُتبَ فيه، أن هذه الأمة انبثقت من كتاب، وولدت بمولد هذا الدين، وتوحدت يوم آمنت كلها بنبيه ورسالته، وخطت في طريق الخلود يوم قامت في الدنيا تنشر حضارته الزاهرة، ورقيه الصحيح، في يمناها كتاب الله تبدد به

1) ترجمة الشعر : للأستاذ الصاوي شعلان، ومحمد حسن الأعظمي.. وقد لحنها الأستاذ رياض السنباطي - إنشاد السيدة أم كلثوم -

2) يعتبر السيد غلام علي بن السيد نوح البلكرامي المتخلص بآزاد، «حسان الهند»، مدح النبي عليه السلام في دواوينه، وقصائده، وأوجد في مدحه معاني كثيرة نادرة لم يتيسر مثلها لأحد من الشعراء المفلقين، وجملة إشعاره المنظومة أحد عشر ألفا وما سمع قط، من أهل الهند من يكون له ديوان عربي أو شعر عربي على هذه الحالة («الوشي المرقوم»، للقنوجي ص : 1/346).

غياهب الظلام البهيم، وفي يسراها سيف الحق تستعمله عند الضرورة والاقتضاء الذي يقدر بقدره لمحاربة الباطل، ومنازلة البغي والعدوان، حتى أصبح المسلمون أهل الرياسة والكياسة والسياسة، تدين لهم في وقت وجيز أعظم الأمصار، وتنهار أمامهم جيوش الفرس والرومان، وتتحطم في طريقهم أمنع المعاقل والحصون، فاجتازوا أعلى القمم والجبال، وشقوا في طريقهم أخطر الأنواء والبحار... وأصبحوا في بضع سنين، أئمة يدعون بأمره ـ سبحانه وتعالى ـ لما صبروا...

على أن هذا الإسلام في رسالته الخالدة، ودعوته العامة الصامدة لم يكن دين حرب وحقد، ولا دين ضغط وإكراه... ولم تتأسس، حضارته على حد السيف والحسام، بل كانت دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة والإقناع كما لم تكن فتوحاته عن طريق الاستعمار كما زعم بعض خصومه، وإنما كانت عن طريق مبادئه ومثله وتعاليمه وأصوله العامة...

ولعل المسلمين اليوم، وهم يحتفلون في بقاع الأرض بمولد خير البرية وصاحب أعظم النبوآت وآخر الرسالات، وأعظم الصفات، ويستلهمون من روحه وسيرته معاني الصبر والوعي والتضحية والاستقامة، والعدل والحب والإيثار، ويتجهون في جميع الأقطار إلى نهضة جديدة أساسها التعاون لإحياء مجد الإسلام والدفاع عن كيانه، أن يؤوبوا لنفوسهم، ويفيئوا إلى أمر الله، ويعلموا أنهم سيكونون مسلمين حقا وصدقا حين يجدون في سرائرهم وقلوبهم وضمائرهم أثر هذه النبوة والرسالة والخلق، ويعرفون حقيقة دينهم وجوهره، ويتمسكون بأخلاقه، ويتأدبون بآدابه، ويحققون في ذوات نفوسهم مثله ومبادئه وغاياته.

إن الإسلام نظام عالمي، ذو رسالة موغلة في الأبعاد، رحيبة الآفاق، توجه الإنسان في الحياة، وتقوده في أناة ورفق إلى مدخل الإنسانية الرحيب وتساعده على أن يحمل لنفسه وللجماعة الإنسانية أسمى درجات من الكمال الإنساني في الروح والعقل والخلق والوجدان.

وإن المسلمين اليوم، وهم يعيشون مطلع القرن الخامس عشر الهجري في حاضر يتمخض عن حادث جلل، ينتظره مستقبل الإسلام، وقد تمخضت الحركة الإسلامية في هذا القرن عن دعوة حية صافية صادقة في الرجوع إلى صفاء العقيدة التي تدعو إلى العمل، وطهارة الإيمان، الذي يبعث على الخلاص... وقواعد الحضارة والثقافة العربية والإسلامية التي تدعو إلى الفوز والنجاة والحرية والاستقلال... فالعمل الصالح لا يتم إلا عن طريق العقيدة والإيمان... والروحانية لا تنمو إلا إذا كانت مقرونة بالعمل الذي هو سياسة لا ستمرارها وبقائها.

وإن العالم الإسلامي، كما هو معلوم، يزخر بطاقات بشرية راقية، ويفيض بثروات مادية كبرى في أرضه ومائه إلى جانب ثرواته الروحية العظيمة التي لا تتم السعادة والرخاء إلا بها.

ويمر العالم اليوم، وقد عرَتْهُ هزات نفسية، والتي كان من آثارها أن زعزعت الإيمان، واستخفت بالأخلاق، واستهانت بالقيم والمثل العليا، وما هي في الحقيقة إلا رعشة عارضة عابرة في كيان الإنسانية... رعشة القلب المبهور بكشوف العلم، وفتوحات العقل المأخوذ بروعتها والمشدود بجلالها.

لقد تألقت كشوف العلم، وأومض سناه أمام الإنسان، وتراقصت أمامه أضواء النظريات في عهد مزدحم بالتيارات الفكرية والمبادىء المتباينة، كما زخرت دنياه بألوان معجبة زاهية استهوت الناس، واستمالت نفوسهم وملكت زمام أمرهم فأذهلتهم عن معالم الروح، فغرقوا في لجة المادية، وغشيتهم غاشية الزيغ والإلحاد، والفسوق والعصيان، فضلوا الطريق القويم وتنكبوا المنهج القاصد، وكفروا بفاطر الأرض، ومنزل الوحي، وواهب الحياة...

والإسلام يرى في إنسان هذا القرن إنساناً نضجت ملكاته، وتفتحت مداركه واتسعت آفاق نظرياته في ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شيء... وكل هذا جدير بأن يبلغ به يوما ما مبلغ الإيمان الوثيق، ويصل به إلى درجات الإحسان... وتكريم أخيه الإنسان، وتعميم الخير، وتحقيق السعادة، وتنظيم العمران...

وإذا وجهنا النظر إلى بعض التطورات المتلاحقة في عالم الإسلام، اليوم فإننا نلاحظ يقظة دينية وسياسية، وفكرية وسياسية، كما نلمس نزعة طيبة ترمي إلى العودة إلى الإسلام، وتهدف إلى الرجوع إلى تعاليمه... حيث الدواء الناجع في جنى الدين، والسلامة المطمئنة في ظلاله...

وقد امتاز عصرنا، رغم ما أصاب ويصيب، المسلمين من محن وضغوط، واستبداد واستعباد، بتنبه وعي المسلمين في كل مكان الذين استيقظوا من سباتهم وغفلاتهم، وتحقيق استقلال البلدان الإسلامية، والعربية والإفريقية والأسيوية التي فكت عندها قيود عقالها، وتحررت من إسارها بفضل زعماء الإصلاح الذين أيقظوا راقد العزم، وأرصدوا الأهب للبعث والتطوير، والنشور والتنوير، فكان لهم الفضل الأكبر فيما ظهر في هذا العصر من إصلاح ديني، وتجديد أخلاقي، وتطور اجتماعي... وكذلك بفضل الدعوات المتكررة التي تدعو المسلمين إلى أن يتسلحوا بالتقنية والعلوم الحديثة، والاعتماد على النفس والاستقلال التام، الذي يتشخص في الاكتفاء الذاتي، وتطوير العقلية لهضم مفاهيم الحياة المتطورة المتجددة، وامتصاص ما تقتضيه متطلباتها ومستلزماتها في نطاق الأخلاق والدين والضمير مما يدفع بهم إلى حياة حرة طليقة تتضوع بأريج السعادة الراضية، والأمل المطمئن، وتنتشي باستقلال تام ناجز... يشهد معه العالم كله نهضة العالم الإسلامي التحررية الباعثة على الإعجاب والإجلال، حيث يكون لها تأثير حاسم في تقرير مصير العالم، وسعادة الإنسانية والبشرية.

وسنعلنها، كما أعلنها سيدنا محمد عليه السلام، ثورة هادئة مطمئنة رائعة تخلص الإنسان من العبودية والظلم والاستغلال، وتحرير البشرية من إسار العنت والإرهاق، وتخلق مجتمعا فاضلا متماسكا متعاونا متحابا قويا مسلما يبني أنبل الحضارات، وأكثرها إسعادا للشعوب والمجتمعات...

أيها السادة :

لقد كان الشاعر الحكيم الدكتور محمد إقبال (3) لسانا لدين الله في دنيا العجم، يفسر القرآن بالحكمة، ويصور الإيمان بالشعر، وينشىء الفرد على العزة والمنعة والاستقلال..

كما كان صلة وصل بين ماض مشرق عريق، قامت به بلدكم المسلم للحفاظ على القرآن والسنة وطريق الجماعة، وحاضر ملح يتطلب اليقظة والتبصر والحزم، ومستقبل واعد مشرق صحو...

والتاريخ الصادق الأمين يذكر لإقبال خطابه في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في مدينة القدس عام 1931 الذي أكد فيه على الوحدة العربية، وبأن استقلال العرب يكمن في وحدتهم لإعزاز وحدة المسلمين جميعا...

ولا ننسى في هذا المقام مولانا محمد علي كبير زعماء مسلمي شبه القارة الهندية (ت 1931م) الذي كان لا يألو جهدا في خدمة الإسلام في شتى أقطاره، وقد أقيمت

---

3) أنظر «روائع إقبال» بقلم أبي الحسن علي الحسني الندوي الذي عرض حكيم الشرق وأفكاره وآرائه في ضوء شعره الإسلامي الذي يتدفق بالإيمان والإخلاص، عرضا مؤسسا على دراسة عميقة تحليلية تتجلى من خلالها حرارة المؤلف الإيمانية...

وقد قام المؤلف بترجمة الشيء الكثير من قصائده البديعة، وأبياته الرائعة بأسلوب أدبي رائع.. وقد وضعه المؤلف الندوي استجابة لرغبة وجهها إليه الكاتب القدير السيد علي الطنطاوي في كتاب مفتوح في مجلة : «المسلمون» التي كانت تصدر في دمشق، طلب إليه نقل شعر إقبال إلى العربية، وقد سرد المؤلف هذه القصة في مقدمة الكتاب تحت عنوان : «صلتي بمحمد إقبال» ونقل الكتاب إلى اللغة الأردية، ثم نقل إلى الإنجليزية بعنوان : GLORYOFIQBAL..

وانظر أيضا : «إقبال كامل» بقلم الأستاذ عبد السلام الندوي، وهو كتاب بأردية في ترجمة شاعر الإسلام د. محمد إقبال، مع دراسة نقدية تحليلية لفلسفته وشاعريته والمعاني الجديدة التي ابتكرها، والجمال والحماس والإخلاص والغيرة الدينية التي يمتاز بها شعره، وتتدفق بها دواوينه..

انظر القصيدة في الشوقيات ص : 3/12، ومنها هذه الأبيات في مولانا محمد علي :

بطل، حقوق الشرق من أحماله ... وقضية الإسلام من أعبائه

لم تنسه الهند العزيزة رقة ... للشرق، أو سهرا على أشيائه

له في القاهرة حفلة تأبين كبيرة ألقيت فيها قصيدة عصماء لأحمد شوقي... كما إننا يجب أن لا ننسى أخاه مولانا شوكت علي الذي آلت إليه زعامة المسلمين في الهند بعد أخيه...

لذا يجب أن يكون احتفالنا اليوم، بمولد الرسول، والاحتفال بسيرته العطرة لانتزاع العظة والعبرة... بل يجب أن نحتفل بمحمد في كل يوم، في سلوكنا ومعاملاتنا وعلاقاتنا، فنترسم خطاه، ونتخلق بسمته، ونهتدي بهديه، ونسير في طريق حافظ، ولا سيما في هذا العصر الذي تهاجمنا فيه المبادئ الهدامة التي تفد علينا، سرا وجهراً، وتغزو ديارنا من وراء البحار وخلف السُهوب...

وما من شك في أن الأمة الباكستانية المسلمة التي عودتنا الاحتفال في مثل هذه المناسبات حيث جعلها الله مرابطة في هذه المنطقة من العالم في شبه القارة الهندية منذ أن دخلها الإسلام في القرن الأول، وأهلها متمسكون بدينهم، مترسمون سيرة المصطفى عليه السلام، مدافعون عن سنته وآثاره، ولا أدل على ذلك من عنايتهم بالحديث الشريف.

ولقد أشاد بذلك ونوه به عالم الشام وعلَمَها المغفور له الشيخ محمد رشيد رضا (4) في مقدمته لكتاب: «كنوز السنة» حيث ذكر فيها ما يلي: ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق... فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة حيث بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر.

نعم لقد جاء الإسلام والكتاب والسنة بمدح بعض الأعاجم، يقول تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب، والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم**﴾ قال ابن عمر، وسعيد بن جبير: هم العجم...

ففي الصحيحين عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم**﴾ قال رجل: (من هؤلاء يا رسول الله ؟) فلم يراجعه النبي عليه السلام حتى سأله مرة أو مرتين، أو ثلاثا... قال: (وفينا سلمان الفارسي) قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء...

ومصداق ذلك ما وجد في التابعين ومن بعدهم من أبناء العجم وفارس الأحرار، والموالي مثل: الحسن، وابن سيرين، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم إلى من وجد بعد ذلك فيهم من المبرزين في العلم والإيمان حتى صار هؤلاء المبرزون في ذلك أفضل من أكثر العرب...

وكان إسرائيل بن موسى تلميذ الإمام حسن البصري (ض) يتردد إلى الهند كثيرا، ولذلك لقب بنزيل الهند، يقول عنه ابن حيان في «الثقات»: كان يسافر إلى الهند....

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (5) وكذلك سائر أصناف العجم من الحبشة والروم والترك... وغيرهم: سابقون في الدين والإيمان لايحصون كثرة، على ما هو معروف عند العلماء، إذ الفضل الحقيقي: هو اتباع ما بعث الله به محمدا ﷺ من الإيمان والعلم، باطناً وظاهراً فكل من كان فيه أمكن: كان أفضل... والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة، مثل: الإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والعلم والعمل الصالح والإحسان ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربيا أو عجميا أو أسود أو أبيض، ولا بكونه قرويا أو بدويا...

---

4) من مآثر العلامة شبلي النعماني أنه وجه الدعوة إلى العلامة سيد رشيد رضا إلى زيارة الهند، والقائه كلمة أمام محفل العلماء الهنود، كان لها أثر كبير على مسلمي الهند.

5) «اقتضاء الصراط المستقيم» ص: 145.

ومصداق ما نقول هو ما رأينا، من هذه الحركة العلمية التي وصلت إليها في فنون الحديث الشريف، والاعتناء بالسنة والسيرة النبوية، في شبه القارة الهندية... فما تم الفتح الإسلامي حتى رأينا الحركة العلمية تتبعه، فكان بعض الفاتحين أنفسهم من العلماء... فأبو حفص ربيع بن صبيح السعدي البصري من أتباع التابعين وأعيان المحدثين بالسند، وهو أول من صنف في الإسلام وأشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث، كان في الجيش الذي سيره المهدي عام 159 هـ لفتح الهند قال صاحب «المغني» مات بأرض السند سنة ستين ومائة (6) «وبهامات» (7) وقد ترجم الذهبي لبعض المحدثين في السِّنْدِ في كتابه : (8) ومن المحدثين الهنديين : أبو معشر نجيح السندي صاحب «المغازي».. سمع نافعا، ونقرأ من التابعين ها جر إلى المدينة واستوطنها فعرف بالمدني، وكان علما من أعلام المغازي والسير، بل هو من السابقين الأولين الذين عنوا بكتابة وقائع الغزوات والسير (ت 170 هـ) وكانت لهجته تَنِمُّ عن رائحة اللغة السندية حتى آخر حياته، وكان لا يتمكن من أداء الحروف العربية من مخارجها الصحيحة، فكان بذلك ألكن، يقول حدثنا محمد بن «قعب» يريد : كعب ...

ونجد في الهند تابعا آخر إسمه حباب بن فضالة، تشرف بلقاء خادم النبي عليه السلام سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، وكان قد سجل اسمه في الجيش الذي أرسل إلى الهند، فسأل سيدنا أنسا رضي الله عنه عما يجوز له الخروج في الجهاد بدون إذن أبويه أم لا ؟، فأشار عليه بالعودة إلى الوطن...

وقد ذكر المؤرخون محدثا آخر هو رجاء السندي الذي سافر إلى إيران، واشتهر هناك بالاسفرائني، وكان نابغة عبقريا ولا سيما في علم الحديث، وقد تحدث عنه المحدث الكبير الحاكم أبو عبد الله النيسابوري : «ركن من أركان الحديث» وامتازت أسرته بأنها أنجبت كثيرا من حفاظ الحديث (ت 321 هـ).

☆ ☆ ☆

بل وقد كان من الشعراء في بلدكم العظيم، أبو عطاء السندي، وهو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكان أبوه سنديا لا يفصح، ونشأ ابنه في المسلمين شاعرا كبيرا (9)...

وقد اشتهر من اللغويين ابن الأعرابي الهندي الذي كان علما من أعلام اللغة والأدب والشعر، أملى على الناس ما يحمل على أجمال، وألف تآليف كثيرة، وتلمذ له كثيرون، من أشهرهم ثعلب، وابن السكيت، ولم يبق لنا من كتبه إلا كتاب في أسماء البئر وصفاتها (10) وكتاب في أسماء الخيل وأنسابها (11) وكتاب الأنواء.

وكان بلاط محمود الغزنوي موئل العلماء والأدباء، ومنهم العتبي مؤرخ عصر السلطان محمود، والبيروني صاحب كتاب : «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مر ذولة» والفردوسي الشاعر صاحب : (الشاهنامه).

☆ ☆ ☆

إن باكستان. لم توجد في عام 1947، يوم أعلن وجودها رسميا، بعد أن تنازلت أنجلترا عن استعمارها، بل انها وجدت منذ القرن السابع الميلادي يوم فتح المسلمون الهند (12)، وأنشأوا فيها أول دولة إسلامية...

---

6) «الوشي المرقوم، في بيان أحوال العلوم» للقنوجي ص : 1/344. يقول فيه صاحب «كشف الظنون» ص : 365 : قيل هو أول من صنف، وبوب في الإسلام» وفي طبقات بن سعد ص : 7/36، أنه خرج غازيا إلى الهند في البحر، فمات، فدفن في جزيرة من جزائر البحر سنة ستين ومائة...

7) ابن الأثير، ص : 2/17.

8) ترجم لخلف بن سالم الحافظ أبو محمد السندي (ت : 231 هـ) «تذكرة الحفاظ» ص : 2/65، وترجم لمحمد بن محمد بن رجاء ابن السندي، ص : 2/255. طبعة : دائرة المعارف النظامية في حيد رآباد عاصمة الدولة الدكنية الإسلامية بالهند.

8) مكرر ـ «ميزان الاعتدال» للذهبي، ص : 1/208.

9) من الشعراء الهنود عبد المقتدر بن ركن الدين الشريحي الكندي الدهلوى (ت 971 هـ. وأحمد التهانيسري، وغلام علي بن السيد البلكرامي، له سبعة دواوين وولي الله المحدث الدهلوي، ومنهم الشيخ عبد العزيز، والشيخ رفيع الدين، والشيخ محمد إسماعيل الدهلويون. أنظر شعراء الهند : أبجد العلوم ص : 345 ـ 346 ـ 347 و«حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في ق : 18 ـ و19»، للدكتور جميل أحمد.

10) نشر في مجلة : المقتبس، مج : 6/1.

11) يوجد في دار الكتب المصرية من كتب الشنقيطي.

12) في عام 1952، صدر في أنجلترا كتاب باللغة الإنجليزية اسمه : «خمسة آلاف سنة، من تاريخ الباكستان» لمؤلفه : (ر.ا.م هويلر) Wheeler

وليس في وسع أحد أن يبرز عاملا واحداً مفسرا للتاريخ، كما برز عامل العقيدة وحده في الباكستان. (13) فهذا العامل الموجود حيث تختفي جميع العوامل، أو توجد على ضعف وتفرق، وهو العامل الذي قام وحده في وجه كل العوامل، فكان له قضاؤه الذي لامرد له، ومعقب عليه... (14).

فالوحدة الجغرافية لم تكن هي التي فعلت فعلها الأكبر في نشأة الباكستان...

كما أن الوحدة الاقتصادية لم تكن هي التي فعلت فعلها الأكبر في نشأتها.. ولم يكن جنس السلالة هو الفارق بين الهند والباكستان..

يقول سيرارنست باركر Sir Ernest PARKER. في باب القومية على ضوء التجارب العصرية : «ليست الأُمة حقيقة بدنيَّة من دم واحد، ولكنها حقيقة عقلية أو نفسية من تراث واحد».

واستطرد البحث إلى العامل الديني في تكوين الأمم، فقال الأُستاذ : «كان الرأي الشائع إلى زمن قريب ان أثر الدين في تكوين الأُمم يتضاءل. ويضمحل، وهذا الاعتقاد في تضاؤل أثر الدين في شؤون السياسة، يتطلب التنقيح بعد قيام دولتين، على إثر الحرب، قائمتين على الوشائج الدينية، وهما دولة الباكستان المسلمة، ودولة إسرائيل اليهودية..»

وقد دخلت باكستان في عِدادِ الأسانيد التي تجدد المقررات والمعلومات عن بواعث التاريخ الكبرى، وعلى التعريف الصحيح لمعنى الأُمة، ومعنى الجنس أو السلالة... (15).

☆ ☆ ☆

لقد ألف الإسلام بين الأُمم، وتعاقبت، الدول الإسلامية على الهند، ووقعت مخالطة العرب والعجم... وجلس الخلفاء في بغداد، وأمَّتهم الخلائق من شواسع البلاد اكتسب العجم فَنَّ الفصاحة من العرب العَرْبَاء، وتجاوبوا على سَنَنِهم في هذه الدوحة العلياء، لاسيما من كان قريبا من دار الخلافة، وجاراً متصلا بمركز الشراخة كما تشهد به «يتيمة الدهر» للثعالبي، و«دمية القصر» للباخرزي وغيرهما... واستمر المسلمون يحكمونها سادة قادة، غير منازعين إلى عام 1857، يوم سلبهم الإنجليز آخر معقل من معاقلهم، وقضوا على تلك الامبراطورية المغولية التي كانت أول وآخر امبراطورية تحكم الهند كلها حكما مباشرا بقوة.. فعاشت الهند اثنى عشر قرنا بلادا إسلامية، لافرق بأن يكون حكامها عربا، أو أفغانيين، أو غوريين، أو مغول، لأن كل هؤلاء، لم يحكموا باسم القوميات، بل حكموا باسم الإسلام.. والإنجليز لم يستلموا البلاد من الهنادكة، بل من حكامها المسلمين، فالمسلمون حكموا الهند عشرة قرون، فكانو مثال الحاكم العادل، فما أساؤا معاملة أحد، ولا أجبروا شخصا على ترك عقيدته، ولا ظلموا امرءاً، لأنه غير مسلم...

بل إن جميع الفاتحين الذين أتوا الهند، جاؤوها بطريق باكستان الحاضرة من الشرق، أو من الغرب، ثم انحدروا إلى الهند، وإذا كانوا لم يتخذوا الشمال قاعدة لملكهم، بل اتخذوا «دهلي» بدلا عنها، فذلك لأسباب استراتيجية فهي أمنع من غيرها من البلاد، ثم إنها تقع في نقطة متوسطة بالنسبة لكل الهند، وقد يأتي، **في سياق الحديث عن باكستان شيء من التاريخ العلمي الذي لايمت إلى باكستان مباشرة، ولكنه جزء منها،**

13) الباكستان : إسم لم يكن معروفا في لغة من اللغات قبل الربع الثاني من القرن العشرين ومن طرائف الإسم الذي تسمى به، قد وجد لها في إبانه عام 1933، فسماها «رحمة علي» : أرض الطهر.. واتخذ هذا الإسم من حروف أسماء الأقاليم التي يراد تكوين الباكستان منها، وهي : بنجاب، وأسام، وكشمير، وسند، وتليها : ثان من إسم بلوشتان.

14) عباس محمود العقاد..

انظر كتاب ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز الذي بعث إليه هدية، ورجا منه أن يوجه إليه رجلا يعلمه ويفقهه الإسلام (العقد الفريد، لابن عبد ربه ص : 2/60، تحقيق سعيد العريان).

15) مجموعة البحوث الدولية عن عامي : 1950 ـ 1951 التي تطبعها جامعة : «هارفارد» بإشراف الأستاذ : باد لفور وPadelford العالم الخبير بشؤون الدراسات الدولية.

لأنها هي ذاتها جزء من الهند، (16) والهند جزء منها...

☆ ☆ ☆

لقد ولدت باكستان، بعد جهاد ونضال، في نصف الليل من يوم 14 غشت 1947، ولكنها ولدت ولادة مشوهة، كما أخذنا، نحن المغاربة، استقلال بلادنا يوم غادرها الاستعمار الكافر، ولم تفتح عينيها إلا على أعداء ألداء، يحيطون بها من كل جانب، ويريدون لها السوء، وكان أشد هؤلاء الأعداء شراسة، وأكثرهم لؤما من كان يجب عليهم أن يكونوا أوفى الأصدقاء، ألا وهم الهنادكة الذين عاملهم المسلمون زمن سيطرة حكوماتهم أفضل معاملة يعامل بها الأخ أخاه...

☆ ☆ ☆

وإن المسلمين، في بقاع الأرض لا يمكن أن ينسوا الزعيم القائد الأعظم الفذ محمد علي جناح (17) الذي خلصته الحوادث، ومحصته التجارب، ومحّضته آراؤه وحصافته لمهمة فريدة لايضارعها في الاستعداد لها إلا أحد من أبناء عصره، فلقد عاش حياته بالعرض والطول، فهو لايتذكره مسلموا الهند فقط، كداع من دعاة الوحدة الإسلامية، في شبه القارة الهندية، ولكن يتذكره جميع المسلمين في العالم، فقد جمع أمة، ونظم كياناً، وأقام دولة، وأسس بنيانا إسلاميا شامخا.

إنه زعيم لأمة حديثة أنشأها في أحلك الظروف الدولية، وقادها إلى الحرية والاستقلال، وأقام لها كيانها الجغرافي والاجتماعي والثقافي والحضاري وكان لا يفتأ يدعو إلى الوحدة بين الطوائف الدينية المتصارعة، وكان في الوقت نفسه من أعضاء حزب العصبة الإسلامية... ولما فصم علاقته بحزب المؤتمر الهندي، قام بنشاط جم، وحركة دائبة، وفعالية جادة مومنة بالعصبة الإسلامية...

تولى محمد جناح هذه المهمة الشاقة، مهمة توحيد المسلمين على أساس عقيدة واحدة يدينون بها، وعلم واحد يتوجهون إليه، فهو يعلم أنه سيواجه قوى عديدة في مهمته.. لذا، لم يكن يدعم جناح في مسيرته هذه، سوى الشجاعة التي يتحلى بها، واقتناعه بعدالة قضية المسلمين في الهند، وضرورة إنشاء دولة لهم، وثقته بنفسه وبشعبه وبروحه الكبيرة...

لقد أيقظ المسلمين إلى وعي جديد، ومنحهم إرادة العمل الرشيد، وبعث فيهم إيماناً قوياً بمصيرهم، ثم جعلهم أمة متحدة قوية متماسكة وواعية بذاتها، بعد أن كان المسلمون جماعة لا يوحدهم نظام، كمّاً مهملا لا يحسب لطاقتهم السياسية حساب ما.

وقد ذكر الأستاذ «لونيا» LUNIYA. مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية : «هولكار» علاقة المسلمين بغيرهم من الهند، فقرر في غير موضع، أنهم أمة مستقلة، لا اختلاط بينها وبين الأمم البرهمية، ومنها قوله في «فصل الهند والإسلام» : «إن المسلمين أول قوم أغاروا على الهند، ولم تستوعبهم طيات القارة الهندية المرنة التي لاتني تمتد وتنطوي على المغيرين، وقد أغار قبلهم كثيرون كالإغريق والسيثيين، والمغول والمجوس وغيرهم. وانطووا في الغمار بعد أجيال قليلة انطواء تاما بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم، وفنيت جموعهم في الواقع في المجتمعات الهندية، إلا المسلمين، فإنهم لم يزالوا في الهند طائفة منفصلة، ورفضت نياتهم المتشددة في الوحدانية كل

---

16) يقول بعض المؤرخين : إن لفظ «الهند» هو تصحيف لفظة سند وإنما سميت السند سندا نسبة إلى نهر السند الذي يسميه بعض المؤرخين نهر «الأندوس». ويقول الآخرون. بل العكس هو الصحيح، أي إنما أطلق إسم السند على هذا النهر نسبة إلى البلاد التي يجري فيها، ويقولون على هذا القول بأن هذا النهر كان يسمى وقت الفتح الإسلامي نهر : «مهران»، فسماه المسلمون السند تبعا للبلاد، ثم ان لفظة السند ذاته، شمل بعد الفتح الإسلامي أكثر من المنطقة التي يطلق عليها هذا الاسم الآن، لا، بل صار يطلق على شبه القارة الهندية كلها..

17) أنظر : «نوادر مشرقة، في حياة القائد الأعظم» لمؤلفه : الأستاذ صديقي، وكذلك : «القائد الأعظم محمد علي جناح» للأستاذ عباس محمود العقاد الذي عني عناية خاصة بوصف عظمة هذا الرجل، والعظات التي يستفيد منها نقاد التاريخ من نشأة الباكستان.. وأيضا كتاب : «حياة محمد علي جناح» بقلم الأستاذ رئيس أحمد الجعفري الندوي الكاتب الأردي المترسل، وهو كتاب يقع في 900 صفحة، ترجمة ضافية للزعيم الكبير الذي كان له دور كبير في تأسيس دولة باكستان، بل أنه بنفس الوقت تاريخ كامل أمين للصراع الطويل المرير بين المسلمين وغيرهم، وبين المسلمين بالإسم والمسلمين في معنى الكلمة...

هوادة في قبول الشرك والأرباب المتعددة ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون في أرض واحدة، دون أن يمتزجوا، ولم تفلح محاولة من المحاولات في وضع القنطرة على الفجوة... وما برح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة في مكة، وينفردون بشريعتهم ونظام إدارتهم ولغتهم وأدبهم وحضارتهم وأضرحتهم وأوليائهم...».

من أجل ذلك قامت، في الهند، مدرسة حضارية فكرية علمية ذات شخصية متميزة، وطابع خاص أنجبت عدداً كبيراً من الأعلام والنوابغ، وأئمة الفنون الإسلامية، وأصحاب الإبداع والابتكار، والأصالة العلمية، كانوا أصحاب مدارس خاصة، وفاتحي آفاق جديدة، رحبة الحدود، ليس في العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه والعقائد فحسب، بل في علوم اللغة والآداب العربية، ولقد عدت، كتبهم الغنية الثرية، من المراجع الرئيسية في هذه العلوم، وبعضها فريد، في بابه، لا نظير له، ولا ضريب في المكتبة الإسلامية العالمية.

ومدّت هذه المدرسة الفكرية الهندية، الحركة العلمية والتأليفية في العالم الإسلامي والعربي التي أصابها الفتور، وغشيها الإعياء والنصب واللُّغوب في رحاب الفكر والعلم، في بعض الفترات، بعد القرن الثامن الهجري، بدم جديد، ونشاط جديد، وأصبحت معقلا لبعض العلوم الإسلامية، وصارت أكبر مركز لعلم الحديث الشريف، ودراسة السيرة النبوية في الزمن الأخير، ومصدر إشعار وتصدير بعد ما كانت مركز استفادة واستيراد، ونبغ فيها أكبر علماء هذا الفن، وألف فيها أحسن الكتب في هذا الموضوع..

وقد عرف الشعب الباكستاني المسلم، في تاريخه الطويل، بقوة عاطفته الدينية، وحبه العميق، وهيامه المتفاني المتغلغل في الأحشاء لرسول الله ﷺ وارتباطه بمهد الإسلام ومركزه.. وذلك الذي حماه من أن يذوب ويفقد شخصيته الإسلامية في ذلك الخِضَمّ الزاخر... الذي يعُبُّ عُبابُه، وتصطخبُ أمواجُه، إذ العقيدة الإسلامية، والعلوم الإسلامية، لابد من أن تورق وتثمر، وتستوي سوقها في كل بيئة ومناخ، وقد تكون أكثر ازدهارا، وأفضل ثماراً، وأوفر غلالا، إذا غرست في أرض بكر، وتناولها التهذيب والتشذيب، وعمل التلقيح الحكيم، والتأبير السليم...



محمد علي جناح ـ مؤسس الدولة الباكستانية

☆ ☆ ☆

ولقد أتى حين من الدهر، أصاب الحكومة العباسية ضعف واضمحلال، وقامت حكومات مستقلة أعجمية، وبدأت تقل العناية بالحديث، بعدما كان كبار المحدثين روافد لبلاد الهند من أمثال الإمام البخاري ومسلم والترمذي والنسفي والنسائي وأبو داود السجستاني، وابن ماجه القزويني، تزخر بهم الساحة الإسلامية، ولا سيما محدثوا علماء ما وراء النهر في القرن الثالث الهجري... ثم إن تلك الغارات المتوالية التتارية كانت قاضية على البقية الباقية من هذه النشاطات... ونشط علم الفقه، ولم ينل الحديث عناية خاصة به، حتى إن علم الحديث لم ينل شيوعا ورواجا قبل عهد المغول في الهند إطلاقا، فضعف نشاط الحديث النبوي، ونشطت أقوال ومذاهب الفقهاء، ورجال التصوف، ولم نعد نسمع «حدثنا رسول الله» «وأخبرنا» في أرجاء شبه القارة الهندية إلى قرون عديدة إلا تحلة القَسَم، فقد كان جل هم العلماء منحصرا في الفقه والأُصول، وقد دب في عقولهم داء التقليد الجامد، فاعتقدوا كتب

المتأخرين من الفقهاء، واتخذوها أصل الدين، وملاكه دون الكتاب والسنة.

ولك أن تقدر عدم اعتنائهم بالسنة، بما جرى من المجادلة بين العلماء والشيخ نظام الدين أحدِ كبار الصوفية في شبه القارة الهندية (ت : 725 هـ) في مسألة السماع، وقد عقدوا مجلسا خاصا لتحقيق هذه المسألة...

ولما عرض عليهم الشيخ حديثا مستدلا به على شيء مما أدّعى.. قالوا : «لا نسلم بهذا الحديث، فإنه حديث استدل به الشافعي، وهو عدو مذهبنا»، وفيه كفاية للدلالة على عدم اكتراثهم للحديث في ذلك العهد.

وهاك الحديث الذي استدلوا به في هذه المناظرة، وهو يدل على مبلغ علمهم بالحديث... فقد ذكر بعض المؤرخين أن القاضي ركن الدين التفت إلى الشيخ، وقال : ما دليلك على جواز السماع والغناء ؟ فاستدل الشيخ بما روي عن النبي عليه السلام أنه قال : «السماع مباح لأهله» فأجاب القاضي : «مالك والحديث ؟..» أنت رجل مقلد، تقتدي بأبي حنيفة، فأتِ بقول من أقواله حتى نراه، فقال الشيخ : سبحان الله العظيم أنا أحدثكم عن رسول الله ﷺ وتطالبني بقول من أقوال أبي حنيفة...».

وما من شك بأن هذا كان من أكبر السلبيات في شبه القارة الهندية كما قال أبو الكلام آزاد في مذكرته، حيث إن العامة والخاصة كلهم كانوا مصطبغين بصبغة التصوف أو غيره، حتى بلغ بهم الأمر إلى أنهم ما كانوا يقبلون شيئا إلا إذا كان مسبوكاً في قالبه...

بل قد تجاهر بعضهم على إنكار الحديث النبوي برمته، وجاهروا بدعوتهم الكاذبة، وبدأوا ينكرون الخوارق من مولد المسيح من غير أب، ووجود الخضر، وقد بلغت الوقاحة من بعضهم أن جعل يسخر من الله تعالى، ومنهم من أداه اجتهاده الكاذب المشؤوم إلى أن الصلوات المكتوبة ثلاث، إلى غيرها من الأراجيف والأكاذيب والترهات التي يموج بعضها في بعض، قديما وحديثا.

بيد أن فتنة جحود الحديث النبوي، والغض من شأن الرسالة المحمدية، والتقليل من شأن السيرة (18) النبوية قد قيض الله لها رجالاً نهضوا بالعبء وتجشموا الصعاب والعنت فعقلوا نشاطهم، وأرصدوا الأُهَبَ لخوض تثبيت مركز السنة ومبادئ القرآن وتركيز الأخلاق المحمدية، حتى انتشرت في شبه القارة الهندية، وسافر العلماء إلى الحرمين الشريفين لارتياد العلم، والكرع من ينابيعه في مختلف القرون حتى نفقت سوق الحديث، ونبغ فيهم رجال أمثال الشيخ عبد الحق الدهلوي (958 ـ 1053 هـ) والإمام ولي الله الدهلوي (19) ومن جاء بعدهم من التلاميذ والمشايخ...

ومما لا يختلف فيه اثنان أنه ما نبغ في من جاؤوا إلى شبه القارة الهندية بطريق «ممر خيبر» من العلماء رجل عالم بالسنة، عارف بأسرارها مطلع على دقائقها، قبل حسن بن محمد الصغاني (ت 650 هـ) الذي ألف في بغداد كتابه الشهير : «مشارق الأنوار النبوية، من صحاح الأخبار المصطفوية» الذي ألفه لخزانة المستنصر العباسي. (20)

ومع هذه الجهود المضاعفة، والنضال المرير الذي بذله علماء السنة والحديث والسيرة النبوية، فقد كان الإسلام والسنة يتعرضان في شبه القارة الهندية لمحن شديدة، وتسدد إليه أسهم جارحة في الصميم سواء في الداخل أو الخارج، من أبناء الملة الإسلامية ومن انحرف عن جادة

---

18) «سيرة النبي» أفضل ما كتب في السيرة المحمدية في أي لغة من لغات العالم، وهي دراسة عميقة ومكثفة وموسعة للتاريخ الإسلامي، وعلى المستوى العلمي والأدبي، والكتاب في ست مجلدات كبار.. المجلدان الأولان بقلم العلامة شبلي النعماني.. والبواقي بقلم العلامة د. سليمان الندوي.. وانظر أيضا : «الرسالة المحمدية» للعلامة الدكتور سليمان الندوي، وهو ثماني محاضرات ألقاها في «مدراس» في الهند على الشباب المثقفين والطلاب الجامعيين في أكتوبر 1926. وقد نقلها إلى العربية منذ مدة بعيدة الأستاذ محمد ناظم الندوي رئيس قسم الأدب العربي بدار العلوم، ندوة العلماء، سابقا، ومدير الجامعة الإسلامية بـ «بها ولبور» باكستان سابقا، وتكررت طبعاته في دمشق والقاهرة، ثم نقل إلى الإنجليزية.

19) من أفراد المتأخرين علما وعملا، وشهرة، والذي أحيا الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند بعد مماتها... الشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الهندي (ت 1176 هـ) له : «الإرشاد، إلى مهمات الإسناد» وهو ثبت نفيس في نحو كراسة مطبوع بالهند، قال في أوله : «حداني إلى تأليفه احتياج أهل العصر إلى مثله، فإن هذا العلم صار في عصرنا نسيا منسيا، وكاد أهل العصر بجهلهم بفضله يتخذونه سخريا..» وقد اشتمل مقدمة وفصولا (فهرس الفهارس للكتاني ص : 123 ـ 1/126).

20) كشف الظنون ص : 1/1688.

السنة والجماعة، (21) ومن أهل الملة النصرانية أيضاً، ويكفي أن نقول بأن الامبراطور جلال الدين محمد أكبر، (22) يقول : «إن بعثة محمد قد مضى عليها ألف سنة، وبذلك انتهى عصرها، والدين الإسلامي لا يصلح لهذا الزمن الراقي... كما أن ابنه «سليم» الذي خلفه، وأظهر احتراما للشعائر الإسلامية، كان في نفس الوقت، يظهر احتراما لشعائر الدين الهندوسي... وفي عهد «سليم» ظهر المصلح الإسلامي الكبير الشيخ أحمد السرهندي الذي خالف الامبراطور علنا، ووبخه على آثامه...

وجاء بعده «شاهجان» فأعاد للإسلام مجده، ومن مظاهر احترامه للإسلام أنه سك عملة الدينار، وكتب في وجه : «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ضرب دار الخلافة» «شاهجان آباد عام 1064» وفي الوجه الآخر : «تنور الإيمان بصدق أبي بكر الصديق، وتقوى الإسلام بعدل عمر، وانتصر الإسلام بحياء عثمان بن عفان، وتحلت الولاية بعلم علي رضي الله عنهم أجمعين».

وخلفه إبنه : «علمجير» فكان خير خلف لخير سلف.

والخلاصة كما يقول الأستاذ : إمداد صابري : «كل سعي للامبراطور جلال الدين محمد أكبر، (23) ضد الإسلام ضاع سدى بمساعي الشيخ أحمد السرهندي (24) على يد «شاهجان» وإبنه «عالمجير».

وقد نشطت الملة النصرانية أيضا لمحاربة المسلمين في شبه القارة الهندية وكانت مخططات البرتغال وبريطانيا أن يعتنق الناس في جنوب قارة آسيا، وخاصة شبه القارة الهندية الديانة النصرانية، وتحالف البرتغاليون، وشركة الهند الشرقية على ذلك، وعلى ضرب الإسلام بعنف وقد حقق البرتغاليون مخططاتهم باستيطان عدد من الأسر النصرانية الشامية في ساحل مالابار في القرن الرابع عشر الميلادي... فكانوا إذا استعمروا بلدا من البلاد، أو مقاطعة من المقاطعات يأسرون الحكام، ويوفدونهم مع أبنائهم إلى «لشبونة» حيث يتم تنصيرهم نهائيا.

ولم يقتصر قساوسة البرتغال على نشر دينهم فحسب، بل تدخلوا في شؤون غيرهم تدخلا سافرا... فكانوا يمنعون غير النصارى من أداء الفرائض ويهدمون مساجد المسلمين... وإذا أبى مسلم أن يعتنق النصرانية فكروا في قتله...

كما أن الإنجليز حققوا مخططاتهم بالتقرب إلى بلاط: «أكبر»، «وسليم» وقصور الأمراء، وحصلوا بهذا التقرب على تسهيلات عديدة استولوا بها على مديريات تقع في ضواحي «هوجلى» وأغروا الناس على قبول النصرانية بالمال، ومن كان يتنصر يرسلونه إلى «لندن».

وبالإضافة إلى المدارس التبشيرية فقد كانوا ينشرون المجلات والجرائد والكتب التي تشكك في دين الإسلام، ويكتبون أن الإسلام انتشر بالسيف، وأن معاني القرآن غير متطابقة مع معاني التوراة والإنجيل، ولهذا لا يعد القرآن كتاباً إلاهياً...

كانت هذه النشرات المضللة تصل إلى المسلمين في البيوت، وفي النوادي وفي المساجد، ويقف القساوسة خطباء في الشوارع العامة وأماكن الاجتماعات ليشرحوا للناس مالم يفهموه، وقد أثر هذا بكل أسف في المسلمين فقد تنصرت أيضاً، بعض الأسر، وأظهرت بعض الأسر استعدادها للتنصر، ومن الذين تنصروا آنذاك، «عماد الدين الباني بتى» مع أولاده وأبوه وأخوه خير الدين...

---

(21) لقد صدق مولانا أبو الكلام آزاد، «وزير المعارف الأسبق في الجمهورية الهندية» حينما قال : «وكل ما حدث من فساد وزيغ في كل عصر وعهد، كان مصدره علماء السوء، ولا داعي إلى توجيه اللوم إلى الدهر.

(22) أنظر ترجمته في «حاضر العالم الإسلامي» ص : 300 ـ 4/309.

(23) في عهد أحمد السرهندي عصر الأمبراطور المغولي جلال الدين أكبر (964 ـ 1014 هـ)، بلغ من سوء الحال أن إسم خاتم الأنبياء عليه السلام أصبح مهجورا، ومنع الناس من أن يتسموا به، وإذا تسمى به أحد يؤمر باستبدال اسمه !!!

(24) ولد في «سر هنده» في عام 971 هـ في أسرة عريقة في العلم والدين، وترعرع في حضانة والده الجليل، وتربى في جو ديني رباني.. قضى زهرة شبابه في تلقي العلوم الشرعية والارتشاف من منابع الدين.. وقد أثنى عليه شهاب الدين السيد محمد الألوسي صاحب «روح المعاني» والعلامة الفقيه المحقق محمد أمين المشهور بابن عابدين صاحب «رد المحتار». كما أن العلامة الشهير عبد الحكيم «سيالكوتي» نوه بجهاده، وعلمه، ولقبه، بمجدد الألف الثاني. فسار مثلا، وعرف به في الناس.

في هذا الوقت العصيب ظهر الشيخ محمد آل حسن الموهاني المحامي، فناظر القسيس «بفندر» رئيس البعثة التبشيرية الذي أثار مجادلات عديدة مع علماء الإسلام، وزلزل بذلك إيمان كثير من المسلمين، ولا سيما بكتبه : «ميزان الحق» الذي تم ترجمته من الفارسية إلى الأردية «وطريق الحياة» «ومفتاح الأسرار» فناظره عام 1844 محمد آل حسن الموهاني مناظرة تحريرية وانتهت في فبراير عام 1854، وألف كتابه : «الاستفسار» في الرد على كتاب : «ميزان الحق» «لبفندر» وطبعه عام 1259 هـ.. وظهر الشيخ هادي علي، فألف كتابه : «كشف الاستار» في الرد على كتاب : «مفتاح الأسرار «لبفندر»... وظهر الشيخ محمد رحمة الله الهندي، والشيخ محمد بن قاسم النامونوي مؤسس جامعة دار العلوم في «ديوبند» والشيخ محمد علي المنغيزي الذي ألف «تكميل الأديان» - «ومرآة اليقين» - «والرسالة المحمدية - «ودافع التلبيسات» - «وتصديق المسيح»، والشيخ شرف الحق الذي ناظر في «دهلي القسيس» : «ليفراي»، وناظر في «تعازي فور»... والشيخ أبو المنصور الذي ألف كتاب : «تشويش القسيس» والشيخ ثناءالله الأمر تسري» والدكتور محمد وزير خان، والشيخ محمد بن زين العابدين الذي ألف : «الأنوار الإلاهية في دحض خطأ المسيحية» وكان سبب تأليفه لهذا الكتاب أن المبشر «جيروم كازاڤيه» عندما نال إذنا بالتبشير في شبه القارة الهندية، فتح باب الجدال في مسائل التوحيد، والتثليث، وألوهية المسيح، وصحة الكتب المقدسة فقام زين العابدين بتأليف هذا الكتاب...

وقد نجحت ردود الشيخ رحمة الله ومساعدوه، بدليل قول : «جارسان» «وتاس» «إننا نفهم سبب قبول الهندوسي للإسلام، وهو انه ليس صاحب دين سماوي، ولكننا نعجب من اعتناق النصارى للإسلام...

وقد نشرت الجرائد الأردية : جشمه علم»، حيث ذكرت أحوال النصارى الذين قبلوا الإسلام في أروبا : أنهم اجتمعوا في مسجد المدرسة وأظهروا إسلامهم وأعلنوه، ثم اشتركوا مع المسلمين في الصلاة... ولا يقف عند هذا الحد... فأعجب منه، أن رجلا من سويسرا، اعتنق الإسلام، ولبس الملابس الشرقية وشرع في تبليغ الدين الإسلامي في مدينة «نبديل كهندان» وانه يتنقل من مكان إلى مكان للوعظ والإرشاد في الأماكن العامة، ويشرح معاني القرآن باللغة الأردية. (25)

ولقد رفع المسلمون رؤوسهم إلى أعلى بانتصار الإسلام على النصرانية في المناظرة التي التقى فيها «رحمت الله» في مدينة «أعره» مع القسيس «بفندر» رئيس البعثة التبشيرية، وتناظرا علنا أمام الناس، وقد اعترف «بفندر» أمام الناس بوجود التحريف في الإنجيل وهذه المناظرة مطبوعة في مصر على هامش الطبعات القديمة، «لإظهار الحق».

لقد كان كتاب «إظهار الحق» (26) كتابا عظيما بيَّن بأسلوب واضح، وأدلة مقنعة التحريف اللفظي والمعنوي في التوراة والإنجيل، وبين أن كتب أهل الكتاب قد فقدت قيمتها بظهور القرآن الكريم، وبين أن عقيدة التثليث عقيدة باطلة، وأثبت إعجاز القرآن، وصحة الأحاديث النبوية

---

25) كانت اللغات المعروفة في الهند، عدا لغات الهنود الأصليين ثلاثا : العربية لغة الدين الإسلامي.. والتركية : لغة الأسرة التيمورية.. والفارسية لغة البلاط والدولة.. فوضع «أكبر» لغة «الأوردو» التي تشتمل على كثير من العربي والفارسي والتركي مع الهندي، فسهل التفاهم بين الأمم الهندية. واتسعت هذه اللغة تدريجيا. (حاضر العالم الإسلامي، للأمير شكيب أرسلان ص : 4/305) فاللغة الأردية، واللغة الهندية هي في الأصل لغة واحدة، والهندية الأصل، والأردية الفرع، واللغة الأردية، كاللغة الأزبكية، لغة جديدة لم يمض على وجودها أربعة قرون، وجدت تدريجيا من اختلاط الجيوش الفاتحة بأهل البلاد، وهي من امتزاج اللغة الفارسية والعربية والتركالية. وامتزجت اللغة الفارسية باللغة الهندية بسبب اختلاط أفراد الجيش بأفراد الشعب، وانبثقت من اللغتين لغة جديدة، سميت «بالأردو»، أي الجيش... وعُني مسلمو الهند باللغة الأردية، لأنها توحّد بين جميع الأقوام الإسلامية الموجودة فيها على اعتبار أن فيها كثيرا من العربية والتركية والفارسية، وتكتب بالحروف العربية.. وهي لغة غنية بالأدب نثرا ونظما، كما أنها لغة علمية، إذ كانت الجامعة العثمانية في حيدرآباد دكن تدرس بالأردية كل العلوم والفنون بما في ذلك الطب.

26) ترجم لرحمة الله ابن خليل الرحمن الهندي صاحب «إظهار الحق» أحمد بن الخير بن عثمان بن علي جمال العطاء المكي الاحمدي الهندي في معجمه. (فهرس الفهارس ص 2/100) وانظر الهداية الاحمدية في الذرية الجددية للشيخ المذكور..

المروية في كتب أهل السنة والجماعة، وأثبت نبوة محمد عليه السلام، ودفع مطاعن أهل الكتاب على الإسلام، ونبي الإسلام... وعلى كل «فإظهار الحق» كتاب عظيم جمع فأوعى، ومؤلفه ما ادخر جهدا في سبيل توضيح الحقائق وتبيانها... وقد طبعته وزارة الشؤون الإسلامية في المملكة المغربية في مطلع الستينيات، كما طبعته «دار التراث العربي للطباعة والنشر» عام 1977 بتقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أحمد حجازي السَّقّا.

☆ ☆ ☆

إن علم الحديث، والسنة النبوية لم تنتشرا في شبه القارة الهندية إلا بعد ما ظهر الشيخ عبد الحق (27) الدهلوي، وخلفه بعد فترة الشاه ولي الله الدهلوي وأنجاله الكرام، فاستضاءت شبه القارة الهندية بالكتاب والسنة نوراء وتضوعت مسكا بهما الغبراء، كما قال أبو الكلام آزاد (28).

وقد كان نبغ قبلهم في هذه البلاد الشيخ علي المتقي (885 ـ 975 هـ) تلميذ الشيخ ابن حجر المكي صاحب : «كنز العمال» الذي أشعل سراج السنة النبوية، وأزاح بعض ما كان غشيها من دياجير خزعبلات اليونان وخرافاتهم.

ثم الإمام العارف بالله الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي الذي يلقب بمجدد الالف الثاني (29) من الهجرة النبوية، وقف أمام الطواغيت في عصره موقف الجبال الراسيات، فأحيا السنة، وأمات البدعة، ورفع لواء الإسلام، وأعلى كلمته، وقام بما قام به حسين بن علي، وأحمد بن حنبل، وابن تيمية في أزمانهم من إعلاء كلمة الحق، وتجديد الدين المبين، وكان حريصا على اتباع السنة، مولعا بالعمل بها، فكان لذلك تأثيره في رجوع الناس إلى الحديث النبوي ودراسته، حتى نشأت بعد ذلك طائفة، ولو كانت قليلة، من الصوفية المحدثين.

إن بدء الإصلاح كان بجهاد «السرهندي» (تـ 1034 هـ)، والذي شاد بناء التجديد، وكمل بناء الإصلاح الحقيقي هو الإمام ولي الله الدهلوي (30) (تـ 1076 هـ).

كذلك اتفق المؤرخون على أن الإمام ولي الله، لم يتأت له أن يقوم بحركة عملية تأتي بالإصلاح المنشود، وإنما قام بهذه الحركة، وجدد دعوة الإسلام الحقيقية الإمامان الشهيدان والعلمان الشامخان سليلا بيت النبوة، ورضيعا لبان العلم والشرف السيدان أحمد عرفان (31) وزميله وصاحبه الشيخ إسماعيل بن عبد الغني ولي الله وأنجاله الشيوخ الأجلاء... (32).

يقول أبو الأعلى المودودي : أن الشهيدين وحركتهما التجديدية كانت تكملة وذيلا للحركة الإصلاحية العظيمة

---

27) عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي محدث الهند له : «اللمعات، في شرح المشكاة» و«شرح كتاب الصراط المستقيم» لمجد الفيروزآبادي.. قال الأمير صديق حسن في الحطة : «هو أول من جاء بالحديث لأقليم الهند وأفاضه على سكانه في أحسن تدريج، ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق (ت 1073 هـ) وكذلك بعض تلاميذه على القلة (فهرس الفهارس ص 2/125).

28) في تذكرته ص : 377.

29) أنظر : «تذكرة مجدد الألف الثاني» للأستاذ محمد الثاني الحسني الندوي، في ترجمة الشيخ الكبير أحمد بن عبد الأحد السرهندي الهندي.

30) الذين قسموا بلاد الهند، ضموا منطقة «دهلي» وما حولها إلى الدولة الهندوكية، على الرغم من أن «دهلي» ظلت عشرة قرون عاصمة للمسلمين، ومنزل عزهم، ومركز حضارتهم.. وتضم هذه المنطقة وما حولها ملايين من المسلمين، وأن كل ما فيها من آثار عمرانية وأثرية، هو من صنع المسلمين... وقد انتزعت هذه المنطقة من أيدي المسلمين وألحقت بالهند بينما كان الإنصاف والمنطق يقضيان بأن تكون هذه المنطقة تابعة لباكستان، ولو على صورة ممر، لكي يدخل هؤلاء المسلمون في باكستان، ولكي يكون بين شقي باكستان صلة، ولكن الذين فرضوا التقسيم فرضوه بالشكل الذي يريدونه لينفذوا مؤامراتهم التي أخذت تظهر من أول يوم التقسيم، فقد خرجوا من هذا التقسيم بحصة الأسد، إذ أنهم استولوا على أفضل البلاد وأكثرها عمرانا، وأغناها بالآثار، مثل «دهلي» و«أكره»، و«فتحبور سكرى» ذوات الآثار الخالدة، ولا سيما تاج محل، و«قطب سينار» ومسجد «دهلي» الجامع وغيرها، وكلها آثار إسلامية... ودهلي : يقال لها أيضا، دهي ودلي التي هي قاعدة الهند.

31) أحمد بن السيد عرفان الحسني الشهيد، ذلك البطل المومن الذي قاد قافلة الإيمان والتوحيد في بداية القرن الثالث عشر، وتحمل مسؤولية تأسيس الدولة الإسلامية الصحيحة على انقاض الكفر والشرك والفلسفة الغربية التي أتى بها الإنجليز يوم دخل بلاد الهند، وسحر بها العيون والأفكار... ولسماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي كتاب : «سيرة السيد أحمد الشهيد» في مجلدين كبيرين في اللغة الأردية يقع في 1000 صفحة، وهو ترجمة موسعة للإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد في : «بالاكوت» في عام 1246 هـ... وهناك كتاب آخر بعنوان : «الإمامان الشهيدان» بقلم الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي مدير مجلة «البعث الإسلامي» حفظه الله في تراجم وأخبار الإمامين الشهيدين أحمد الشهيد، وإسماعيل الشهيد.

32) لقد تحدث محمد الثاني الحسني الندوي في كتابه : «صادقو صادقبور» عن أولئك الأبطال المومنين الصادقين الذين تبعوا السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في جهوده وجهاده، وكانوا من قاطني بلدة : «صادقبور» ـ الهند.

التي قام بها الإمام ولي الله الدهلوي وجميع هؤلاء كلهم نشأوا ودرجوا قبل الثورة الكبرى.

وهل ننسى، ونحن نحتفل بذكرى مولد الرسول، ذلك الرجل الذي عبق أريج فضله في العرب والعجم، واخترقت معارفه حدود بلاد شبه القارة الهندية والذي جاء في فترة الانحطاط العلمي والفكري الذي أحاط سرادقه بالعالم الإسلامي، وأناخ عليه منذ القرن الثامن للهجرة، وليُّ الله (33) بن عبد الرحيم الدهلوي الذي تلقى المعرفة عن أبيه، ثم تاقت نفسه إلى زيارة الحرمين الشريفين وأقام هناك عامين، وقرأ الحديث على الشيخ أبي الطاهر محمد بن ابراهيم الكردي المدني (ت 1145 هـ) الذي كان عالما نحريرا ومحدثا جليلا يحب ابن تيمية وجلائل أعماله وآثاره كما ذكره صاحب : «جلاء العينين» الألوسي خير الدين نعمان، ص : 26 وتخرج على يده في علم الحديث عام 1143 هـ.

فولي الله كان من عداد أولئك المفكرين المصلحين الذين استنارت بأفكارهم المبثوثة في تفاريق مؤلفاتهم عقول معاصريهم، ومن جاء من بعدهم، وتنورت قلوبهم، وانجلى ما لصق بمرآتها من هذا الشك والجمود وانحل ما انعقد في أذهانهم من مشاكل الزيغ والارتياب.

لقد كان مذهبه معتدلا في الفقه حيث أطلق سراح العقول من ربقة التقليد الأعمى، والإمعان في النظم الإسلامية واستخلاص مناهجها واستخلاص رأيه الناضج الحكيم الجامع في ثناياها وتفاريقها... تجلى ذلك في معظم مؤلفاته إجمالا وتفصيلا، وهذه مؤلفاته : «حجة الله البالغة» والتفهيمات الإلاهية، والمُسَوَّى - والمصفى - والإنصاف، في بيان سبب الإختلاف 34 وإزالة الخفا عن خلافة الخلفاء. «والنوادر، من أحاديث سيد الأوائل والأواخر» (34) و«الجزء اللطيف، في ترجمة العبد الضعيف» (35)، و«القول الجميل، في بيان سواء السبيل» (36)، وإنسان العين، في مشايخ الحرمين» (37)، و«الإنتباه، في سلائل أولياء الله، وأسانيد وارثي رسول الله» (38).. وقد ألف الدهلوي كتبا ثمينة غالية، لا يوجد نظير بعض منها في المكتبة الإسلامية الغنية العامرة... ومؤلفاته الدينية نحو تسعين كتابا في التفسير، أصول الفقه، الكلام - الحديث كأسرار الفقه - المنصور - ترجمة معاني القرآن الكريم، وغيرها من الرسائل التي تحتوى على الحقائق والمعارف مثل : «ألطاف القدس» - «فيوض الحرمين»، «أنفاس العارفين»، و«الفضل المبين، في المسلسل من حديث النبي الأمين» (39) و«مسلسلات ولي الله الدهلوي» (40) والذين تخرجوا من مدرسته كانت جهودهم في سبيل الإصلاح والتجديد فخدموا الكتاب العزيز والسنة النبوية، وعكفوا على دراستها بتآليف كثيرة في التفسير، وتدوين شروح كتب الحديث، وبلغوا في اهتمامهم بالسنة

33) ولد الإمام أحمد المعروف بـ «ولي الله الدهلوي» في بيت جده لأمه بقرية : «بهامت» بمحافظة «مظفر نكر» بولاية : «أترابرديس» بأربع من شهر شوال عام 1114 هـ قبل وفاة السلطان : «أورنك زيب» بأربع سنوات، وهو ينتمي إلى سيدنا عمر بن الخطاب نسبا، وقد نزح آباؤه من بلاد العرب عن طريق إيران إلى الهند، واستوطن واحد من أجداده هو الشيخ شمس الدين المفتي بلدة : «روهتك» التي لا تبعد عن «دهلي» أكثر من ثلاثين ميلا.. وقد نشر اعلام الحديث، وجدد معالمه، حتى سلم له الناس أعشار الفضل، وأنه رئيس المحدثين، ونعم الناصر لسند سيد المرسلين، كما في «اليانع الجني».. قال الأمير صديق حسن في «الحطة، في ذكر الصحاح الستة» في حق المترجم وبنيه : «عاد بهم علم الحديث غضا طريا بعد ما كان شيئا فريا، تشير بذلك كتبهم وفتاويهم، ونطقت به زبرهم ووصاياهم، ومن كان يرتاب في ذلك، فليرجع إلى هنالك، فعلى الهند وأهلها شكرهم ما دامت الهند وأهلها.. (فهرس الفهارس ص : 436، 2/438) كان شاعرا مبدعا، وله قصائد حسنة أو كلمات.

33) مكرر - وهو مسبوق بهذا التأليف، فقد ألف في ذلك ابن السيد البطليوسي الأندلسي وغيره (الفكر السامي ص : 4/182).

34) «فهرس الفهارس» للكتاني ص : 1/106.

35) نفس المصدر..

36) ألفه في الاذكار والطرق القادرية والنقشبندية، والجشتية وأعمالها وأسانيدها (فهرس الفهارس ص : 2/325).

37) المصدر السابق ص : 1/44.

38) قال عنه صاحب : «اليانع الجني» أبو عبد الله محمد يحيى المدعو بالمحسن الترهتي الفريني الهندي : «كتاب نفيس، يرغب فيه الفحول... يرويه الشيخ عبد الحي الكتاني مكاتبة عن الشيخ الصوفي حبيب الله بن صبغة الله الشطاري الحيدر آبادي الهندي عن السيد عبد الله كوجك (الفهرس ص : 1/145).

39) فهرس الفهارس ص : 2/280.

40) مطبوعة بالهند، رواه عبد الحي الكتاني عن والده عبد الكبير عن الشيخ عبد الغني الدهلوي عن أبيه عبد العزيز... «فهرس الفهارس» ص : 77، 2/280.

النبوية وإحياء ما درس من معالمها وكشف كنوزها ودفائنها مبلغا عظيما.

فهذه مؤلفات علماء شبه القارة الهندية المشتغلين بالحديث النبوي، وشروحهم وحواشيهم على مستوى الحديث مبثوثة منتشرة في معظم الأقطار الإسلامية.

ولا ننسى أيضا، الشيخ عبد الحق (41) الدهلوي الذي يعد أول رجل سعى سعيه، في نشر علوم السنة، وبذل الجهد المستطاع في بث معارفها وكان سعيه مشكورا.. فلقد كان للشيخ المجدد، فتلقى علومه في الحرمين الشريفين، وصحب الشيخ عبد الوهاب المتقي (ت 1001 هـ) وقرأ عليه الكتب الستة، فهو الذي أحيا علم الحديث في شمالي الهند، وجعل خزائنه في متناول الناس ليأخذوا منها ما شاؤا، وصنف كتبا كثيرة أجاد في تأليفها حتى أثنى عليه الفقهاء والصوفية معا... واتفقوا على جلالة شأنه، وعلو قدره، ومن أشهر مؤلفاته : «اللمعات» ـ «شرح مشكاة المصابيح»، بالعربية، و«أشعة اللمعات» بالفارسية.

ونجد في الهند من تلامذة الشاه، عبد العزيز (42) الإمام ولي الله، وابن شقيق الشاه عبد العزيز الدهلوي إمام أهل الحديث في شبه القارة الهندية وحامل لوائهم.. وكان من تلاميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي الشاه محمد إسحاق والشاه عبد الغني المجددي (43).

وأهل الحديث يقل نسبهم العلمي بالبيت الدهلوي بطريق الشيخ نذير حسين البهاري الدهلوي المحدث الجليل الذي كان من كبار تلاميذه الشاه محمد إسحاق الدهلوي وهو الذي تبوأ منصب تدريس الحديث في «دهلي» بعد أستاذه، وكانت حلقة دروسه وسيلة في تعميم مذهب أهل الحديث في شبه القارة الهندية.

وفي انتشار كتب الحديث، وطبعها في شبه القارة الهندية نجد أن للعالم الشهيد السيد صديق بن حسن القنوجي (44) البخاري (ت 1307 هـ) يدا عظيمة في نشر هذا العلم (45)، فإنه اتصل بالشيخ حسين بن محمد السبعي الأنصاري اليمني (ت 1327 هـ) تلميذ أبي الشوكاني، واستفاد منه، وأتاح له القدر أن يترك مآت من المصنفات في مختلف العلوم، وكذلك عني بطبع كثير من كتب الحديث النادرة، ونشرها ووزعها بين الناس... ولقد أحصى الدكتور جميل أحمد في كتابه : «حركة التأليف باللغة

---

41) عبد الحق، هو المولوي عبد الحق بن الشاه محمد بن الشيخ يار محمد الهندي الالها بادي المكي، المحدث المفسر، له حاشية على تفسير النسفي، لقيه أبو جيدة الفاسي عام 1194 من القرن الماضي بمكة، وروى عنه المسلسل بالدعاء في الملتزم (معجم الشيوخ، لعبد الحفيظ الفاسي ص : 2/68).

42) عبد العزيز بن أحمد ولي الله الدهلوي (فهرس الفهارس ص : 2/150) (ت 1239 هـ) ألف التصانيف العجيبة منها : «بستان المحدثين» الذي جمع فيه علوم الحديث، وله التفسير المسمى : «فتح العزيز» وله ثبت سماه : العجالة النافعة ألفه في أسانيده (أنظر ترجمته في «اليانع الجني» وإتحاف النبلاء «للأمير صديق حسن، ونهاية الرسوخ» للشيخ شمس الدين الهندي، فهرس الفهارس ص : 2/244).

43) أنظر : «الهداية الأحمدية، في الذرية المجددية» موضوع : آل الشيخ عبد الغني الدهلوي وهو باللغة الفارسية مطبوع بالهند، للشيخ أبي الخير بن عثمان بن علي جمال العطار المكي الأحمدي الهندي، و«فهرس الفهارس» للكتاني ص : 2/152، و«اليانع الجني، في أسانيد الشيخ عبد الغني الدهلوي، هو ثبت لطيف في إثبات المتأخرين.. في جزء لطيف صغير - مطبوع بالهند.. اشتمل الثبت على إسناد الموطأ والكتب الستة فقط... وقد ذيل هذه الأسانيد بكتابة مفيدة عن رجال هذه الكتب ومنزلتها بين كتب الإسلام وتراجم رجال السند، وختمه بتراجم لطيفة للشيخ عبد الغني ووالده وسلفه ومشيخته بالهند والحجاز، وخصوصا آل ولي الله الدهلوي نجوم السنة في الهند.. وقد أنشد عبد الجليل برادة المغربي لقبه :

أيا طالبا علم الحديث مسلسلا
وبالسند العالي المعنعن قد عني
عليك إذا ما رمت تظفر بالمنى
وتجني ثمار العلم بـ «اليانع الجني»

و«اليانع الجني» لابن عبد الله محمد يحى الترهتي الفريقي الهندي...

وقد أجاز أبا جيدة بن عبد الكبير الفاسي المغربي الشيخ دحلان، ومحمد محسن جمال الليل من مكه، ومن المدينة الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي، وابن أخيه الشيخ محمد مظهر (المدهش المطرب، ص : 2/3). وقد لازم الشيخ عبد الغني المذكور، وسمع منه المسلسل بالأولية، وكافة المسلسلات التي «بحصر الشارد، في أسانيد محمد عابد» للشيخ عابد الأنصاري السندي المدني (إيضاح المكنون ص : 3/406) وتلقى منه الطريقة النقشبندية، وقد سمع منه عبد الحفيظ، الفاسي كافة المسلسلات التي سمعها من الشيخ عبد الغنى... قال أبو جيدة الفاسي : أنشدني الشيخ عبد الغنى الدهلوي بالمدينة المنورة، وقد تخلفت عن الدرس لليافعي :

أفلست تدري أن يومك قد دنا
أو لست تدري أن عمرك ينفد
فعلى م تضحك، والمنية قد دنت
وعلى م ترقد، والثرى لك مرقد

مات عبد الغنى بالمدينة المنورة عام 1296 هـ.

44) قنوج : فتح محمد الغوري قنوج 1194، وكانت عاصمة هندية في عهد الغزنويين، وهي سيدة مدن الهند جمالا ونظاما وسعة وعمرانا آنذاك...

45) للأمير أبي الطيب صديق بن حسن خان القنوجي البوهبالي الهندي الأثري : «سلسلة العسجد، في ذكر مشايخ السنه ألفه باللغة الفارسية، وهو شبه الجامع لمروياته عن مجيزه (ص : 2/386 الكتاني).

العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي «مؤلفات القنوجي نزيل بهوبال» باستقصاء وتتبع، وجدها،ما طبع، وما لا يزال مخطوطا، وما كان مجهولا، عديدة جدا... فالمطبوع نحو 45 كتابا، والمخطوط نحو 6 كتب والكتب المجهولة نحو 7 كتب (46)، وكلها في القرآن والحديث، وقد لا نأتي عليها وقد ذكرت في مقدمة كتابه (47).

☆ ☆ ☆

ولا ننسى جهود العلامة «شبلي النعماني» النابغة، والمؤرخ والبحاثة الإسلامي الكبير، والشاعر المفلق، والكاتب المترسل أحد أركان الأدب الأردي الذي كون وحده مكتبة إسلامية قيمة، وقاد حركة التصنيف والتأليف في شبه القارة الهندية، وملأ الجو بكتاباته وخطاباته ومحاضراته ومقالاته وإنتاجاته وتحقيقاته (48).

لقد قام «شبلي النعماني»، ود. سليمان الندوي، بعمل ضخم، وهو تأليف كتاب : «السيرة النبوية» بعرض مزيد، وتحليل دقيق، يقع في مجلدات ضخمة، إلا أن هذا الجهد والإنتاج لم ير النور باللغة العربية، بينما ترجمه الأتراك قبل خمسين عاما، وأعادوا طبعه قريبا..

وللعلامة «شبلي النعماني» عدة تآليف منها : ترجمة «الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي» وترجمة «مولانا جلال الدين الرومي» حيث عني بحياته الصوفية، كما أبرز في كتابه هذا ناحيته الكلامية وفلسفته ونظرياته، إضافة إلى أخبار حياته من الولادة إلى الوفاة.. وله «الفاروق» وهو عصارة ما كتب فيما يتعلق بسيدنا عمر بن الخطاب، منذ قديم حتى يوم الناس هذا، كما أن له كتابا آخر بعنوان : «المامون».

46) قال الشيخ عبد الحي الكتاني : «رأيت لبعضهم أن مصنفات السيد صديق بن حسن بلغت 222، منها أربعون باللغة العربية، و45 بالفارسية، وعددا كبيرا باللغة الهندية (2/388) وقد عد صاحب : «عون الودود، على سنن أبي داود» المترجم له أحد المجددين على رأس المائة الرابعة..

47) «أبجد العلوم» ص : ج/1 ـ ط : أو «الوشي المرقوم، في بيان أحوال العلوم» أعده للطبع، ووضع فهارسه عبد الجبار زكار.. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ إحياء التراث العربي : 51 ـ دمشق 1978.

لقد كان هذا العالم «شبلي النعماني» عالما واسع الثقافة، وكان مشرفا على شؤون التعليم.. وأصدر أول مجلة شهرية باسم «الندوة» بمساعدة وتوجيه مولانا أبو الكلام أزاد، رئيس حزب المؤتمر الهندي قبل استقلال الهند ووزيره المركزي للمعارف بعد الإستقلال..

☆ ☆ ☆

وممن خدم السنة من المتأخرين خدمة لا يستهان بها نور الدين محمد بن عبد الهادي التتوي السندي (49)، والعارف بالله فضل الرحمن بن الشيخ أهل الله الصديقي النقشبندي (ت 1313 هـ) أجل من يحدث عنه في الديار الهندية في هذا القرن (50) والعالم المحدث الأثري أبي الطيب محمد شمس الحق العظيما بادي الهندى نزيل دهلى، (ت 1320 هـ) وقد ذكر في كتابه : «المكتوب اللطيف، إلى المحدث الشريف» مشايخه والسماع والإجازة الخاصة في أهل الهند، وذكر من شملتهم إجازاتهم العامة من أهل الشام واليمن، وهو مفيد جدا، أتمه مؤلفه بمكة عام 1312 هـ، وطبع بالهند (51)، وله أيضا : «نهاية الرسوخ، في معجم الشيوخ (52).

والمحدث الحافظ محي السنة محمد عابد السندي بن الشيخ أحمد بن شيخ الإسلام محمد مراد بن يعقوب الأنصاري الخزرجي السندي من ذرية أبي أيوب الأنصارى صاحب «المواهب اللطيفة، على مسند أبي حنيفة» و«شرح تيسير الوصول» لابن «الديبع»، وشرح : «بلوغ المرام» للحافظ بن حجر، وحصر الشارد، من أسانيد محمد عابد» في مجلد ضخم، وشال الرجا، في شروط الاستنجا (53)، وكان

48) أنظر «حياة شبلي» بقلم د. سليمان الندوي، والكتاب تاريخ خمسين عاما لمسلمي الهند العلمي والأدبي والحضاري والثقافي والإصلاحي والفكري..

49) فهرس الفهارس ص : 1/103.

50) فهرس الفهارس ص : 1/118.

51) فهرس الفهارس ص : 2/28.

52) المصدر السابق ص : 2/93.

53) فهرس الفهارس ص : 1/122. ـ و«ابن الديبع» : الإمام الحافظ اليمني، معناه بلغة السودان الأبيض انظر : «البرق اليماني، في الفتح العثماني» للقطب النهرواني و«تيسير الوصول، إلى جامع الأصول» لابن الديبع، في مجلدين طبع مرارا بالهند ومصر..

أوقف مكتبته في المدينة المنورة، واشتملت على أصول ونفائس عتيقة عليها سماعات اعلام الحفاظ..

والعلامة عبد الحق ابن الشيخ شاه محمد بن الشيخ يار محمد الإلهابادي الصوفي صاحب الحاشية على «تفسير النسفي»... وهو من كبار أصحاب الشيخ عبد الغنى الدهلوي وقدمائهم، ومنه سمع الشيخ أبو جيدة الفاسي أولا حديث الدعاء في الملتزم (54) كما قد منا سابقا.

والعلامة عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوى الأنصاري الهندي خاتمة علماء الهند، وأكثرهم تأليفا، له : «حاشية على موطأ محمد بن الحسن» والأنوار المرفوعة، في الأخبار الموضوعة»، و«رسالة في تراجم فضلاء الهند» (55)، و«إنباء الخلان، بأنباء علماء هند ستان (56)، وعالم الهند، ونظاره أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الأنصارى صاحب : «خير العمل، في تراجم فرنكي محل» (57).

ومحمد بن أشرف ابن آدم النقشبدي السندي له : ثبت يشتمل على أسانيد الأمهات الستة»، و«المشكاة» و«سند حديث الضيافة على الأسودين، روى فيه عن جلة من العلماء، منهم ابن سليمان الروداني المغربي (58)..

والعلامة محمد قيام الدين عبد الباري الأنصاري اللكنوي الهندي (59) صاحب «الباقيات الصالحات في المسانيد والأوائل والمسلسلات (60)..

والشيخ الحافظ محمد حياة بن ابراهيم السندي الأصل المدني المولد والوفاة، أخذ عن أبى الحسن السندي الكبير، له من المؤلفات : «شرح على الترهيب والترغيب» للمنذري في مجلدين، و«شرح على الأربعين النووية»، و«تحفة الأنام، في العمل بحديث النبي عليه الصلاة والسلام (61).

والعلامة المحدث المسند القاضي محمد ارتضا على خان العمري الصفوي المدراسي الهندي (62)، له ثبت سماه : «مدارج الإسناد، عن أحقر العباد» (63) جمع فيه مروياته من طريق شيخه عمر بن عبد الرسول المكي (64). والإمام المحدث رفيع الدين القند هاري العمري، أخذ عامة عن خير الدين السورتي الهندي، والشمس محمد بن عبد الله المغربي (65) المدني آخر تلاميذ البصري له : «أنوار القندهار» (66)، وهي رسالة في التعريف بنفسه وشيوخه وأسانيده، ألفها بالفارسية (67)، مات «بقند هار» عام 1241...

والشيخ أحمد أبى الخير بن عثمان بن علي جمال العطار المكي الأحمدي الهندي صاحب «النفح المسكي، في شيوخ أحمد المكي» لا يكاد يخفى عليه إسم ولا طبقة راو بالمشرق قديما كان أو حديثا، واعتناؤه بالمتأخرين كان أكثر (68)، له : «در السحابة، في صحة سماع الحسن البصري من جماعة الصحابة» و«حصول المنى، بأصول الألقاب والكنى»، و«البركة العامة، في شيوخ الإجازة العامة» (69)، وله فهرس في شيخه مولانا فضل الرحمن الهندي المسمى : «اتحاف الإخوان، بأسانيد مولانا فضل

---

54) فهرس الفهارس ص : 2/128.
55) نفس المصدر ص : 2/129.
56) أي بلاد الهنود، مثل عربستان، وأفغانستان، وطاجيكستان، وأربكستان وغيرها، ولفظ : ستهان الذي خُفّفَ حتى صار : «ستان» معناه باللغة السنكريتية... البلاد...
57) فهرس الفهارس ص : 1/290.
58) نفس المصدر ص : 1/391.
59) نفس المصدر ص : 1/177.
60) وقد تفرد بالأخذ عن جده المعمر محمد عبد الرزاق اللكنوي، و«عين القضاة» اللكنوي، والشيخ محمد حسين الالاه آبادي...
61) فهرس الفهارس ص : 1/264.
62) توفي في البحر بين جدة والحديدة، وهو راجع من الحج عام 270 هـ.
63) وقف عليه الشيخ عبد الحي الكتاني بتونس ومكة. - (فهرس الفهارس ص : 2/22).
64) فهرس الفهارس ص : 1/316.
65) انظر ترجمته في فهرس الفهارس ص : 1/138 وص : 2/225.
66) قندهار : قرية قرب حيدر آباد الدكن من أرض الهند، وهي قلعة الأسكندر، قال بعض علماء الأفرنجة : «ان محمود بن سبكتكين كان اسكندر الإسلام، فإنه فتح الهند، كما فتحها اسكندر، إلا أن فتوحات اسكندر، ذهبت بذهابه.. أما فتوحات ابن سبكتكين فبقيت إلى اليوم، وكان همه من فتح الهند نشر كلمة التوحيد فيه.. وقد ألف الكاتب العتبي تاريخا خاصا بمحمود بن سبكتكين، كما انه مترجم في تآليف كثيرة من أشهرها «وفيات الأعيان» لابن خلكان.
67) فهرس الفهارس ص : 327 /1.
68) المصدر السابق ص : 2/98. - وقد جمع واختصر النفح المسكي محمد عبد الحي الكتاني، وهو في أربع كراريس أتمه عام 1323 تجاه الكعبة بحضرة مؤلفه، والأصل في مجلد واحد...
69) «فهرس الفهارس» ص : 1/179. - ص : 2/99.

الرحمان» مطبوع.. ورسالة في شأن المعمر الواقع في سنه المصافحة من طريق ابن عبد الله الصقلى المغربي (70)..

والشيخ خليل الرحمن بن الشيخ العلامة المحدث الكبير مولانا أحمد على السهارنفوري صاحب الحاشية المعروفة على الجامع الصحيح..

والعالم الكبير، ومؤرخ الهند الشهير، وأديب العربية القدير العلامة الشريف الشيخ السيد عبد الحي فخر الدين الحسنى مؤلف : «نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر» (71) و«الثقافة الإسلامية في الهند» (*) (ت : 1341 ـ 1923م) وهو والد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وقد ألف أبو الحسن كتابا بعنوان : «حياة عبد الحي» بالأردية.

والعلامة محمد ابراهيم اروى كبير علماء أهل الحديث في شبه القارة الهندية.. والشيخ عبد الحق الحقاني من أقطاب علم التفسير والتوحيد... والعالم الكبير الشيخ حبيب الرحمن خان شير واني؛ والخطيب المصقع الشيخ سليمان الفلواري؛.. والعالم الكبير الشيخ محمد شاه المحدث رامبوري..

والعلامة الشيخ عبد الباقي بن على اللكنوي الأنصاري الهندي صاحب كتاب : «الاسعاد، بالإسناد» (72).

والعلامة الشيخ المحدث الشهيد أبو محمد عبد الوهاب الملتاني الدهلوي إمام «جماعة غرباء أهل الحديث» الذي أسس المدرسة العربية الإسلامية : «دار السلام» الواقعة بمدينة كراتشي، والتلميذ للشيخ نذير حسين الدهلوي حامل لواء السنة في الهند...

والعلامة الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت 1978) رئيس أساتذة الأدب العربي في جامعة «عليكرة». ورئيس القسم العربي بجامعة كراتشي وصاحب التاليف والتحقيقات العلمية واللغوية، وإليه انتهت بالهند رئاسة الصدارة في معرفة المخطوطات العربية...

والدكتور مختار الدين، أحمد عميد كلية الآداب، ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة «عليكرة» الإسلامية، ومؤسس وأمين المجمع الهندي (1976) ومجلته، والتلميذ المخلص للأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي...

والحاج أبو محمد عبد الستار الدهلوي الذي حارب البدع في جميع صورها، والذي هاجر، بعد التقسيم وأسرته إلى باكستان وكراتشي بالضبط...

وسماحة الشيخ المفتي الأكبر بالديار الباكستانية والهندية مولانا محمد شفيع دْيُوبَنْدي رئيس دار العلوم ومؤسسها بكراتشي وحجة الإسلام شيخ مشايخ الهند وباكستان السيد محمد أنور شاه الكشميري...

ويجب أن لا ننسى مدينة الربيع الدائم مدينة لاهور (73)، عاصمة البنجاب (74)، التي تحوى كثيرا من العقول المفكرة، ويطلق عليها إسم مدينة العلم بالنسبة إلى باكستان، وكفاها فخرا وشموخا وشرفا عالمها الأوْحَد المجاهد أبو الأعلى المودودي صاحب التأليف العديدة، والبحوث القيمة الحية المعاصرة... والشاعر الكبير أبو الأثر حفيظ الجلندهري مؤلف الشاهنامة الإسلامية... ورئيس الأطباء الأستاذ محمد عالم كيرخان.

☆ ☆ ☆

---

70) اتجر في الكتب الحديثية المطبوعة، فيجلب غريبها للحجاز، وغريب ما في الحجاز للهند. فهرس الفهارس ص : 2/24.

71) في ثمان مجلدات كبار، في تراجم أعيان الهند ونوابغها، منذ أن دخل الإسلام، صبَّ المصنف فيه عصارة ثلاثمائة كتاب في العربية والفارسية والأردية بين مخطوط ومطبوع...

*) ـ راجعه وقدم له أبو الحسن ابنه، 420 صفحة من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق لعام 1983، وتمتاز هذه الطبعة بتذييل للكتاب، وتنويه بالمؤلفات التي ظهرت بعد وفاة المؤلف في شبه القارة الهندية...

72) فهرس الفهارس ص : 1/127.

73) في «صبح الأعشى» فتح أبو المظفر محمد بن الحسين العدري مدينة لهاور (أي لاهور) عام 547 هـ وابن الأثير يقول : 579 هـ. وهو أصح، لأن ذلك كان في زمان ابن الأثير «حاضر العالم الإسلامي ص :4/291» وأدت حملات محمود الغزنوي إلى ضم البنجاب وحاضرته : «لاهور» وكذلك «الملتان» وجزء من السند إلى بلاده قال القنوجي : «استولى السلطان معز الدين سام الغوري على غزنين، وأتى «لاهور»، وقبض على خسرو ملك خَتْم الملوك الغزنوية، وضبط الهند، وجعل دهلي دار الملك عام 589 هـ ومن هذا التاريخ بقيت ممالك الهند في يد السلاطين الإسلامية إلى أن دخلها الاستعمار الكافر... وفي مدينة «لاهور» المتحف الإسلامي» وهو يحوي عددا كبيرا من المصاحف المخطوطة، وقيل بأنه يحوي : 391 نسخة من القرآن الكريم، بالإضافة إلى ما هو مترجم أو مفسر إلى لغات كثيرة، مثل الهندية، واليوغندية، والنجيرية، والمالية، والتركية، والهولاندية، والصينية،.

74) سميت بهذا الاسم الذي معناه : المياه الخمسة بسبب وجود خمسة أنهر فيها، وعاصمتها قديما وحديثا مدينة «لاهور»، وهي من أمهات المدن في شبه القارة الهندية، لا في باكستان وحدها...

ولا يفوتنا، هنا، أن نشير إلى ما للصحافة والمجلات الإسلامية الهندية الهادفة الملتزمة التي صدرت، وتصدر في هذه البلاد، من دور كبير في مقاومة الفكر الغربي، وإعادة ثقة الجيل المسلم بالإسلام، وما له من صلاحية لقيادة وريادة النوع الإنساني في جميع الظروف والأحوال..

ونذكر منها كمثال، مجلة : «ترجمان» للأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله، ومجلة : «الندوة» الشهرية التي أصدرتها ندوة العلماء، منذ عهدها البدائي، ومجلة «معارف» الصادرة من مجمع : «دار المصنفين»، ومجلة «برهان» الصادرة من مجمع «ندوة المصنفين»، وصحيفة «سبح وصدق» للأديب النابغة، والصحفي الكبير البارع مولانا عبد المجيد ريابادي، ومجلة : «دار العلوم» الصادرة من دار العلوم «ديوبند»، ومجلة : «الجامعة» الصادرة من الجامعة الملية، ومجلة «الفرقان» لصاحبها محمد منظوم النعماني، ومجلة : «البلاغ» بمباني.. ومجلة : «تجلى» لصاحبها المرحوم الشيخ عامر العثماني، وصحيفة «الجمعية» اليومية منها والأسبوعية لسان حال علماء الهند، وصحيفة «الدعوة اليومية» للجماعة الإسلامية.. وقد اقترح على الدكتور تقي الدين الهلالي (75) السيد سليمان الندوي إنشاء مجلة : «الضياء» لتدريب طلبة دار العلوم على الإنشاء العربي نطقا وكتابة.

ويصدر «**مجلس تحفظ ختم النبوة**» جريدتين أسبوعيتين تحت رعايته وإشرافه، أولاهما : «ختم النبوة» الأسبوعية الصادرة في كراتشي، وثانيتهما جريدة «لولاك» الأسبوعية الصادرة في «فيصل آباد».

كما تصدر «**جماعة غرباء أهل الحديث**» مجلة دينية نصف شهرية باسم : «صحيفة أهل الحديث» يديرها شيخ الحديث القاري عبد الحكم الجليلي، كما يصدر الشيخ محمد منظور النعماني بلكهنؤ مجلة : «الفرقان» وبلكهنو، أيضا، يصدر أخونا الأستاذ واضح رشيد الندوي مجلته الرائدة : «الرائد» وغيرها من المجلات والصحف والدوريات والحوليات...

إخواني العزاز :

إن هناك علاقة واشجة، ونسبا وصهرا بين مسلمي القارة الهندية، وبين إخوانهم المغاربة، منذ أن دخل الرحالة المغربي ابن بطوطة شبه القارة الهندية، وأسند إليه سلطانها منصب قاضي المسلمين، وتزوج منها، وربط أمتن الروابط بين مسلمي الهند والمغرب.

كما كانت للمغرب صلات قوية أدبية وروحية مع إخوانه العلماء من بلدكم العظيم، ولا سيما أثناء اللقي بالحجاز، بمكة والمدينة، فكثيرا من علماء المغرب، قديما وحديثا، أخذوا إجازاتهم العلمية من علماء الهند، ولا سيما في علوم الحديث، والعكس صحيح..

فلقد لقي أبو جيدة بن عبد الكبير الفاسي عام 1294 هـ من القرن الماضي بمكة عبد الحق الدهلوي، وروى عنه المسلسل بالدعاء في الملتزم (76)، كما أجازه من المدينة المنورة الشيخ عبد الغني ابن سعيد الدهلوي، وابن أخيه الشيخ محمد مظهر، والشيخ أحمد الرفاعي.. ولازم الشيخ عبد الغني، وسمع منه المسلسل بالأولية، وكافة المسلسلات التي «بحصر الشارد» (77)، وتلقى منه الطريقة النقشبندية، وألبسه الخرقة، وكتب له تخريجا على مسلسلات عابد (78).

---

75) الذي دعا الدكتور تقي الدين الهلالي حفظه الله، إلى المشاركة في خدمة دار العلوم الندوية الأستاذ سليمان الندوي عام 1349 هـ. ولاه رآسة أساتذة الأدب العربي فاشتغل بهذه الخدمة إلى شعبان 1352، ؟ أن العالم الطبيب الدكتور السيد عبد العلي بن عبد الحي الحسني، الذي جمع الله فيه الثقافة الدينية والعصرية، والذي خدم ندوة العلماء نحو ثلاثين عاما، ومن مآثره أيضا أنه استخدم مؤهلات قوية للتدريس في دار العلوم، مثل د. تقي الدين الهلالي الذي يرجع إليه الفضل في ترويج اللغة العربية الفصحى. وجعلها لغة تدريس كتابة وخطابة، وقد تخرج على يد الدكتور تقي الدين الهلالي عدد من الكتاب والصحفيين والمؤرخين والأعلام والصدور، مثل العلامة الكبير مسعود الندوي، والأستاذ محمد ناظم الندوي بالإضافة إلى الأستاذ الكبير العلامة المصلح أبي الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله...

76) «المدهش المطرب» لعبد الحفيظ الفاسي ص : 2/68.

77) نفس المصدر ص : 2/3. . و«حصر الشارد» في مجلد ضخم، «فهرس الفهارس» : ص : 2/79.

78) تـ : بالمدينة المنورة عام 1257 هـ.

ومحمد عابد الأنصاري السندي هذا، يروي عن الشيخ حسين المغربي مفتي المالكية بمكة (79).. كما أجاز، أيضا، محمد «عابد» عبد الملك بن عبد الكبير العلمي، وعبد الله بن إدريس السنوسي، وعبد الجليل برادة (80). ونجد أيضا. من المغاربة الذين أخذوا إجازتهم من علماء الهند، بهاء الدين عبد الجليل بن عبد السلام برادة الفاسي (81). الذي أخذ عن كثير من علماء المدينة، فقد سمع الحديث من محدث المدينة ومسندها الشيخ عابد السندي وعمته إجازته، وأجازه، عامة، الشيخ عبد الغنى الدهلوي، وسمع منه مسلسلا لابن ظهيرة وغيرها، والشيخ سخاوت علي الهندي، وسمع منه الأولية، عن محمد إسحاق وأخيه محمد يعقوب، وقد تدبّج مع عبد الكبير الفاسي (82).

والعجب أن أكثر الآخذين عن الشيخ عبد الغني الدهلوي من الهند والمغرب... وأما أهل الشام ومصر واليمن. فلم أقف على من روى عنه منهم (83).

فممن أخذوا، مثلا عن الشيخ عبد الغني من علماء المغرب، شيخ الجماعة بفاس أحمد بناني (كَلاً)، (84) وعبد القادر بن أبي القاسم العراقي الحسيني الفاسي، وعلي بن سليمان الدمناتي دفين مراكش، وأحمد بن عبد الرحمن التملي الروداني، وعبد الكبير بن المجذوب الفاسي، وأولاده أبو جيدة، ومحمد طاهر، وعلي بن محمد بن عمر الدباغ الحسني، وعبد الملك بن عبد الكبير العلمي، وعبد الكبير الكتاني، وإبراهيم بن محمد الكتاني، (85) والعلامة المحدث الأثري السلفي الرحالة أبو سالم عبد الله بن إدريس السنوسي (ت 1350 هـ بطنجة) وهو آخر من حدث عن الشيخ عبد الغني وسمع منه، ومن الذي قبله الأولية، ولقي بمكة الإمام المحدث الأثري محمد نذير حسين بن جواد بن علي الرضوي العظيمابادي الدهلوي، ومحمد بن عبد الرحمن الأيوبي الأنصاري الهندي نزيل مكة، وأجازوه عامة عدا الأيوبي، ونذير حسين، فبالكتب الستة خاصة، وزيادة الموطأ من الثاني حسبما رآه سيدي عبد الحفيظ الفاسي بحظهما في إجازتهما له، (86) ولأهل المشرق عناية بالرواية العالية، والرحلة الواسعة (87) ونجد لذلك مثلا فذا وهو أن الناس قد هرعوا للرواية والإسناد عن العلامة عبد الله السنوسي المذكور يتقدمهم حامل راية الرواية والإسناد في الشرق الشيخ أحمد بن أبي الخير العطار الهندي... (88)

وهكذا رحل إلى الشرق من المغرب جماعة، فاهتبل أهل المشرق بهم، ورووا عنهم، وذكروهم في فهارسهم وتواريخهم، وهم كثيرون كأبي عبد الله محمد بن سليمان الروداني، ويحيى الشاوي، وأبي سالم العياشي، وأبي الرضا محمد المرابط الدلائي، وأبي العباس أحمد بن ناصر وأمثالهم، وكذا من أتى بعدهم، كأبي عبد الله محمد التاودي بنسودة، ومحمد بن عبد السلام الناصري، بل من هو أقل منهم رواية كأبي محمد عبد القادر الكوهن، وأبي العباس أحمد بن الطاهر المراكشي وأضرابهما. (89)

ويروي محمد بن علال الوزاني الفاسي كبير الطائفة الوزانية عن جماعة من المغاربة... ومن المشارقة يروي عن الشيخ عبد الغني الدهلوي (90) ولما حج العلامة المكي البيطاوري الرباطي سمع بالمدينة المنورة المسلسل بالأولية من الشيخ عبد الجليل برادة الذي يروي عن العلماء المحدثين بالهند، وأجازه عامة، (91) أما أبو إسحاق سيدي إبراهيم التادلي فله رواية واسعة بالديار المشرقية منهم عليش المصري، والشيخ جمال الدين الهندي، (92) وقد أجاز الشيخ رحمة الله الهندي علي بن محمد عواد السلوي

---

79) «فهرس الفهارس» للكتاني، ص : 1/270.
80) نفس المصدر ص : 1/272.
81) مات رحمه الله بعد ما عمر عام 1327، راجعا من مكة إلى المدينة، لأسباب سياسية، ودفن ببقيع الغرقد (معجم الشيوخ ص : 2/66).
82) المدهش المطرب : ص : 63 ـ 2/64.
83) فهرس الفهارس ص : 2/155.
84) سلوة الأنفاس ص : 3/27.
85) فهرس ص : 2/155.
86) معجم الشيوخ ص : 2/86.
87) «المدهش المطرب» ص : 2/88.
88) «المدهش المطرب» ص : 2/85.
89) نفس المصدر ص : 2/89.
90) نفس المصدر ص 1/71.
91) المصدر السابق ص : 2/58.
92) المصدر السابق ص : 2/58.

لما حج عام 1292 هـ (93)، كما أجاز محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الزمزمي حبيب الرحمن الردولي الهندي. (94).

ولقي العلامة المحدث السيد عبد الحي الكتاني عشرات من علماء الهند في بلاد الحجاز وغيرها، وأجازوه وأجازهم (95)...

كما لقي شيخ الإسلام المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي عددا لا يحصى من علماء الهند في الحديث والسنة والقرآن فأجازهم، وأجازوه (96).. كما أنه أجاز بدوره علماء المغرب، بما أجازه به علماء الهند...

☆ ☆ ☆

وهذا نموذج من سند العلامة الفقيه سيدي عبد الحفيظ بن الطاهر الفهري الفاسي : «أنه حدثه والده أبو التقى محمد الطاهر، وعمه، والعلامة المسند الخطيب أبو جيدة بن العلامة عبد الكبير الفاسي وخاله الشيخ المحدث الصوفي أبو المكارم عبد الكبير بن محمد الكتاني، والعلامة المعمر المحدث الأثري الراوية أبو سالم عبد الله بن إدريس السنوسي الفاسي... حديث : الراحمون يرحمهم الرحمن... قال عبد الحفيظ الفاسي : أول حديث سمعته منهم في مجالس متفرقة : قالوا حدثنا به محدث دار الهجرة الشريف العارف الراوية المسند الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي الهندي المجددي الفاروقي.. وهو أول حديث سمعناه منه بالمدينة المنورة، حدثنا به الإمام الحافظ المحدث الشيخ محمد عابد الأنصاري السندى المدني...

وأجاز عبد الحفيظ الفاسي، أيضا، المولى محمد محي الدين بن عليم الدين الجعفري الهاشمي الهندي الإلهابادي العالم المحدث. الحديث المسلسل بالرواية (97)، كما روى عن عبد الحق الدهلوي، عبد الحفيظ الفاسي المذكور، وكتب له من مكة (98).. ثم قال : وحدثني العلامة محمد بن جعفر الكتاني، قال : حدثنا به محمد بن علي الحبشي الأسكندري بمدينة فاس عن محمد بن ابراهيم السلوي الفاسي بفاس، عن الإمام المحدث الشيخ محمد بن صالح الرضوي البخاري... وكتب به إلي العلامة المحدث الأثري المولوي محي الدين الجعفري، وهو أول حديث كتب به إليّ من مدينة «الالاه آباد» بالهند، قال : حدثني به الشيخ جعفر بن علي الهندي. الأثري عن محدث الهند، الشيخ محمد إسحاق الدهلوي، دفين مكة (99).

وهكذا اتسم المغرب بربط أواصر العلاقات الطيبة بينه وبين أجزاء من العالم الإسلامي، كما ساهم في ربط الصلات الثقافية بينه وبين بلاد الهند بالذات.. فالشيخ إسحاق المغربي، وهو من طائفة أبي محمد صالح، مدّد سياحته حتى كانت خاتمة مطافه بلاد الهند، وبأحد مدنه كانت وفاته عام 776 هـ، بعد ما ناهز عمره 120 عاما (100).

ولقد كان اتجاه أبي سالم العياشي في رحاب التصوف ذا بعدين مغربي ومشرقي فقد كانت النقشبندية أبرز اتجاهاته التي عرفها أبو سالم العياشي نظرا لاتصاله بشيوخها كبدر الدين الهندي، وجمال الدين الهندي النقشبندي،

---

93) رياض الجنة ص : 2/128.

94) المصدر السابق ص : 1/79.

95) لمعرفة اتصال وعلاقة العلامة عبد الحي الكتاني بعلماء الهند الذين أخذ عنهم وأخذوا عنه، فارجع إلى الصفحات التالية من معجمه «فهرس الفهارس» : 103، 118، 125، 139، 144، 177، 264، 290، 327، 391، 1/316... و 93، 28، 98، 106، 117، 325، 386، 420، 2/436، وقد أجاز بدر الدولة صبغة الله المدراسي الهندي، ثبته ـ الذي ذكره له الشيخ العطار ـ للسيد الكتاني عن ولده المحدث المسند محمد سعيد خان الهاشمي المدراسي عن أبيه بدر الدولة... إص : 1/156، فهرس الفهارس].

وانظر بصفة خاصة ص : 2/154 لترى الهنود الذين روى عنهم العلامة المحدث الشيخ عبد الحي الكتاني.

96) معجم الشيوخ ص : 2/143.

97) «المدهش المطرب» ص : 2/44.

98) المصدر السابق : ص : 2/68.

99) «معجم الشيوخ»، المسمى برياض الجنة ص : 1/76.

100) «نزهة الخاطر، وبهجة المسامع والنواظر» ص : 13، تأليف عبد الحي بن فخر الدين الحسني.. الجزء المنشور منها في تراجم علماء الهند وأعيانها في القرن الهجري... تذييلا على : «الدرر الكامنة» لابن حجر.. ط : دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن 1350 هـ.

وغيرهما من رجال التصوف وقد ذكر انتماءه لهذه الطريقة المشرقية فقال من قصيدة :

ولي وِدادٌ، وعقـــد زانـــه أدب
في النقشبنـدية المَحْمِيَّـةِ السُّبُـل (101)

وكثيرا ما كان يتهادى مسلمو شبه القارة الهندية مع إخوانهم من أبناء المغرب، فقد كانت الهدايا تأتي من الهند إلى المغربي عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الإدريسي المكناسي الحسني نزيل مكة، والذي حج سنة ثلاث وأربعين وألف، وجاور بمكة، وصار أكثر المنتسبين بمكة عيالاً عليه لفرط إحسانه وكرمه (102).

☆ ☆ ☆

أيها السادة :

إن ما قلناه وسقناه عن الحركة الفكرية وعلوم القرآن والحديث ورموزها من الصدور والاعلام لا يعدو بُلْغَة من زاد وافر، ونُغْبَة من فُرَاتٍ زاخر، وإنما أنا هنا فكمن يسعى بالتمر إلى هجر، والخمر إلى دارين.. وغرضي أن أقول قولي هذا لأحيط علما إخواننا المسلمين في هذا البلد الراقي العظيم، بأننا نطلع ونتتبع دائما حركتهم الفكرية، وجهادهم العلمي، وتطورهم التقني ومرابطتهم في سبيل الحفاظ على سنة الرسول، والتمسك بلغة القرآن ونضالهم المستميت في سبيل إحياء السنة عن طريق إقامة هذا المهرجان الضخم الفخم الرائع، بمناسبة طلعة موسم مولد المصطفى على الأمة الإسلامية عموما، وعلى أمتكم الراقية الناهضة خصوصا، والتي يشرق صبحها من جديد فتستيقظ وتعي، وتتآلف وتتعاطف، ثم تتقارب مع الأمة الإسلامية وتتحد، وتُمَلِّك قيادتها رجالا مخلصين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، مما يبشر بأن يستقر بها النظام.. ويطمئن لها السلام، ويصلح عليها الأمر...

أيها السادة العلماء لعلي لا أحتاج إلى أن أنهي إلى شريف علمكم أنه توجد، في الجناح الغربي للعالم الإسلامي، وفي غرب شمال إفريقية وفي بلاد المغرب الأقصى بالذات، دار للحديث الحسنية، وهي مؤسسة عظيمة فريدة في العالم العربي والإسلامي متخصصة في علوم الحديث الشريف وعلوم القرآن، ومؤطرة بكبار العلماء والمحدثين، كان تأسيسها وتدشينها من طرف جلالة الملك الحسن الثاني في عام 1388 ـ 1966.

وتستقبل هذه المؤسسة العلمية الحديثية طلابا من مختلف أقطار العالم الإسلامي ويرعاها حامي العلم والحديث والعلوم الإسلامية جلالة الملك الحسن الثاني...

وهناك دروس حسنية رمضانية مخصصة لدراسة الحديث، يستدعي الملك لها كبار المحدثين والعلماء من بعض الأقطار الإسلامية كتونس ومصر ولبنان وسوريا وقطر والحجاز والسنغال وبعض البلدان الإفريقية، يحضرها جلالة الملك، الذي تقدم له الدروس التي تلقى أمام جلالته، كما يختار من فطاحل علماء المغرب من يشاركون في هذه التظاهرة العلمية الحديثية، وتطبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية هذه الدروس التي تختم في غالب الأحيان بدرس ملكي يلقيه الملك العالم، ويكون هذا الدرس الذي يدل على اتساع الأفق العلمي، وعظيم التفكير، وواسع الإطلاع الملكي محل تعليق العلماء...

وهذه الدروس تنقل إلى العموم مباشرة، بواسطة الإذاعة وشاشة التلفزة، فيشاهدها جميع المغاربة، كما أن اهتمام جلالة الملك بعلم الحديث أنه يكلف وزيره في

---

101) الثغر الباسم ص : 213، والإحياء والانتعاش ص : 135، ـ «وماء الموائد» ص : 449 ـ 1/451، وبدر الدين الهندي له شرح على الشفاء للقاضي عياض، وبدر الدين الهندي امام الحرمين، كان وعاء من أوعية العلم، وصفه العياشي بقوله : «لم ألق بالبلاد المشرقية كلها أقوى منه عارضة في علوم المناظرة وتقريرها... قال العياشي : «كنت كتبت إليه أطلب منه وأفزع إليه أن يلقنني الذكر على طريق السادات النقشبندية، فأنعم بكل ذلك بين المغرب والعشاء في روضة الجنة، بين القبر والمنبر عن باب الوفود، انظر قصيدة العياشي في بدر الدين الهندي في الرحلة ص : 1/452.

102) إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان ص : 5/280 قال المحبي في «خلاصة الأثر» : ولد بمكناسة الزيتون في سنة ثلاث وعشرين وألف... ترجمه أبو سالم العياشي في «ماء الموائد»، وبالغ في الثناء عليه، والمحبي في خلاصة الأثر...

الأوقاف والشؤون الإسلامية بإجراء مباراة في كل سنة، لحفاظ الحديث،وإعطاء قدر مهم، ومكافات مادية مجزية لمن يحفظ قدرا كبيرا من أحاديث الرسول...

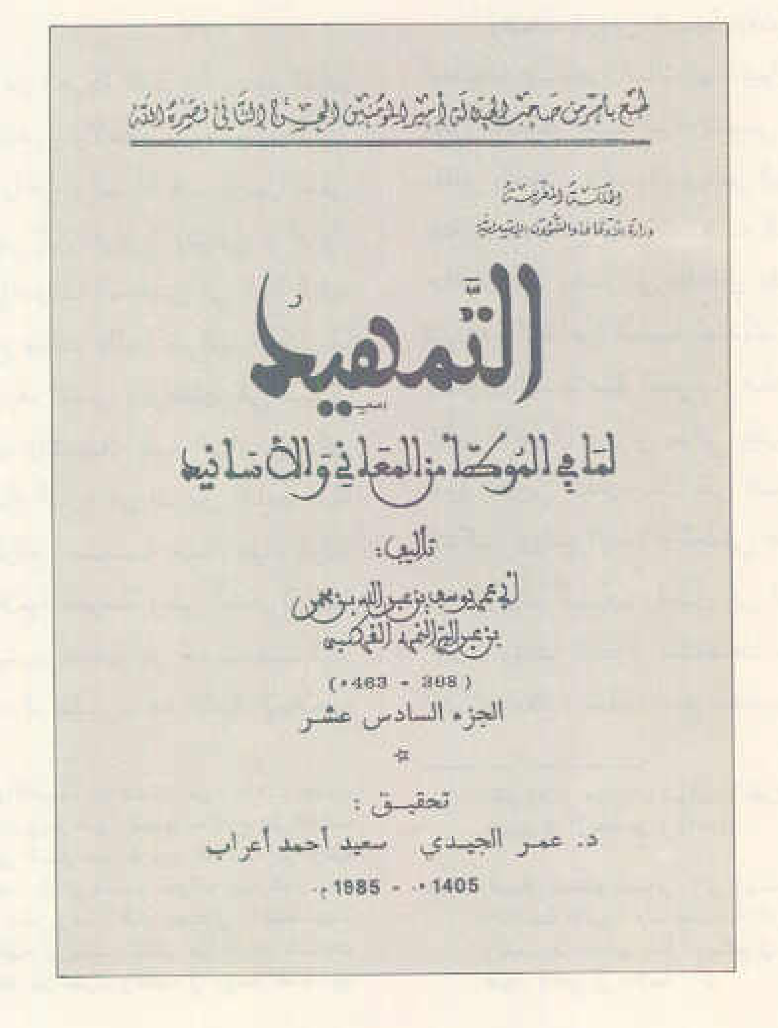
وتتوفر الخزائن السلطانية التي تعد فريدة من نوعها في العالم على آلاف الكتب الحديثية وتحتوي أيضا على ما يزيد عن أربعين نسخة من الجامع الصحيح وحده، وكل نسخة لها قيمتها التاريخية...

☆ ☆ ☆

وإن اهتمام بلدينا الإسلاميين وعنايتهما في هذا العصر العصيب، بالعلوم الدينية والإسلامية عموما، وعلوم القرآن والحديث بصفة خاصة، ودراسة السيرة النبوية المحمدية بصفة أخص، وتشجيع معاهد العلم والعرفان التي تقضي على موجة التشكك والإلحاد، تحت رعاية القائدين الرائدين فخامة رئيس الجمهورية الإسلامية الباكستانية السيد محمد ضياء الحق وجلالة الملك الحسن الثاني، لمما يبشر بمستقبل واعد للإسلام. تتحقق فيه السعادة الراضية والأمل المطمئن، ويدفع الأمة الإسلامية إلى بر السلامة والرخاء، والأمن والإطمئنان، ويبوؤها مقاما ساميا في قمة المجد ورابية الشرف حتى تبلغ إلى ما قدّر لها من التقدم والفلاح والكمال.

وإذا رأيت من الهلال نمــــــــــــــوه،

أيقنت أن سيصيرُ بـــــــدرا كـــــــاملا



المدن الثقافية الإسلامية

4



للدكتور محمد كمال شبانة

إن مدينة فاس التاريخية في المغرب العربي لهي واحدة من درر المدن الإسلامية الثقافية، ولا يضاهي دورها في المغرب الإسلامي سوى القيروان وقرطبة، وكما جاء في «المسالك» للعمري : «أنها تشبه دمشق وغرناطة، وأهلها يشبهون أهل الاسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة، وتغيير المنكر، والقيام بالناموس».

ويعزز هذا القول ما جاء عند صاحب كتاب «جني زهرة الآس»، في أخبار فاس»، من قوله : «قال الحكماء : لا تستوطن إلا بلدا فيه سلطان حاضر، وطبيب ماهر، ونهر جار، وقاض عادل، وعالم عامل، وسوق قائم...».

ويردف صاحب هذا الكتاب قوله ذاك بوصف أبناء فاس : «فلاعتداله اعتدل أهله، فسلموا من شقرة الروم، وسواد الحبش، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين، وكما اعتدلوا في الخلق اعتدلوا في الفطنة والذكاء والعلم...».

فلهذه القيمة التاريخية للمدينة، وحفاظا على تراثها العربي الأصيل، نرى أن فاس كانت نموذج المدينة الإسلامية في مهرجان العالم الإسلامي الذي عقد في لندن في منتصف السبعينات، وقررت منظمة اليونسكو المشاركة في إنقاذها كجزء من التراث الإنساني، ورصدت من أجل إنقاذها 20 مليار دولار، كما وجهت نداء عالميا يلح في العمل على إنقاذها.

والآن... ماذا يقول التاريخ في صدد هذه المدينة تأسيا وتخطيطا ؟ يعزو بعض المؤرخين تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الثاني (192 هـ / 808م) بن إدريس الأول (172 / 175 هـ) اعتمادا على روايات قديمة، ولعل أول من رددها من جغرافي المشرق ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي (1)، ثم تولى ترديد هذه الرواية من لدن الجغرافيين، مثل ما جاء عند أبي عبيد البكري الأندلسي، حين أورد وصفا شاملا لمدينة فاس، فقال : «إن هذه المدينة تتكون من مدينتين مختلفتين، ويحيط بكل منها أسوار، كما يفصلها نهير شديد التيار، وهو يسمى إحداهما «ضفة القرويين» والثانية «ضفة الأندلسيين»، وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية، كما يقرر في وصفه هذا «أن المدينة الواقعة على ضفة الأندلسيين» قد تأسست عام 192 هـ (808م)، وأن مدينة «ضفة القرويين» قد أسست في السنة التالية في عهد إدريس بن إدريس» (2).

ولقد جرى على هذا الوصف - من وجود مدينتين منفصلتين - جغرافيون قدامى، من أمثال اليعقوبي (3) والمقدسي (4) والإدريسي. وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وجدت تفاصيل أكثر عن مدينة فاس في المصنفات التاريخية المغربية، والتي تشير إلى ماذكره المؤرخ ابن أبي زرع مؤلف «روض القرطاس» عن المدينة،

1) لقد جمع الأستاذ يلا شير المستشرق المعروف هذه الروايات في مقال له بعنوان : «فاس عند الجغرافيين العرب في العصور الوسطى» المنشور في مجلة Hesperis هسبيريس ج - 18، سنة 1934، من ص 41 - 48.

2) انظر : «جزائر بني مزغنة» طبعة Desalne الطبعة الثانية، الجزائر 1911م ص 115، طبعة أحدث بالجزائر أيضا 1913م، ص 226.

3) انظر : «صفة المغرب» المأخوذة من كتاب «البلدان» لأحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، نشره M. J. D 2 Goeje طبعة ليدن 1860 ص 19.

4) انظر : «أحسن التقاسيم، طبعة De Goeje ليدن 1906 ص 229.

ونقلها عنه بعدئذ كل من الجزنائي في «زهرة الآس (5)، وابن القاضي في «جذوة الاقتباس» (6).

وقد أورد المستشرق ليفي بروفنسال خلاصة رواية كتاب «القرطاسي» بالإضافة إلى المصنفات التي نقلت عنه، مقتصرا على الجوانب المهمة في الموضوع، (7) قال : «ولد إدريس الثاني في أوليلي، أو على الأصح وليله، في كتلة زرهون الجبلية (جبل زرهون)، بعد وفاة أبيه إدريس الأول بشهرين، وكان موت أبيه حادثا محزنا، لوفاته مسموما على يد رسول خاص، كان قد أوفده الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة 975 (791) أو 177 هـ (793م). وقد تولى رشيد عتيق إدريس الأول ورفيقة المخلص ـ مهمة تعليم الطفل حتى كبر، وصار حاكما سنة 188 هـ (804م) بإجماع قبائل البربر بمراكش، ثم مات رشيد بعد هذا بقليل. وفي نهاية السنة التالية ـ وهي سنة 189 هـ (805م) ـ وجد إدريس الثاني أفواجا من الهجرات العربية تنثال عليه، مما جعل بعضا من مسلمي إفريقية وإسبانيا تأتي إليه لتربط مصيرها بمصيره، حتى ضاق مقامه بوليله عن استيعاب هذا النمو المطرد من السكان، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة للمملكة، وكان أن وجد في سنة 190 هـ (806م) مكانا مناسبا، يقع على السفح الشمالي لجبل زلغ، وبدأ فعلا في بناء المدينة، غير أن عاصفة عاتية مالبثت أن حطمت الأساس... والمعدات، فوقف دولاب العمل.

«وفي السنة التالية ـ عند مطلع سنة 191 هـ (نوفمبر 806م) ـ قرر إدريس الثاني الاستقرار بجوار الضفة اليسرى لنهر سبو Sebou على مقربة مباشرة من ينابيع خولان ـ الساخنة، حيث استحضر المواد اللازمة للعمل، غير أن مخاوفة من عواقب الفيضانات الفصلية للنهر أجبرته على إهمال مشروعه.

أما المحاولة الثالثة فإنها ستكون أوفر حظا، إذ يختار للمدينة أرضا مغطاة بأعشاب جافة متشابكة ومغمورة بالمياه الجارية، ويعبرها نهير تغذيه ينابيع مجاورة. وهذا الموقع لحظه عمير وزير إدريس الثاني واقترحه عليه، وكان قد اشتراه المحتلون من بربر زناته المنتمين إلى أحزاب منافسه، والمعتنقين للإسلام والمسيحية واليهودية، وحتى لمذهب عبادة النار نفسه. «ثم يأتي إدريس الثاني نفسه ليستقر في هذا المكان، بل ويصدر الأمر ببدء إنشاء المدينة على التحقيق في أول أيام شهر ربيع الأول سنة 192 هـ (4 يناير 818م)، حيث يشرع في بناء حي تخترقه ستة أبواب على الأرض الواقعة على الضفة اليمنى من النهير. أما في الداخل فيبنى مسجدا بجانب الآبار على مقربة من معسكر إدريس الذي يحميه سور من خشب، وقد أصبح هذا الحي أحد أحياء المدينة، وسمى باسم «حي الأندلسيين».

«بعد ذلك بعام على التحقيق ـ بحسب التوقيت الهجري، الموافق 23 ديسمبر سنة 808م ـ شرع إدريس الثاني في تشييد حي جديد مواجه للحي الأول وقد أدى إنشاء هذا الحي إلى إغلاق أسواره لجزء صغير من مجرى النهير، كما أدى إلى امتداده بشكل ملحوظ على الضفة اليسرى من هذا النهير. ذلك الحي من المدينة هو الذي سوف يطلق عليه اسم «حي القرويين» الذي كان يشبه الحي المقابل له في إقامة ستة أبواب أيضا. أما في داخله فنجد الحاكم يأمر ببناء مسجد ما لبث أن أقيمت حوله أسواق وقيسارية وقصر.

«ثم لا يلبث هذا الإنشاء المزدوج الذي قام به إدريس الثاني إلا قليلا حتى يمتلئ بالسكان بسرعة ظاهرة، وذلك بفضل التسهيلات العديدة التي منحها الأمير من وفدوا للاقامة فيه، وإن كان معظم النازحين إلى المدينة الشرقية من البربر، في حين أن أكثر الوافدين إلى المدينة الغربية من العرب، وبسرعة كبيرة تحتفظ بهؤلاء المسلمين وبطائفة ملحوظة من اليهود»، ويأخذ هذا التجمع اسم «مدينة فاس»، ويستقر فيها مع الأمير أسرته وحاشيته. ولم يكن في ذلك الوقت قد تجاوز السابعة عشرة من عمره،

---

5) نشرها وترجمها وعلق عليها A. Bel باسم «زهرة الآس»، وهي تتناول تأسيس مدينة فاس، طبعة الجزائر عام 1923.

6) انظر : الطبعة الحجرية لهذا الكتاب في فاس سنة 1309 هـ.

7) انظر : الإسلام في المغرب والأندلس، تأليف ليفي بروفنسال، ترجمة د. السيد محمود سالم، د. محمد صلاح الدين حلمي، ص 7 ـ 10).

وظـل بهـا إلى سـنـة 187 هـ (812 ـ 813م)، ثم رحـل بعـد ذلك في حملة إلى الأطلس الكبرى عاد بعدها إلى مـدينـة فـاس، ثم غـادرهـا سنـة 199 هـ (814 ـ 815م) متجهـا إلى تلمـان، وبعـد هـذا بثلاث سنوات عـاد إلى عـاصمتـه، التي استقبلت في ذلك الحين حملة قويـة من عسـاكر الأندلس، ممن طردهم الحكم الأول أمير قرطبـة الأموي، وذلك عقب «وقعـة الربض»، وسمح لهم إدريس الثـاني بالقرار في الحي الشرقي. ومنذ ذلك الوقت لم يبرح إدريس مدينة فاس.

«بعـد هـذا بعشرة أعـوام ـ في سنـة 213 هـ (828م) ـ مـات إدريس في ظروف غـامضـة، في فـاس نفسهـا، أوفى وليلة، تاركا مدينته المزدوجة يانعة مزدهرة، كما ترك عنـد وفاته أطفالا كثيرين، كـان منهم على الأقل إثنـا عشر ولـدا تقاسموا أملاكه».

ويعترف ليفي بروفنسال في مساق هـذا الحـديث عن مدينة فاس، بأن رواية صاحب «القرطاس» قد اشتملت على تفـاصيل كثيرة عن كل مرحلـة من مراحل إنشـاء المـدينـة المزدوجـة، وأن هـذا المصـدر ذو قيمـة نـادرة بين المصـادر الأخرى في الموضـوع، حيث ضم المعلومـات الطبـوغرافيـة فيما يتصل بتخطيط الحيين وأبوابهما، وهي معلومـات تكـاد تكون فريدة في بابهـا إذا مـا أضفنـا إليهـا روايـات البكرى التي ألمحنا إليها، ولهذه المعلومات قيمتها التـاريخيـة أيضـا عند القيام بالموازنة بين خريطـة فـاس الحـاليـة بنظـائرهـا التي كـانت لنفس الموقع طوال القرون الأولى من التـاريخ الإسلامي.

كـذلـك يضيف صـاحب «القرطـاس» إلى مـاسبق، أن مـدينـة فـاس قـد نمت من بعـد وترعرعت بحركـة العمـران والمرافق التي استلزمت ذلك، ولكن الحيين اللذين اشتملت عليهمـا المـدينـة كـان لكـل منهمـا مصير لا يـواكب مصير الآخر، نظرا للاضطراب الذي سادهما على مر التاريخ، فهما تـارة متضادان، وتـارة متفقـان، حتى عدت السـنون وجـاء زعيم المرابطين يـوسف بن تـاشفين (400 ـ 500 هـ) ليحطم الحواجز التي تفصلهما، ويوجدهما بصفة نهائيـة في مـدينـة واحدة عام 462 هـ (1069م)، ومنذ ذلك الحين بدأت تستقر هذه المدينة الكبرى في العصور الوسطى، التي لم تلبث أن أصبحت «مركـز الإسـلام في المغرب الأقصى»، زاخرة بمواردها العلمية والصناعية والتجارية.

وتجـدر الإشـارة إلى أن ضفـة القرويين هي (مـدينـة القرويين) الضاحية التي عمرها سكان المغرب الأدنى الذين وفدوا من القيروان، وحيث بنى بهـا جـامع القرويين الـذي أسسته السيدة فاطمة الفهرية، وسنخصص لـه حـديثـا يليق بماله من أثر إسلامي عظيم.

ولقـد تضـاءل مركز فـاس السيـاسي في عصر كـل من المرابطين والموحدين، حيث اتخذ هؤلاء من مراكش عاصمة لهم، حتى أتى بنـو مرين فـأعـادوا لفـاس مجـدهـا الإداري، واتخذوها عاصمة لهم.

وإلى جوار فاس القديمة توجد فـاس الجـديـدة، التي بناها الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبـد الحق المريني عـام 674 هـ (1275م)، وقد أطلقت عليهـا عـدة أسماء كـالمـدينـة البيضاء، والبلد الجديد، والمدينة الجديدة.

إن فاس منذ القديم تحتل مكانة مرموقة من بين مدن المغرب لما ذكرنا، من اتخاذها عـاصمـة للمملكـة فترات من الزمن، وعلى الصعيد الإسلامي فإنها تمثل واحدة من المدن الثقافية الإسلامية، لما اشتملت عليه من جامعة عريقة وهي «جامعة القرويين»، كما سنفصل القول بعدئذ.

من آثارها القديمـة ـ إلى جـانب القرويين ـ مـدرسـة أبي عنـان المريني، وسـاعتهـا الشمسيـة الغريبـة، ومـدرسـة العطارين، ومدرسة المصباحية، ومسجـد الأندلس، وزاويـة إدريس الثاني مؤسس المدينة حيث يوجد ضريحـه، وكلهـا منشآت على الطراز الأندلسي المغربي كأروع آثار فنيـة مـا زالت تحتفظ بروائها.

وتتصل فاس القديمـة بفـاس الجـديـد عبر حـدائق أبو الجنود الغنـاء، وتعتبر أبواب فـاس الجـديـد غريبـة الشكل، كباب الشاكمة، وباب الدكاكين، وبـاب السمـارين. وتوجـد قبور المرينيين على مرتفع يشرف على المدينة الواقعـة في سفح جميل أخـاذ «في جوف صـدفـة من الأسـوار العتيقـة»، وقد دفن بالمدينة ـ وخاصة في أطرافها ـ كثير من علمـائهـا البارزين وقوادها المشهورين، بالإضافـة إلى بعض اللاجئين

السياسين أمثال لسان الدين ابن الخطيب السلماني المعروف (713 ـ 776 هـ)، والذي وصف فاس بقوله :

رعى اللـــه قطرا ينبت الغنى
وآفاقــه ظـل على الـدين ممـدود

نعم العرين لأسود بني مرين، ودار العبادة التي يشهد بها مطرح الجنة ومسجد الصابرين (8).

أم القرى، ومأم السرى، وموقد نار الوغى ونار القرى، ومقر العز الذي لا يهضم، وكرسي الخلافة الأعظم، والجرية التي شقها ثعبان الوادي فما ارتاعت، والأبية التي ما أذعنت إذعانها للإيالة المرينية ولا أطاعت.

أي كلف وكلف، ومتفق ومختلف، ومحاباة وزلف، وقضيم وعلف، وخلف عن سلف، إنما الدنيا أبو دلف (9).

سألت عن العالم الثاني (10)، ومحراب السبع المثاني، ومغنى المغـاني، ومرقص النـادب والغـاني، وإرم المباني (11)، ومصلي القاصي والداني، هي الحشر الأول، والقطب الذي عليه المعول، والكتاب الذي لا يتأول.

بلد المدارك والمدارس، والمشايخ والفهارس، وديوان الراجل والفارس، والباب الجامع من موطأ المرافق، ولواء الملك الخـافق، وتنور المـاء الـدافق، ومحشر المؤمن والمنافق، وسوق الكاسد والنافق، حيث البنى التي نظر إليها عطارد (12) فاستجناها، وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه الحسود، فسترها بالغور وأخفاها (13)، والأسواق التي ثمرات كل شيء إليها قد جبيت، والموارد التي اختصت بالخضر وحبيت، والمنازه المخطوبة، وصفاح الخلج المشطوبة، والغدر التي منها أبو طوبة (14).

بلـد أعـارتــه الحمـامــة طـوقهـا
وكســاه ـ ريش جنـاحــه ـ الطــاوس
فكـأنمـا الأنهـار فيــه مـدامــة
وكـأن سـاحـات الـديـار كئـوس (15)

اجتمع بها ما أولده سام وحام، وعظم الالتئام والالتحام، فلا يعدم في مسالكها زحام، فأحجارها طاحنة، ومخابزها شاحنة، وألسنتها ـ باللغات المختلفة ـ لا حنة، ومكاتبها مائجة، ورحابها متمائجة، وأوقافها جارية، والهمم فيها ـ إلى الحسنات وأضدادها ـ متبارية»، إلى آخر ما وصفها به... (16).

جامع القرويين :

يروى المؤرخون أن هذا المسجد كان في الأصل جامعا صغيرا يطلق عليه «جامع الشرفاء»، وقد أقامه إدريس الثاني إبان حكمه في «عدوة القرويين»، وظل المسجد الصغير على حاله حتى عام 254 هـ، حيث كان في فاس رجل من عرب القيروان يدعى محمد بن عبد الله الفهري، ثم وافته منيته، وترك لابنتيه فاطمة ومريم ثروة كبيرة، فاهتمت فاطمة بجامع الشرفاء، وأنفقت جل نصيبها ـ من تركة والدها ـ في تجديد بنائه وتوسعته، فتضاعف حجمه، وأقيمت له الصومعة التي ما تزال على حالها من التخطيط حتى يومنا هذا، بعد أن أعيد بناؤها على نفس الطراز عندما جرى توسيع الجامع عام 344 هـ، وتبلغ مساحة كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة أمتار، بينما يبلغ ارتفاعها 20 مترا، وهي مكسوة بالقيشاني (الزليج) تعلوها قبة صغيرة.

---

8) مسجد الصابرين : أحد معالم فاس الإسلامية، راجع : مجلة «البحث العلمي» (السنة 12 ـ العدد 24) يناير ـ ابريل 1976.

9) أبو دلف : هو أبو القاسم عيسى بن إدريس العجلي، أمير الكرخ وسيد قومه، وأحد الأجواد من الشعراء كان من رجال الرشيد وابنه المأمون، وقد عقد له الكاتب بن طيفور جزءا خاصا من كتابه (بغداد في تاريخ الخلافة العباسية) عند حديثة عن المأمون، وقد توفى أبو دلف عام 226 هـ. والشطر المذكور اقتباس من قوله :

إنما الدنيا أبو دلف   بين مغزاه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف   ولت الدنيا على أثره

10) ويقصد بالعالم الأول، «الأندلس» يومئذ.

11) إرم المباني : علم المباني.

12) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس.

13) التعبير كناية عن موقع المدينة في السفح المنخفض، وهو حسن تعليل رائع لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا.

14) أبو طوبة : الريح الطيبة.

15) البيتان من قصيدة للشاعر ابن اللبانة يصف فيها جزيرة ميورقة.

16) انظر : «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» لابن الخطيب، تحقيق ودراسة وترجمة للإسبانية، ص 78 ـ 81 نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي (الرباط 1977م).

يقول عبد الرحمن المراكشي في شأن المدينة والمسجد، منوها فيهما بحضارة قرطبة والقيروان ـ حيث سكنها القرطبيون (أهل الربض)، كما قدم إليها في مرحلة أخرى جماعة من القيروان وأقاموا بها :

«مدينة فاس هي حاضرة المغرب، وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، عندما كانت قرطبة حاضرة الأندلس والقيروان حاضرة المغرب، فلما اضطرب أمر القيروان وأمر قرطبة رحل عن هذه وهذه من كان فيهما ـ من العلماء والفضلاء فرارا من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس...، وما زلت تسمع المشايخ يدعونها «بغداد المغرب»، وليس بالمغرب شيء إلا وهو منسوب إليها، وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب...».

يشتمل المسجد حاليا على صحن مغطى مسقوف، يرتكز على أعمدة تعدادها ثلاثمائة وخمسة وستون بعدد أيام السنة، تزينها الأقواس ذات الإشكال المختلفة، فبعضها ذات عقد واحد بينما البعض الآخر متضاعف العقود، وتوجد عند القبة الرابعة أقدم لوحة في الجامع، إذ يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الهجري، وقد سجل عليها أن السيدة فاطمة الفهرية تطوعت ببناء الجامع، وأن الأساس قد حفر في أول رمضان سنة 245 هـ.

وهناك لوحة أخرى بين أفريز القبة المربعة، قد نقشت عليها الوثيقة التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمله عن أمر الملك، العادل، الآمر بالخير والفضل، أمير المسلمين، وناصر الدين، علي بن يوسف بن تاشفين... وكان إتمام ذلك ـ بحمد الله وعونه وتوفيقه ـ في شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة». ومعنى هذا أنه قد أضيفت إلى المسجد زيادات هامة وكبيرة بين عامي 528 هـ و539 هـ. وصنع للجامع محراب ومنبر جديدان، وكما أعيد بناء الأبواب التي تعتبر تحفة فنية رائعة، فقد كسيت الأبواب الخشبية بالنحاس، وأقيم على كل باب قبة صغيرة، ولكل باب من هذه الأبواب الثمانية عشر مقرع ذو حلقة معدنية كبيرة، وتزين واجهة الأبواب صفوف من المسامير ذوات الرؤوس.

هذا، ويتوفر المسجد على خمسة مصادر للمياه، ومنذ القدم والمياه تجرى في الجامع طوال العام، كما تعمه في كافة أرجائه الإنارة الكافية، فقد كانت تكثر فيه السرج، وتغلظ القتائل، لأن في الإضاءة بهاء للدين، وأنسا للمجتهدين، ونفيا لمكانة الريبة، وهداية للسابلة، وتنزيها، لبيوت الله من وحشة الظلام».

ولذلك ترى في صحن الجامع الثريات الكبيرة التي تتفرق في كافة أرجاء المسجد، وفي الوسط ثريا ضخمة، وإلى جانبها ثريا أصغر، يروى أنها كانت في الأصل ناقوسا حمل من إحدى المعارك التي جرت في الأندلس، وكسى الجرس بثلاث حاملات للقناديل، ونقش عليه «وصلى الله على سيدنا محمد... الملك لله... والعزة لله...»، وبالمسجد بعض من الأجراس الأخرى التي حولت إلى ثريات، وكانت قد نزعت ـ بأيدي الجنود المسلمين ـ من أعالي الكنائس القشتالية شمال الأندلس.

ويلاحظ أن منبر المسجد قد صنع من خشب الصندل والأبنوس والجوز، وأن نقوشه مطعمة بالعاج، وبجوانبه زخارف وتوريقات نخلية دقيقة، وهو كغيره من معظم المنابر المغربية ـ متحرك، يخرج عند الخطبة في يوم الجمعة، ثم يعود ـ بعد ذلك ـ ويختفي داخل الجدران طيلة الأسبوع.

هذا، وما أن اكتمل بناء الجامع فيما مضى حتى بدأ يؤدي رسالته، إلى جانب المساجد الكثيرة التي تغطى بها مدينة فاس، من حيث كونها مراكز لتثقيف المسلمين، وتبصيرها بأمور دينهم ودنياهم، شأن معظم مساجد المدن الإسلامية في المشرق والمغرب، والتي لم تكن وظيفتها قاصرة على العبادة ليس إلا، بل تكوين المسلم الصالح تكوينا شاملا للعبادات والمعاملات.

وطبيعي أنه لم يكن في الحسبان عند إنشاء هذا المسجد أنه سيكون له شأن عظيم، وأنه سيصير بمرور الأيام سجلا علميا حافلا لأعداد من العلماء المغاربة وسواهم من الوافدين من عدة أقطار لينهلوا من ينابيع المعرفة، ولا سيما من القارة الإفريقية بحكم صلة الجوار والقربى.

وتمضي فترة على افتتاح جامع القرويين، ويعمر بالمؤمنين لأداء الصلوات شيئا فشيئا، ثم أخذت الدروس

الدينية طريقها إليه،بفضل طائفةمن العلماء والأساتذة أثناء النهار وبين العشاءين، وذلك في علوم التفسير والحديث والفقه، وكذا علوم اللغة العربية، فهكذا استدارت الحلقات العلمية للدروس في هذه المواد، وأضحى المسجد منذ ذلك الحين مركزا علميا بارزا، بحيث استقطب العلماء والطلاب من معظم مساجد المغرب، حتى صارت له القيادة في هذا الميدان العلمي والثقافي.

ولقد حظي هذا المسجد العلمي بعناية ملوك المغرب الذين توالوا على الحكم، فقد أضافوا إليه في بناياته ووسعوا في أرجائه، وذلك تمشيا مع تطور رسالته ونموها، ولم تبخل دولة ـ من الدول التي حكمت المغرب ـ عليه في إمداده بالوسائل الكفيلة بمواصلة رسالته العلمية السامية، ومن ذلك إلحاق خزانة متسعة ضمن العديد من الكتب العلمية، تتصدرها المئات من المخطوطات الثقافية، لعصور توالت ودول انتقضت بين المغرب والأندلس، في شتى فنون المعرفة، بحيث أضحت هذه الخزانة في مجال المخطوطات ـ كما وكيفا ـ من بين أمهات الخزائن في العالم.

وتروى المؤرخات المغربية خاصة أن قاضي القضاة بفاس كان يتولى إدارة شئونها، بحكم أنه كان بمثابة شيخ الجامع الأكبر، فقد كان يشرف على اختيار الأساتذة، ووضع الشروط الواجب توافرها، في راغبي الدراسة من الطلبة، كما يحدد المواد الدراسية، والمؤلفات العلمية التي هي مادة التدريس، بالإضافة إلى إشرافه على منح الإجازات العلمية بالاتفاق مع العلماء المختصين، وتلقيه العطايا مادية وعلمية، للانفاق على العلماء والطلبة.

لقد كان مسجد القرويين ملتقى فكريا لعديد من الشيوخ الفقهاء الذين عاصروا المراحل الأولى من تاريخه، حيث كانوا يمارسون مهمة الوعظ والإرشاد، لا يبتغون من وراء ذلك سوى الأجر والثواب عند ربهم، بالإضافة إلى بعض الدروس العلمية أحيانا. وهكذا أضحى المسجد في العصور المتوالية يعج بكثير من العلماء المرموقين من داخل المغرب ومن الأقطار الإسلامية المجاورة خاصة، حبا في العلم والتدريس، واستجابة لرغبة بعض ملوك المغرب، الذين مدوا يد العون لهؤلاء العلماء، لا سيما في الوقت الذي كانت فيه مدينة فاس العاصمة الإدارية (عصر المرينيين)، وحيث تهيأت للفقهاء الوافدين وسائل الإقامة إلى جوار القرويين، فأضحوا متفرغين للاشتغال بالعلم والتدريس، وعملوا على رقي النهضة الثقافية بالمغرب، مما كان له أثر واضح في ازدهار جامع القرويين والارتقاء بمستواه التعليمي.

ولم تكن عناية أولى الأمر بالمغرب نحو القرويين قاصرة على الفقهاء والمدرسين سواء ـ منهم المغاربة أو الوافدين...، بل شملت هذه العناية ـ كما أشرنا ـ طلاب العلم المواطنين والقادمين من الأقطار الإسلامية، وكان من الضروري بالتالي ـ وقد تضاعفت أعدادهم بمرور السنين ـ أن تهيأ لهم أسباب المعيشة ووسائل الدرس والتحصيل، وقد كان توفير السكنى لهم قرب الجامع من أهم ما كان يشغل بال القائمين على الأمور العلمية بفاس. وهكذا بدأت فكرة إنشاء المدارس العلمية المشتملة على دور السكنى في الأحياء القريبة من القرويين منذ عصر المرابطين، ففي عام 670 هـ أسست مدرسة الحلفاويين، وفي عام 723 هـ أنشئت مدرسة العطارين، ثم المدرسة المصباحية عام 745 هـ، والمدرسة العنانية، أما في المدن المغربية الأخرى فقد أقيمت مدرسة ابن يوسف بمراكش في عهد المرابطين، وكانت هذه المدارس في مجموعها تشتمل على الخزانات العلمية التي تجمع العديد من المراجع والمصادر في مختلف العلوم.

نظام الدراسة :

لم تكن الدراسة في القرويين في بداية عهودها ذات نظم معينة أو شعب متخصصة، بل كانت تتناول سائر الفنون المعروفة يومئذ، ومعظم العلوم التي تتناولها الكليات الجامعية اليوم، وبالتالي فقد كانت تدرس بها العلوم اللغوية والأدبية، والعلوم الإنسانية، والعلوم الرياضية والطبيعية، ولكن الدراسات الإسلامية هي التي كانت تختص بقدر أكبر، وتحظى باهتمام أعظم، كالتفسير وعلومه، والحديث وعلومه، وأصول التشريع الإسلامي، وعلوم فقه المذهب المالكي، مع اعتماد المؤلفات الأصلية والمشهورة في المغرب والمشرق.

وعندما يلتحق الطالب بهذه الجامعة فإنه كان عليه أن يدرس عدة سنوات قد تصل إلى عشر أو أكثر، يلازم فيها تلقي العلم على مختلف العلماء المتخصصين، وخلال هذه الدراسة يتعرف الأساتذة على طلابهم النابغين، الأمر الذي يخولهم ـ بعد فترة من الوقت يختبرون خلالها معلوماتهم ـ أن يمنحوهم الإجازات العلمية طبقا لتبريزهم وتفوقهم، ويقام حفل خاص توزع خلاله تلك الإجازات التي تجيز لهم حق التدريس،أو شغل الوظائف الرسمية كالقضاء، والعدالة، وأحيانا بعض المناصب الرئيسية كالوزارة أو السفارة، حسب الاستعدادات، والخبرات العامة، فوق الحصول على الإجازة العلمية.

أما الطلبة الوافدون من الأقطار الإسلامية الأخرى، فإنهم بحصولهم على تلك الإجازة يصبحون في وضع يمكنهم من أداء واجبهم نحو أوطانهم، فيعودون إلى بلادهم لنشر الدين وتقلد الوظائف التي تناط بهم في حدود إمكانياتهم العلمية.

وتجدر الإشارة ـ بهذه المناسبة ـ إلى أن جامعة القرويين تضم خزانة علمية كبرى، بحيث تغطي احتياجات العلماء والمدرسين، وتواكب النمو العلمي للطلاب والباحثين، من مصادر رئيسية هامة، ومراجع في شتى ألوان المعرفة، ولاشك في أن العناية التي كان يوليها ملوك المغرب للقرويين كانت تتناول ـ بطبيعة الحال ـ تلك الخزانة التي أوقف عليها هؤلاء الملوك ووزرائهم العديد من الكتب، إلى جانب ما كان يجلب من هذه المصادر من بلاد العالم، حتى غصت الخزانة بآلاف المخطوطات النفسية التي يقل نظير بعضها في المكتبات الوطنية في الخارج، حتى قيل إن تعداد هذه الكتب يكاد يبلغ ثلاثين ألفا، بين علوم وفنون وآداب لمختلف المؤلفين في العصور الإسلامية.

من تقاليد القرويين :

إن طريقة الدرس والبحث في ساحة القرويين تتميز ببعض الخصائص، وذلك فيما يتصل بطريقة تلقى الدروس، حيث كانت تعقد الحلقات الدراسية من حول الأستاذ الذي يعلوها بمنصة خاصة، وفيها يطلب من بعض تلاميذه أن يفتتح الدرس بالبسملة، ثم قراءة النص المراد شرحه في المادة، وبعدها يبدأ الأستاذ في الشرح، وأخيرا يطلب من أحد التلاميذ قراءة ما ورد من نص في الكتاب المقرر، وخلال هذه القراءة يستطرد الأستاذ مع الطلاب بالتعليق والتوضيح أيضا، والاستشكال في بعض المواطن أحيانا، وتلك هي الطريقة التي كان يسير عليها «الجامع الأزهر» في تلك العصور، وهي الطريقة المثلى لهضم المادة والاتيان على جوانب البحث فيها، بما يعمق المعرفة ويؤصلها لدى طالب العلم.

«وهكذا، يبدو كيف استوفى جامع القرويين أسباب نموه وازدهاره، واستكمل وسائل نهضته منذ عهدمبكر، وأثناء فترات متتالية، ومراحل متواصلة، وخاصة منذ عهد الدولة المرينية، حيث توافرت له عناصر الجامعة، وثبتت له الصفة الجامعية، وتحققت له الشخصية المعنوية، وأصبح معها مؤسسة علمية أكاديمية، تذكر في المشرق وغيره من البلاد كما تذكر في المغرب، وتضاهي مثيلاتها من الجامعات الإسلامية المشهورة.

«واستمرت جامعة القرويين عامرة تواصل سيرها الحثيث، متخطية كل الصعاب، ومتحدية كل العقبات، تؤدي رسالتها العلمية والحضارية من جيل إلى جيل، محافظة بذلك على التراث الإسلامي والمد الحضاري ومقومات الشخصية الإسلامية، وأصالة الأمة المغربية، فأنجبت العلماء الأفذاذ، والشيوخ الكبار الذين علموا وكتبوا، ودرسوا وألفوا، ممن تزخر بهم كتب تاريخ المغرب وتراجم رجاله، وتذكرهم الأجيال الماضية والحاضرة، وتخلدهم ـ مؤلفاتهم القيمة، التي كانت وما تزال أهم المصادر والمراجع في البحوث والدراسات الإسلامية (17).

جامعة القرويين حديثا :

حظيت هذه الجامعة ضمن قطاع التعليم في المغرب بعناية أولى الأمر، لتكتسب مظاهر واضحة التقاليد، ولتبرز

---

17) دليل جامعة القرويين ـ إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب (1978م).

لها خصائصها الجامعية بما يواكب حضارة العصر الحديث جهد الطاقة وقدر الاستطاعة، وقد كان أبرز مظاهر التطوير والتجديد هو التنظيم الذي أدخل على سير الدروس لتلائم في مجموعها مستويات الطلاب عامة، وهكذا نرى السلطان المولى محمد بن عبد الله، الذي أصدر منشورا عام 203 هـ (1789م) في صدد هذه الجامعة، وخصص لتدريس كتب معينة بها وتقرير مواد خاصة للدراسة. ثم تلاه السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، الذي وجه خطابا بتاريخ 12 محرم 1261 هـ إلى قاضي القضاة بفاس، وفيه يشير عليه بأن يوجه أنظار المدرسين بالقرويين إلى أن يعملوا ما في وسعهم لمصلحة الطلاب، وتيسير مهمتهم العلمية.

أما السلطان المولى يوسف فقد طلب من العلماء في رمضان 1330 هـ (سبتمبر 1912م) عقب توليه السلطة أن يعدوا له تقريرا حول إضافة بعض المواد في الدراسة، كما أمر بتأسيس «مجلس علمي» توكل إليه أمور الجامعة، ويضم طائفة من علماء القرويين المتمرسين بالشئون العلمية والإدارية.

«وفي 20 جمادى الأولى 1333 هـ (5 - 4 - 1915) وبعد سنة من تأسيس المجلس العلمي وردت رسالة مخزنية تحمل الأمر بجعل الانخراط في صفوف العلماء متوقفا على النجاح في الامتحان، واجتياز مباراة.

«وفي 16 ربيع الثاني 1346 هـ (13 - 10 - 1927م) صدر ظهير يفيد أن رواتب العلماء قد زيد فيها، وأنه قد تأسس بالرباط مجلس أعلى برئاسة السلطان المولى يوسف، وعضوية الصدر الأعظم، ووزير العدلية والأوقاف والحاجب، وتقضي بتعيين أمين ورقيب، وكان يعد المجلس بمثابة هيئة عليا تراقب المجلس العلمي بفاس» (18).

وهكذا... واصلت جامعة القرويين رسالتها في حدود الإمكانيات التي أتاحتها لها الظروف المعاصرة، وخاصة في مرحلة الاستعمار الأجنبي، إلى أن قيض الله لهذه البلاد أن تنال استقلالها عام 1956 بقيادة الملك محمد الخامس، والذي رأى أن يعيد النظر في شئون الدراسة بجامعة القرويين، بحيث تستقطب أكبر عدد ممكن من طلاب العلم من الداخل والخارج، ولتسير الجامعة وفق مقتضيات العصر الحاضر، على أسس منهجية في دراساتها، وحتى تنتهي تلك الدراسات بمؤهلات علمية تتعادل مع مؤهلات الجامعات المناظرة، وليمكن لخريجيها أن يشقوا طريقهم إلى الوظائف المناسبة في الدولة.

مراحل التطوير للجامعة قبل الاستقلال :

«... وفي هذا الصدد صدرت عدة ظهائر وقرارات تتعلق بإدخال التنظيم الجديد على جامعة القرويين.

1 - ففي 26 ذى الحجة 1348 هـ (25 مايو 1930) صدر ظهير شريف يعين المدرسين، ويرتبهم ثلاث مراتب وينفذ لهم رواتبهم.

2 - وفي 10 ذي القعدة 1346 هـ (26 مارس 1931م) صدر ظهير شريف، يسند تعيين الفنون والعلوم المدروسة والتآليف التي تدرس بها للمجلس الأعلى، إلى جانب سن ضابط بتنظيم التعليم، وتحسين طرقه بالقرويين.

3 - وفي 16 ذى الحجة 1342 هـ (14 مايو 1931م) فتحت إدارة المجلس العلمي أبوابها في وجه الطلاب الذين يريدون الانخراط في النظام، ودشنت الدروس النظامية في 8 شوال 1350 هـ (16 فبراير 1931م).

4 - وفي 10 ذى الحجة 1351 هـ (31 مارس 1933م) صدر الضابط المسنون في أحد عشر فصلا، يتضمن تقسيم الدراسة إلى ثلاث مراحل :

أ - ابتدائية، ومدتها ثلاث سنوات.

ب - ثانوية، ومدتها ست سنوات.

ج - عالية، ومدتها ثلاث سنوات، وتحتوي على شعبتين شرعية، وأدبية، وتنتهي بتخويل المتخرج شهادة «العالمية»، وهي أعلا شهادة كانت تمنحها جامعة القرويين.

«كما نص هذا الظهير على تحديد المواد المدروسة، وتعيين الكتب المقررة، وعلى الزيادة في عدد العلماء المدرسين، ورفع رواتبهم، وتحديد مهمة المراتب، والعطل

---

18) المصدر السابق.

الأسبوعية والفصلية، ونظام الامتحانات، والوظائف التي تخولها مختلف الشهادات، إلى غير ذلك من التنظيمات التي كانت من أعظم مكاسب جامعة القرويين في عهد محمد الخامس، وأساسا للمكاسب والإصلاحات التي تمتعت بها هذه الجامعة بعد الاستقلال» (19).

وما أن أشرق فجر الحرية على البلاد، حتى حظيت القرويين بعناية خاصة من ساكن الجنان الملك محمد الخامس، حيث كان قد وعد بمزيد من الرعاية والاهتمام بها، تقديرا منه لهذه الجامعة العتيدة، والتي حفظت للبلاد دينهاالإسلامي ولغتهاالعربيةفيما انصرم من العصور،وهكذا تفضل بزيارة خاصة لمسجد القرويين، وخطب في طلابها وعلمائها مشيدا بدور الجامعة الحضاري، ومؤكدا العزم على مواصلة إصلاحها ورعايتها، وذلك بما يكفل لها أداء رسالتها على أحسن وجه، وقد استهل هذا النظر الكريم بتأسيس لجنة عليا للسهر على إصلاح التعليم بصفة عامة، وجامعة القرويين بصفة خاصة، كما خصصت لها إدارة لرعاية شئونها بوزارة التربية الوطنية، بحيث تشمل معاهدها الابتدائية والثانوية إلى جانب كلياتها، وخصصت لكل هذا الأبنية المناسبة، وبذلك انتقلت الدراسة من المسجد والجوامع التابعة إلى مدارس حديثة مجهزة علميا، مما كان له أكبر الأثر في النهوض بالتعليم الديني في المغرب الحديث.

هذا، وتدخل في نطاق القرويين للتعليم العالي كليات ثلاث على النحو التالي :

1 - كلية الشريعة، ومقرها مدينة فاس.

2 - كلية أصول الدين، ومقرها مدينة تطوان.

3 - كلية اللغة العربية، ومقرها مدينة مراكش.

وقد نالت جامعة القرويين العناية اللائقة بها في وقتنا الحاضر من لدن جلالة الحسن الثاني، حيث كانت في حاجة إلى المزيد من الرعاية والاهتمام، وذلك حفاظا على الثقافة الإسلامية، ونشرا لها في طول البلاد وعرضها.

وفي الخطب السامية لجلالته، والظهائر الملكية، والمراسيم الوزارية التي تستهدف - النهوض بجامعة القرويين ومعاهدها، وتزويدها بالإمكانيات الضرورية، وإعادة النظر في برامجها ومناهجها، وتحديد الدراسات التي تختص بها كل كلية من كليات هذه الجامعة، مما يجدد شبابها، ويعطيها نفسا جديدا يساعد على تخريج العلماء المتضلعين في علوم اللغة العربية، والفكر والحضارة والشريعة الإسلامية، وعلى بعث حركة ثقافية ونهضة علمية شاملة، تنعكس آثارها على التكوين المتين والتثقيف، لتؤدي الجامعة رسالتها التاريخية داخل المغرب وخارجه.

التنظيم الحديث لجامعة القرويين :

وفي هذا الصدد كان جلالته قد أصدر ظهيرا شريفا بتاريخ 12 رمضان 1382 هـ (6 فبراير 1963م)، بإعادة تنظيم جامعة القرويين تنظيما جديدا، يتلاءم وروح العصر الحديث شكلا وتربويا بما يحقق النهوض بهذه الجامعة، ويكتمل معه إطارها العام بمختلف الكليات، ويستجيب لتحقيق الغاية المنشودة منها، بتكوين علماء متخصصين في فروع العلم والمعرفة، يشغلون وظائف عامة في الدولة، يقومون بخلق نشاط فكري وثقافي وحركة علمية في هذا المضمار.

وقد تضمن الظهير المذكور العناصر التي اقتضاها إصلاح الجامعة، وإعادة تنظيمها من جديد، فحدد اختصاصاتها وأهدافها، وأعطاها صبغة المؤسسة العمومية المتمتعة بالشخصية المعنوية، كما حدد الكليات التي تشتمل عليها الجامعة، وهيئة التسيير التي يمثلها مجلس الجامعة، ووضعية رجال التعليم بها، واختصاصات كل كلية، والإجازات الوطنية التي تسلمها.

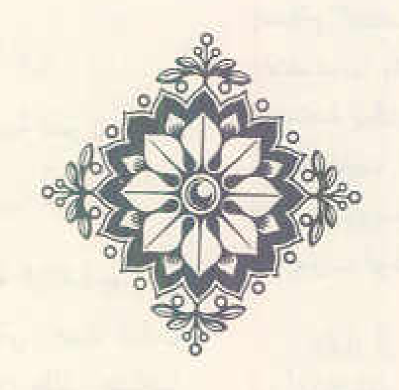
وقبل أن ننهي الحديث عن جامعة القرويين يطيب لنا أن نقتطف فقرات مما سطره بعض الكتاب الأوربيين، الذين نوهوا بالدور الثقافي والإنساني لهذه الجامعة :

19) نفس المصدر.

1 ـ فقد كتب ديلفان في كتابه «فاس وجامعتها» يقول : «مدينة فاس دار العلم بالمغرب، التي بها جامعة القرويين، تعد أول مدرسة في الدنيا».

2 ـ وكتب المستشرق الروسي «جوزي كريستوفيتش» مقالا، ترجمته مجلة الهلال المصرية (ابريل 1956) قال : «إن أقدم كلية في العالم ليست في أوربا ـ كما كان يظن ـ بل في إفريقيا في مدينة فاس، فقد تحقق بالشواهد التاريخية أن هذه المدرسة كانت تسمى «جامعة القيروان» ـ ويقصد القرويين ـ والتي أسست في الجيل التاسع للميلاد، وعليه ليست فقط أقدم كليات العالم، بل هي الكلية الوحيدة التي كان يتلقى فيها الطلبة العلوم السامية في تلك الأزمنة، حين لم يكن سكان باريس وأكسفورد وبولونيا يعرفون من الكليات سوى الإسم، فكان الطلبة يتواردون على كلية (القرويين) من أنحاء أوربا وبريطانيا، فضلا عن بلاد العرب الواسعة للانخراط في سلك طلابها، وتلقي العلوم باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين وغيرهم، ومن جملة من تلقى علومه ـ في هذه المدرسة من الأوربيين ـ جيربرت أو البابا سيلفستر، وهو أول من أدخل إلى أوربا الأعداد العربية، وطريقة الأعداد المألوفة عندنا بعد أن ـ أتقنها جيدا...».

4 ـ وذكر الكاتب البريطاني روم لاند أنه : «شيد في فاس في أيامها الأولى جامع القرويين، الذي هو أهم جامعة وأقدمها، وهنا كان العلماء منذ ألف سنة يعكفون على المناظرات الفلسفية والأبحاث الدينية، وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات، ويشرحون أرسطو وغيره من مفكري الإغريق، وقد تطورت على نحو ما حدث في جامعة السوربون التي كانت أول أمرها تعطي بعض الدروس في اللاهوت، يلقيها أحد الرهبان في حجرة قريبة من نوتردام في باريس، ثم أقام أحد المحسنين منزلا لإيواء الطلبة الفقراء، وهكذا كان الحال في جامعة أوكسفورد وسلامنكا».



من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر

عيسى بن محمد الراسي البطوئي

4

للأستاذ حسن الفكيكي

2) **شيوخ التعليم :**

لم يخف عيسى البطوئي اهتمامه البالغ بشيوخ التعليم، سواء كانوا من أولئك الذين درس عليهم أو من الذين لقيهم بالريف وخارج حدوده، حين أغدق عليهم من فيض عواطفه وعظيم تقديره، ويعنينا من هؤلاء جميعا أن نركز الحديث على ثلاثة منهم من أبناء بطوية، واحد منهم لم يدركه، لكن كانت له صلة وثيقة برفاقه. أما الاثنان الباقيان فمن أبرز شيوخه. فما هي المقاييس التي احتكم إليها في اختياراته.

لا تنكر أن البطوئي كان يرمي من جملة ما كان يرمي إليه، حينما افتتح الحديث عن مدرسيه، إلى إثبات صدق ما كان يكنه لهم في أعماقه من إجلاء ووفاء، إلا أننا من جهة أخرى نرى أنه لم يات بما جاء به في الباب السادس من قبيل الحشو، وهو يعد مختلف الشروط التي ينبغي أن تجتمع في شخص المدرس المثالي.

ويؤيد هذا الرأي، النتيجة التي أسفرت عنها الموازنة بين تلك الشروط من جهة والأوصاف التي أطفاها على شخصياته في باب التراجم فشيخ التعليم بالنسبة إليه هو العالم، والعالم العلامة والأستاذ المدرس والأديب والمحدث والمتفنن والمتجرد. وتجتمع تلك الصفات في التكوين العلمي الذي تنتهي إليه مرتبة الفقيه (1). وحسبنا الآن الانصراف إلى معرفة تلك الشروط :

1) أن يكون العالم عالما بالله وبأحكامه، جامعا لأنواع من العلوم، بما يكفي ليصبح حجة الله في أرضه.

2) العالم هو أيضا ولي الأمر، ذلك أن العلماء ورثة الأنبياء، فهم الذين ينقلون الخبر عن النبي ﷺ، بما هم مكلفون به من متابعة الدعوة إلى عبادة الله واتباع سنة رسوله، ومن هذه الزاوية كان الحرص على نشر العلم بين الناس من أوجب الواجبات الملقاة على عاتقهم.

3) والعالم هو المقتدي بسلوك النبي ﷺ، فبالسير على نهجه يصبح هو بدوره قدوة حسنة، يتأدب بها الناس ظاهرا وباطنا.

4) ينبغي أن تتوفر في العالم من الخصائص الفكرية ما يجعله من ذوي العلم الصحيح والعقل الراجح واللسان الفصيح، كما يتوجب عليه أن يتحلى بجملة من الآداب الأساسية التي تكتسب بالممارسة كالصبر والاحتمال ولزوم الحلم والوقار. وعليه في الأخير أن يبتعد كل البعد عن الافتخار والتكبر بما يعلم.

---

1) يظهر هذا من استشهاده بالخبر عن النبي ﷺ : «إذا أراد الله بقوم خيرا، قيض الله لهم فقيها».

وبالطبع فإننا لن ننتظر من أحد أن يجعل من تلك الشروط معايير جامدة لقياس الكفاءات والأخلاقيات، فهذا هو ما لم يفعله عيسى البطوئي أثناء سحب أوراق اختياراته، وكان في وسعه فقط أن يرسم في ذهنه صورة عامة تنعكس على صفحاتها جهود الأفراد في التحصيل وحرصهم على الاستقامة، مع قبول درجات التفاوت بين الفرد والآخر هذا هو الواضح من خلال النماذج التي قدمها، فمن الملاحظ أن شخصيات المدرسين كانت، علاوة على التكوين العلمي الذي يميزها، من أحسن الناس خلقا وخلقا، وأكثرهم تواضعا ومروءة وصبرا واحتمالا وحياء وصدق لهجة، وأعظمهم خشية لله ومحبة في الله لأهل الدين واحرصهم على التسابق إلى اكتساب الخيره (2).

وفوق هذا كله فإن نظرة عيسى البطوئي للصالحين، تبين أن لشيوخ التعليم مكانة مرموقة داخل المجتمع القروي، تجاوزت دورهم في ميدان التدريس، أتاحت لهم التدخل الجدي السريع، للبحث عن حلول المشاكل الطارئة في الوسط الذي يعيشون فيه.

ونعني بالمشاكل الطارئة، تلك التي كانت تتولد عن محاولة المساس بوحدة القبيلة، حينما تنشب الفتن وينعدم الاستقرار، وتلك التي تهدف إلى إلحاق الاضرار بحرمة التراب الوطني على يد الأجنبي الأوربي، وكان هذا المشكل الأخير حادا بقبيلة قلعية.

هذا هو ما لا حظناه بالفعل أثناء قراءة التراجم. لقد دلتنا على أن شيخ التعليم كان يتصدر الدعوة إلى توحيد ما تفرق من الكلمة داخل القبيلة التي ينتمي إليها، مبادرا إلى إصلاح ذات البين، وإذا تعذر الأمر وجب عليه الوقوف في وجه المعتدي ومساندة الضعيف واستنكار أعمال كل من كانت له يد في تعكير صفو الأمن، إلى حد أنه يصبح طرفا في النزاع، ومثل هذا حدث لأحمد بن إبراهيم الراسي أثناء سيادة الفتنة ببني سعيد.

وكان في وسع البعض من شيوخ التعليم أن يعبروا عن عدم رضاهم عن الوضع السيء الذي صارت إليه أحوال القبيلة، باللجوء إلى الهجرة والفرار من ذوي الشر، حسب تعبير البطوئي، فهذا هو ما قام به الشيخ علي وارث الغساني، حينما هاجر من قلعية إلى بني سعيد أولا ثم حين عودته إلى موطنه لأسباب متشابهة ثانيا.

ولما كانت قضية الوجود الإسباني بمليلة مطروحة بحدة على المستوى الشعبي، إلى غاية تهديد الإسبان للأراضي القلعية في أواخر القرن العاشر الهجري، كان واجب الدعوة لمدافعتهم وصدهم، من مهام شيخ التعليم، وآنذاك لم يكن في الاختيار سوى حل واحد : الحث على الجهاد.

وتلخص دور شيخ التعليم في إيقاظ المشاعر وإلهاب الحماس وتوعية الرجال بالعواقب السلبية التي ستترتب عن الركون إلى التهاون والتخاذل عن حماية الحدود المرسومة بين جنود مليلة ورباط المجاهدين ومواقعهم، وقد عرف بهذا الموقف الشيخ علي وارث الغساني، الذي قدم المثال على ذلك بالمشاركة الفعلية في حركة الجهاد.

بناء على هذه البيانات التمهيدية نرى أن اختيار عيسى البطوئي لشيوخ التعليم من ضمن أهل الفضل والصلاح ينطبق على ثلاثة منهم نستعرضهم على الترتيب التالي :

- أحمد بن عبد الله المديني البطوئي :

نعلم من خلال دراسة أحمد المديني بفاس على ابن غازي المكناسي المتوفى عام 919 هـ، أنه عاش أهم شطر من حياته خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري، والأرجح كذلك أن عمره امتد به إلى ما بعد منتصف القرن، حسبما يستفاد من ميلاد أحد تلامذته الراسيين المسجل قبل

2) هي خلاصة للأوصاف التي يفتتح البطوئي بها ترجمة كل شيخ تعليم.

940 هـ (3). وبقاء البعض منهم أحياء إلى بداية ثلاثينات القرن الموالي (4).

قال عنه البطوئي : «الشيخ الأستاذ فريد دهره ووحيد عصره العالم المدرس المحدث المتفنن». وهذا دال على تكوينه الذي اجتهد لتحصيله في شبابه بمدينة فاس، كما يبين من جهة أخرى دوره كشيخ للتعليم بموطنه الذي لا يمكن أن نعينه بغير «وردان»، إذ أنه فضل بعد التحاقه ببلدته العمل إلى جانب الحاج يحيى الورداني الصوفي المعروف لدينا (5).

وبوردان اختلف إلى مجلسه عدد من الطلبة، لا نعرف منهم سوى أسماء أولئك الذين كانت لهم صلة ببني سعيد، ليشكلوا بعد ذلك نواة تيزي عدنيت، منهم عيسى بن إبراهيم اليزناسني أستاذ علي وارث الغساسي، ثم علي بن سالم الراسي، أحد الطلبة وأحمد بن يحيى الراسي عم المؤلف.

ولا شيء يمنعنا من أن نؤكد أن أحمد المديني، حل مكان أستاذه الورداني للاضطلاع بمهمته كممثل له في التربية الصوفية، بعد أن حصل منه على إجازة في هذا الميدان، وأكثر من هذا أنه أجاز له أن يجيز غيره، وهذا لن يكون إلا بعد وفاة الحاج يحيى.

وعلاوة على ذلك فإن المديني ترك مذكرة في الطريقة الصوفية التي مثلها شيخه، اطلع عليها عيسى البطوئي وقدم لنا خلاصة منها، يتبين من خلالها أن عددا من المريدين كانوا يعرفون بمجرد الانتماء إليها «بالفقراء»، ويتم هذا الانتساب بأخذ «السبحة» وحفظ «الأذكار» وتعلم «الضيافة» «والمصافحة» ولبس «الخرقة».

استمر مركز وردان يقوم بوظيفته في التعليم الديني على يد الشيخ أحمد، ويظهر من خلال بعض الاشارات أن المركز اختفى بوفاة صاحبه. ولا يسعنا أن نقدر تلك الوفاة إلا بسنوات الربع الأول من النصف الثاني من القرن العاشر دون تحديد.

ومما يوحي بضآلة أهمية وردان في ميدان التدريس بعد وفاة المديني، أن أي نشاط لم يظهر على ولد الحاج يحيى المسمى عمر، ولا على يد حفيده المدعو أحمد بن عمر الذي عده البطوئي ضمن فئة الطلبة (6). وسيكون هذا مناسبة لظهور مركز تيزي عدنيت المجاور له في الربع الثاني من نفس القرن حينما التحق به المتصوف أحمد الفلالي وعدد من شيوخ التعليم.

ـ أحمد بن إبراهيم بن أحمد الراسي :

يحتم علينا ما استنبطناه عن الشيخ أحمد الراسي، التنبيه إلى أن ظهوره ببني سعيد كان بدون أي تردد، إحدى الدعائم التي استند إليها وجود مسجد تيزي عدنيت. ولا يتعلق الأمر بظهور كل منهما في أواخر القرن العاشر فحسب، بل بكونه الشيخ الوحيد الذي قضى بنفس المكان مدة تزيد على الأربعين عاما، تمتد من تاريخ عودته من رحلته إلى حين وفاته.

سبق لنا أن عرفنا بمكانته العلمية، حين لا حظنا أنه اتصل بعد مفارقته لموطنه بالمحدث أحمد الفجيجي بتازة، وكانت هذه أول رحلة له خارج بلدته، وعليه استكمل حفظ القرآن وشرع في تعلم القراءات وأخذ جملة من أسس العلوم.

كانت المرحلة الثانية من دراسته، انتقاله إلى تلمسان، حيث ظل متغربا سنين إلى أن سجل لنا البطوئي عودته إلى بني سعيد في تاريخ بقي ثابتا في ذهنه عينه بعام 996 هـ. بعد أن «أصبح عالما علامة متفننا». ومثل رجوعه نصرا وفتحا كبيرين للبطوئي ولسائر بني قبيلته من المتعلمين.

وآنذاك كان مسجد أسرة عيسى، تيزي عدنيت، نقطة بارزة في التصوف الريفي البسيط، باحتضانه منذ بضع

---

3) تقصد به أحمد بن يحيى اليحيوي الراسي، عم المؤلف المتوفي عام 1040 هـ بعد أن عمر أزيد من مائة سنة.

4) نعني علي بن سالم الراسي البطوئي المتوفي عام 1032 هـ.

5) عد إلى ما قلناه عن هذه الشخصية في العدد قبل هذا من نفس المجلة.

6) سنشير إليه في العدد بعد هذا بحول الله في الدراسة التي خصصناها لطلبة مسجد تيزي عدنيت.

سنين خلت للشيخ أحمد الفلالي وفي تلقين مبادئ العلوم الدينية الأساسية. وكثيرا ما كان يتردد عليه الشيخ علي وارث الغاسي من قلعية، ويقصده بعض الغرباء أمثال أحمد بن أبي بكر السوسي (7)، لكن الباع الطويل في هذا الميدان ظل من نصيب أحمد الراسي بفضل طول استقراره في مهمته، وإقباله بدراية ملحوظة وشغف فائق لنشر العلم بالمسجد، مما استحوذ على انتباه البطوئي وهو آنذاك في فتوته الأولى أخذ عنه القراءات القرآنية وعلى الأخص منها قراءة ورش ونافع وجانبا من مبادئ الفقه والحديث.

وعرفنا البطوئي بالوجه الآخر من شخصية أحمد الراسي، بأسلوب يطغى عليه التعميم وغموض واقع الأحداث، حين أشاد بمواقفه التي بذلها في نطاق جلب المصلحة لمجتمعه القروي الصغير. وكانت الفرصة جد مواتية للقيام بذلك الواجب أثناء تسرب بوادر النزاعات والفتنة إلى مختلف جماعات بني سعيد سنة 1030 هـ، كان عيسى الراسي شاهد عيان لها.

بدأت عناصر الفتنة في الانتشار منذ ما قبل 1027 هـ تعرضت خلالها ربوع الريف الشرقي، وعلى الأخص منها قلعية وبطوية فيما نعلم من البطوئي، للمجاعة التي لا نجد أسبابها إلا بالرجوع إلى سوء المواسم الفلاحية السالفة (8). كان من الطبيعي أن تنعكس آثارها بسرعة لتهدد استقرار وأمن المنطقة بأسرها.

فبعد أن سجلت عدة وفيات ببطوية استشرت العداوة بأرجائها، وأسوأ يوم هو ذلك الذي اشتد فيه أسف عيسى الراسي لمقتل نحو الستين شخصا من جبل بني عيسى، في هذا الظرف العسير الذي أحاط بالقبيلة، نعتقد أن الشيخ أحمد الراسي استغل نفوذه «لإرشاد المسلمين وردهم إلى الطريق المستقيم»، محاولا بذلك «إصلاح ذات البين».

ولما كان التوصل إلى هذا الحل غير منتظر لاتساع نطاق الخلاف وعمق آثار الفتنة، لم يسعه سوى التوجه باللوم وإرشاد المثيرين للشغب، وفي الغالب لم يفلح حتى في هذه المهمة أيضا، مما لزم عليه اظهار موقف أكثر حزما. «دأبا عن ضعفائهم من ظلم الظالمين».

وواقع الأمر يصعب علينا أن نقدم تفاصيل أكثر وضوحا عن دور أحمد الراسي خلال هذه الأزمة التي مرت بها قبيلته، استنادا فقط إلى الإشارات العابرة التي كانت تهدف إلى التنويه ببعض الفضائل الإنسانية. فلا يمكن مثلا أن نجزم ما إذا كان اهتمامه بإصلاح الوضع منحصرا في فرقته أولاد الفقيه، وفي ربع أولاد عبد الكريم الذي ينتمي إليه، أم كان عاما تجاوز هذا النطاق المحلي إلى غيره من ارباع القبيلة (9).

وما هو واضح في ذهننا عن أحمد الراسي أن مجموعة من الخصال هي التي كانت من أسباب علو مكانته في نفس البطوئي، مما حثه على تخليدها في بضعة أبيات جادت بها قريحته، قبل وفاة شيخه في يوم الأحد 29 رمضان 1039 هـ، حين قال :

الا يا ابن إبراهيم حزت مفاخرا
علوما وتقوى مع كثير نصيحة
شرحت كثيرا من صدور ظليمة
رفعت كثيرا من نفوس خسيسة
فأصبحت العطشا من فيض بحره
تلوح بأنوار إلى كل جهة
فيا أيها المغرور لازم لبابه
وأمثاله تحظى بنيل السعادة

لك الحمد ربي أن أضاءت بلادنا
بنور العلوم مخمدا للجهالة
ونسألك اللهم أمنا ورحمة
وعفوا جميلا ساترا للإساءة

7) نبذة عن هذه الشخصية بدعوة الحق ـ عدد يوليوز ص 38.

8) يوافق حدوث المجاعة والفتن، قيام الحرب والاضطرابات التي تلت وفاة أحمد المنصور السعدي عام 1012 هـ بين أبنائه الثلاثة أبي فارس والمامون وزيدان.

9) تتألف قبيلة بني سعيد من أربعة أقسام، كل قسم يسمى ربعا وهي : أولاد عبد الكريم، الزعومة، تشوكت، وأمجاو.

ـ علي وارث الغساسي :

أهم شيوخ التعليم والصلحاء الذين حازوا إعجاب البطوئي وإطراءه والاستشار بقلمه. ينتمي بالأصل إلى الأسرة الغساسية الوحيدة التي نعلم ببقائها في قبيلة قلعية، منذ أن غادر السكان مدينة غساسة قبيل استيلاء الإسبان عليها سنة 912 هـ (1506م) (10).

نشأ علي بفرقة «آيت وارث» (اورتين حاليا) من خمس بني جافر، وهي تحتل كديتين صغيرتين «بوحمزة» من جهة الشمال، والكدية الشرقية هي مستقر آيت وارث المعنية خلال هذه الفترة المؤرخة.

ويعود تكامل شخصية علي وارث وحيويتها إلى جمعه بين الثقافة الدينية وجلوسه للتدريس واعتنائه بحل الأزمة التي هددت استقرار القبيلة، وقد سجلت غيرته لصيانة حرمة التراب الوطني ذروة ذلك الاهتمام. وهذه هي السمات التي جعلت منه في نظر البطوئي عالما وأديبا ومدرسا ومجاهدا.

اكتفى عيسى بإخبارنا عن دراسة الشيخ علي، أنه أخذ عن عيسى بن إبراهيم اليزناسني أحد طلبة وردان الذين تخرجوا على أحمد بن عبد الله المديني، وهذا يعني أن الغساسي قضى فترة من شبابه ببطوية بعيدا عن موطنه بقلعية، يسهل عليه ذلك وجود العلاقة الأسرية التي تربطه بوالد البطوئي.

وفي وسعنا أن نطلع على تكوينه العلمي من الموضوعات التي كان يدرسها عليه تلميذه عيسى في أواخر القرن العاشر بتيزي عدنيت، وهي تتألف من حفظ القرآن الكريم وتعلم القراءات، ومن بعض مبادئ العلوم الدينية. ولا نعرف من تكوينه الأدبي إلا بما نعته به تلميذه حين أضاف إليه صفة الأديب.

ونحن مجبرون على ملاحظة أن مقام علي وارث بمسجد تيزي عدنيت للتدريس لم يكن سوى ظرفي فقط، فلم يكن الوقت ليسمح له بالتردد عليه إلا من حين لآخر، حين يضطر لمغادرة بني جافر لسبب من الأسباب، مثلما كان يفعله أبوه من قبله (11).

فإذا كنا نجهل الدواعي التي دفعته إلى الإقامة ببني سعيد عدة سنوات في آخر القرن العاشر، حين واتت البطوئي فرصة التتلمذ عليه، فإننا نعلم أنه غادر قلعية في 1027 هـ إثر تذمره من سوء الوضع الذي آلت إليه القبيلة، نتيجة الأزمة التي ساهمت في إثارتها المجاعة وسيادة النزاعات بين أخماس القبيلة ورجحان كفة جنود مليلة على المقاومة القلعية.

وفي موضوع الجهاد بالذات سرد علينا البطوئي مثالا حيا شارك فيه علي وارث على الأقل بدور الواعظ الآمر بمواصلة الجهاد وعدم التخاذل أمام جنود الإسبان، الذين كانوا غير متوانين للبحث عن التهام المزيد من التراب المغربي الخارج عن أسوار مدينة مليلة.

كان هذا الطموح الإسباني قد تحدد لديهم منذ استيلائهم الأول، لا يفارقهم لحظة من لحظات وجودهم بالمدينة، وتفاقم الأمر إلى حد الخطورة منذ أواخر القرن العاشر الهجري، حينما تمت لهم السيطرة الفعلية على فحص المدينة الغربي المجاور لواد المدور، بواسطة بناء سلسلة من الأبراج الخارجة عن الأسوار.

وقد شكلت تلك الأبراج مواقع متقدمة (12)، غدا استمرارها نقط ضغط قوية على رباط المجاهدين، المقابل آنذاك لمليلة، وعلى المواقع المغربية المنبثة حول «المدور»

---

10) نعرف من هذه الأسر المهاجرة، أسرة الخصاصيين بفاس التي منها سيدي قاسم الخصاصي دفين فاس بباب الفتوح وسيدي مسعود الغساسي دفين غساسة من أحياء ما قبل القرن العاشر. وخصاصة اسم محول عن غساسة (انظر الدر السني ص 338).

11) نستنتج هذا من زواج والد علي بأخت والد البطوئي من بني سعيد، ومن دراسة علي نفسه بالقبيلة المذكورة سنوات من شبابه.

12) بلغ عدد الأبراج إلى بداية القرن الحادي عشر خمسة، شيدت مقابلة لمواقع المغاربة وبجوار مجرى واد المدور، واتخذت نقط دفاع، لحماية الفرسان والرجالة أثناء التراجع الإسباني نحو المدينة.

وعلى التلال الشمالية (13). والظاهر من تقرير البطوئي أن الفتور الذي دب إلى المقاومة، كان قد حدث في سنوات ما قبل 1027 هـ، مشيرا إلى أن البعض من القلعيين أقبل على التعاون مع العدو في غضون تلك الظروف الصعبة التي مرت بها منطقة الريف الشرقي.

ويمكن أن نجد علة ذلك الفتور في موجة المجاعة التي اجتاحت البلاد قبل 1027 هـ (1617م) ليستمر أثرها خلال سنوات تالية. وفي نظر عيسى البطوئي «فإن الله ابتلى المسلمين بالمسغبة حتى باعوا أولادهم للنصارى فضلا عن غيرهم، ابتلاء من الله لميلهم للنصراني» (14).

هذه هي الآونة التي حاول فيها علي وارث أن يجد الوسيلة إلى تدارك ما تردت فيه حركة المقاومة الشعبية، المتمثلة أساسا في الدور الذي يقوم به رباط مليلة لحراسة الحدود (15)، فبادر بالدعوة إلى توحيد الصفوف التي فرقها تفشي النزاعات بين أخماس القبيلة (16)، حاثا القلعيين على ضرورة قطع الصلة بالإسبان، مبالغا في إرشاد الناس لقمع جنودهم.

والراجح أن الغساني لم يفلح في دعوته، والعلة في نظر البطوئي أنه كان وحيدا في ميدانه، لأنه «لم يجد معينا عليهم». ونعتقد أن هذا كان السبب الرئيسي الذي دفعه إلى الهجرة من القبيلة. ليكون ذلك دليلا على التذمر والنفور من المتمادين على الضلال، والاستقرار بجبل بني عيسى من بني سعيد عام 1027 هـ (1616م).

ويبدو أن دعوته لم تذهب سدى، فبعد مضي عام واحد من انتقاله، أكد لنا البطوئي نفسه التئام شمل حركة مقاومة الأجنبي وانهزام الإسبان في ساحة مليلة ليتمكن المجاهدون من استعادة مواقعهم المرابطة حول المدينة. ويقدم هذا المثال بكلماته حيث يقول :

أغار كفار مليلة على القلعية فمكن الله منهم فهلك منهم من بين أسير وقتيل نحو من 220 كافرا (17)، ولم يفلت إلا القليل من الخيل، أما الرجالة فقد استأصلوهم (18)، بعد أن كانوا قد استولوا على جبل قلعية (19)، وذلك عام 1028 هـ ونحن ببطوية بالسكنى، واستشهد يومئذ من المسلمين ثمانية رجال».

هذه هي المعركة التي توصل البطوئي بأخبارها ولم يحضر وقائعها علي وارث الذي مدد هجرته إلى ثلاث سنوات بمكان إقامته، وقد صادف هناك عودة ابن خاله من رحلته التلمسانية، مما أتاح له فرصة الإطلاع على النتائج التي آب بها إلى بلدته، وهناك كانت اللحظة الحاسمة التي ابتهل لها فقيه بني سعيد حين عبر ابن عمته عن كبير تقديره لكفاءته وتشجيعه على التأليف مما سبقت الإشارة إليه في موضوع سابق.

والذي نفهمه من عودة الشيخ الغساني إلى بني بوجافر، علاوة على ما أثلج صدره من أخبار جهاد قلعية، هو اندلاع الفتنة المشار إليها آنفا في ترجمة أحمد الراسي. ونعلم أنه غادر جبل بني عيسى عام 1030 هـ إلى مقر سكناه. ولم يدم مكثه به، فالوفاة أدركته يوم الجمعة آخر صفر من عام 1033 هـ (1626م) ودفن بمقبرة المجاهدين المعروفة آنذاك «بالمنصورة»، مما يلي الشرق وحضر جنازته خلق كثير.

(يتبع)

---

13) تألفت أهم المواقع المغربية من رباط المجاهدين، الذي كان موضعه متواريا خلف كدية تحتلها اليوم قوة ركولاريس Regulares، ومن أغبال، وفج القلالين وغابة القصب وكدية مزوجة وكلها تنتظم على مجرى واد المدور على ضفته اليمنى.

14) جميع الأفكار والنصوص الواردة في هذه الدراسة ولم يشر إلى مصدرها، مقتبسة في الباب السابع ومن الفصل التاسع.

15) تأسس رباط مليلة منذ بداية القرن العاشر الهجري، وكانت مهمته الأساسية هي مراقبة الإسبان ومحاصرتهم داخل الأسوار، ووزعت الحراسة بطريقة النوبة بين أخماس قبيلة قلعية بحصة تصل إلى عشرين مجاهدا، ويدعون بالغزاة وعلى رأسهم مقدم.

16) تتألف قبيلة قلعية من خمسة أقسام : خمس بني شكر، ومزوجة وبني يفرور والكبدة وبني جافر.

17) اعتاد الإسبان الخروج إلى فحص المدينة كل صباح لجلب الماء والعشب والحطب بعدد من الفرسان اختلف عددهم حسب الفترات، يسير وراءهم عدد آخر من المشاة يفوق عدد الفرسان.

18) يدل هذا على أن الإسبان اغتروا بتفوقهم السابق فوقعوا في كمين نصبه المغاربة لهم.

19) لم يسبق الإسبان أن تجاوزوا مجرى واد المدور في وقت من الأوقات قبل 1859م. ولا تعني عبارة البطوئي سوى جولات الجنود بفحص المدينة.

ابن زكري من خلال الوجه المغربي

للأستاذ
بن علي محمد بن زيان

مقدمة :

لم يعد ثمة مبرر مقبول للأعراض عن التعريف بالفكر المغربي السالف ورجالاته، فالتراث ـ وقد شققنا عصا طاعته طويلا ـ أصبح يستلزم منا أن نتودد إليه ونستجيب له أكثر من ذي قبل، بل وأصبح لزاما أن تتوسع دائرة التعامل معه، بحيث لا تحصر بين يدي نخبة معلومة من ذوي الشهادات العالية يستمرئون احتكارها ويستحلونه حتى صاروا مع الزمن فرسان هذا الميدان بلا منازع، وفي المغرب طائفة واسعة من الشباب يأنسون من أنفسهم قدرة عالية على البحث والتنقيب، والجمع والترتيب، والتصنيف والتبويب، ويأخذون من الألفاظ جوهرها المنتقى، ومن العبارات درها المستجاد. واعتقد ـ ونحن نقف على عتبة القرن الواحد والعشرين ـ أننا ـ نحن الشباب ـ لسنا في حاجة إلى كتابة تتورى بعدها خلف أسماء أعيان الكتابة ووجهائها تماما كما فعل أجدادنا من ذي قبل، وإلا فمن حقنا أن نتساءل هنا عن الطريقة التي كان هؤلاء الأعيان يكتبون بها وهم في مطلع حياتهم البحثية علما بأن امتلاك **المعرفة والإمساك بناصية اللغة ليس هبة تعطى دفعة أو** فجأة، ومن هنا أرى ضرورة **تشجيع هذا الجمهور العريض** من الطلبة والمعلمين والأساتذة وكل الذين يهتمون بالمعرفة فتتفتح أمامهم صفحات المجلات والجرائد كيما ينشطوا على منابرها.

ونحن ـ هذه الفئة من الشباب ـ حينما ننادي بضرورة الاهتمام بالتراث، فإننا نربأ بأنفسنا أن نعود إليه لمجرد حب في القديم، أو باعتباره موقفا ارتداديا استخذائيا نتسلى بإنجازاته الباهرة، **أو تفاخر برجالاته العباقرة ولكننا** ـ فقط ـ نؤثر أن ندخل في حوار مستمر مع هذا التراث نستلهم منه ما يمكن أن يفيدنا مستقبلا، وندين منه كل موقف عطل عجلة التقدم، ونرد الاعتبار للأفذاذ المجهولين الذين عبدوا أمامنا الطريق، ونوروا الدروب، ونقوم الباقي لسبب **أو لآخر ولكن بأقلامنا لا بسيوفنا كما ارتأى عمر** بن الخطاب رضي الله عنه، أما أن ننفصل عنه، أما أن نعلن القطيعة دونه، متعللين بمقولات جائرة تربط المصير الإنساني بالحاضر والمستقبل وتناهض ما عداهما وتعاديه، فتلك لعمري محاولة جادة لمسخ هوية الإنسان العربي

وطمس معالم حضارته كمقدمة ليس إلا لما هو أنكى وأهجن ألا وهو إفراغنا من الامتلاء الإسلامي : **وليس إليه** من سبيل سوى صرفنا عن أصالتنا، وبلبلة أفكارنا، وخضخضة مبادئنا تحت شعارات العصرنة، والواقعية، والتقدم...الخ.

وليس الغرض من هذا البحث المتواضع معالجة موضوع واقع الكتابة في المجلات المغربية ولا موضوع التراث كما قد تشي به هذه المقدمة وهي عبارة عن خطرات عارضة حضرتني قبل أن أسبر أغوار حقيقة الموضوع من خلال نفض الغبار عن مصدر مخطوط يحوي بين ألفافه أخبار شخصية فذة في تاريخ المغرب الفكري تلك هي شخصية العالم الموسوعي محمد بن عبد الرحمان بن زكري وباسم الله أبدأ في عرضها.

1) وصف المخطوط :

المقياس : 31 × 22 سم وبمعدل 32 سطرا في كل ورقة و21 كلمة في كل سطر.

الورق : خفيف صقيل، أبيض، تلاشت أطراف بعض أوراقه.

الخط : مغربي، جميل، مقروء، غير مشكول، محلى بالحمرة.

الهوامش : غاصة بالتعاليق وبتحديد تواريخ وفيات بعض الأعلام.

بأول النسخة كما بآخرها بتر بحيث لم يبق منها سوى 104 أوراق متصلة، تبين لي بعد مدارستها وفحصها أنها قطعة مفيدة من كتاب «**تحلية الآذان والمسامع ☆، بنصرة الشيخ ابن زكري العلامة الجامع**» لأحمد بن عبد السلام بن محمد بن أحمد بناني، ومما يشي بذلك قولي متحدثا عن محمد بن عبد السلام بناني «**قبيلته أولاد بناني الذين هم رهط العبد الجامع لهذا التقييد**» وقد ألفه بعد سنة 1213 هـ بدليل قوله : «**...أنشدني شيخنا الفقيه سيدي محمد بن أحمد بنيس رحمه الله تعالى في زمن الطاعون أواخر عام ثلاثة عشر ومأتين وألف لما قلت له...**».

ولعله أن يكون حلى كتابه باسم السلطان مولاي سليمان وأهداه إليه لقوله عند كلامه عن المجد الذي بالديوان من حومة الصاغة بعدوة القرويين من فاس «**... وكان الموسع لفضائه، والمشيد لبنائه... فخر السلاطين مولانا أمير المؤمنين الشريف الحسني المصدر هذا الكتاب المبارك بذكره**».

2) تصويب لابد منه :

نسبت كل المراجع المغربية (1) كتاب «العرف الشحري في بعض فضائل ابن زكري» لأحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني متكئة في ذلك على النبوغ المغربي للعلامة عبد الله كنون، ويبدو أن هذا الأخير أدرك خطأ هذه النسبة فعاد ليصححها في الطبعات المتتالية من كتابه ومن ضمنها الطبعة الثالثة التي تحت أيدينا. وقد وافق ذلك ما جاء في المخطوطة من أن هذا الكتاب إنما هو من إنتاج تلميذ ابن زكري عبد المجيد الزبادي المنالي المتوفى سنة 1163 هـ وليس من نتاج الغساني ولذا وجب التنبيه.

3)

يستفاد من المراجع المترجمة لابن زكري أن تاريخ ميلاده لا يزال تائها خلف غيوم المجهول، بحيث لم يتمكن أصحابها أن يكتشفوا عنه النقاب ضبطا ولا تقريبا، وأكثر من هذا أنهم اكتفوا بالزهيد القول عن نشأته الأولى ومرباه، فهل معنى ذلك أن المصادر التي حفظت ذكره وأخباره سكتت عنهما أيضا ؟!

إن ما وقع تحت نظرنا من أوراق التحلية ـ علما بأنه مبتور ـ لم يتعرض لاهتماماته ومشاغله ورغباته في الصغر، ولكنه في المقابل أسرف في الحديث عن توقد ذكائه، وقوة عارضته، وإخلاصه وصراحته حتى إن احترافه للدباغة ارتبط بحادثة تتجاوب مع هذا السياق، وبطلها موضع خلاف طبقا لما جاء في المخطوط ونصه «**... ثم إن ما**

تقدم عن الشريف مولاي حمدون طاهر صاحب التحفة من أن سيدي الحاج الخياط الرقعي هو الذي منع صاحب الترجمة - أي ابن زكري - من الحرفة التي كان يحترف بها في صغره وأمره أن يتجرد للقراءة قد يخالفه ما ذكره الفقيه العدل الشريف سيدي محمد الزبادي شقيق العلامة سيدي عبد المجيد شقيق الشيخ رحمهما الله من أن ذلك صدر من الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنهما وكان والده يعني الفقيه ابن زكري ملازما ومصاحبا للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي وكان يحضر مع والده مجلس الشيخ المذكور، فكان يكثر السؤال من الشيخ والبحث، وكان لصغره يجلس في مؤخر الناس وكان الشيخ يستحسن سؤاله وبحثه وعبارته، فأقامه الشيخ يوما من مؤخر الناس وقدمه وقال له : مثلك لا يتأخر ولم يعرفه، وإنما ذلك لما ظهر له من فطنته وقابليته مع سابقية الازل ثم إنه رأى الشيخ بيده يوما أثر الصبغ فسأل عنه من هو، فقيل له إنه ولد سيدي عبد الرحمان ابن زكري، وقال له والده هو ولدي، فقال له الشيخ : هو يخدم الصناعة، قال : نعم، فقال له : أخرجه من الصنعة ولا تتركه فيها قط فإن مثله لا يليق للصناعة واجعله لقراءة العلم ولك أجره وإن عجزت عن مؤنه فكل ما يخص من مؤنه فعلي والله المستعان، فأخرجه والده عند ذلك من صناعة الدباغة وتركه يقرأ العلم حتى فتح الله عليه وكان منه ما كان بسبب الشيخ وبركته». وقد علق صاحب المخطوط على الحادثة بقوله : «ولا معارضة بينهما لاحتمال اجتماع رأي الشيخين معا على ذلك، إلا أن النسبة إلى الشيخ الرقعي وساداتنا الشرفاء أهل وزان أشهر وأصح والله أعلم» ومهما يكن، فإننا نعتبر الحادثة نقطة تحول غيرت مجرى حياة التلميذ ابن زكري الذي أبدل بساعات الدباغة الطوال ساعات أخرى يقضيها في التحصيل والمطالعة في مسجد عين طلوق أين كان يكب على أوراقه وكتبه والصبيان يلعبون حوله وربما تساقطوا عليه ووثبوا على ظهره وهو لا يشعر بهم.

4) ثقافته وأخلاقه :

إن ما تخلل التحلية من أجوبة ابن زكري، وتعاليقه، ومصنفاته لبرهان أكيد على سعة إطلاعه واستيعابه وتبحره في علوم العربية عامة حتى غدا مصدرا مهما للمعاصرين واللاحقين يستمعون منه أو يقرأون له «... **ففي أي فن من الفنون تكلم تقول هذا فنه المخصوص به الذي أجاد فيه وأربى على من تقدم... وله في النحو والبيان والمنطق وأصول الفقه والدين والتصوف وغير ذلك تقاييد أبحاثها أبحاث التحرير، وأجوبتها أجوبة من دأبه التحرير والتحقت مسائلها بالتحقيق الكثير**» (2) وللتمثيل فقط نورد جوابه على سؤال عن معنى قول القائل :

إذا أكل الجراد حروث قوم
فحرثي همه أكل الجراد

«**معنى البيت المتبادر منه بحسب الظاهر والفحوى لا يستشكل ولا يقصده البلغاء لما فيه من قلة الجدوى، والظاهر أن قائله من أهل الاشارات** المضمنين **إشعارهم لطيف الاستعارات وكأنه يشير إلى معنى قوله تعالى نساؤكم حرث لكم. ويستفاد** منه **حينئذ أن زوجته كانت ذا فاقة وعيال لوصفه إياها بشدة الخوف من أكل الجراد كما يفيده تكرير الإسناد وكون الجملة اسمية المفيد للدوام والثبوت بناء على أن قوله همه بالرفع مبتدأ أما إذا قرئ بصيغة الماضي فلا دلالة في الجملة على الدوام والثبوت على رأي المحققين فإن العادة حاكمة بأن شدة الخوف من غلاء الاسعار الذي سببه أكل الجراد إنما تكون لما ذكر وحسن ترتيب قوله فحرثي همه الخ على ما قبله لتعبيره فيه بجمع الكثرة وبجعل التنوين في قوم للتكثير فيظهر الاستلزام**

العادي بين المقدم والتالي»، ولم يكتف المترجم بهذا الجواب المنثور بل لخص مضمونه في أبيات تماثل الوزن والقافية وهي :

إذا أكـــل الجراد فشــــا بــــأرض
وخيف علـــو أسعـــار البـــلاد
فـــأقوى النـــاس خـوفـا ذو عيـــال
وأولاهم بكـــــد واجتهــــاد
وأحرى من الجميـــع ذوات خـــدر
لهن صبيـــة مـــع ضعف زاد..
كـزوجـــة قـــائـل البيت المعمى
بشــاهـد أن همهـــا ذو زيـــاد
وكـــون الجملـــة اسميـــة دليـــل
لـــذلـــك مـــع تكرر الإسنـــاد
فهي المقصـود بـــاسم الحرث فـــأفهم
مراد ذوي الاشـــارة بـــانقيـــاد
وقـــول نـــأؤكم حرث مفيـــد
لصحـــة مـــا أدعينـــا من المراد

وإذا نحن أضفنا إلى هذا الجواب نقولا اخر في النحو والبيان والحديث والتفسير والمنطق نكون قد وقفنا بحق على ثقافة متميزة تكتسي طابعا موسوعيا عميقا.

أما أخلاقه، فبإمكاننا التفتيش عنها في ديوان أعماله واهتماماته وهي جمعاء تدل على كمال ورعه، وسلامة طويته، وصفاء مودته، وخلوص محبته لآل البيت، ولكثرة محبته فيهم وانحياشه إلى علي جنابهم أوصى بأن يدفن معهم إن أمكن أو بجوارهم على الأقل، وله رضي الله عنه **كلام ذكره في بعض كتبه مداره على هضمه لنفسه واتهامه لها كما هو شأن ذوي الخبرة والبصيرة** ومن جملة ذلك ما قاله فيمن يجهل النعمة ويستعملها في خلاف ما هو المقصد والمرام بادئا بنفسه متهما إياها باتخاذ النعمة حرفة لتكسب الذكر وصناعة للتسبب في الصيت والشهرة ثم ذكر لذلك أمثلة خاتما بتوجيه الخطاب للناشئين والطلبة «**... فاعتبروا معاشر الطلبة هذه المواطن وأمثالها، وانظروا ما أبعدنا من الإخلاص، وكم بيننا وبين من قرأ العلم امتثالا لأمر ربه واستقام، وتيقنوا أن الموت نازل عن قريب، ولا ينفعنا ما نكتسبه من الوجاهة، ولا ما نجمعه من الحطام، فالتدارك التدارك بطلب العلم النافع الذي تحصل معه خشية الله ومراقبته في الاقدام والإحجام، ويتوصل به إلى الاطلاع على عيوب النفس المعين على التخلص من ربقة الرضى عنها الذي هو أصل كل معصية وحزن واغتمام، وما يعرف به المرء حاله وما هو عليه فتنجوا بذلك من الغلط واعتقاد الكمال الذي لا تتطلب معه التوبة ولا يرى عنده عتب ولا ملام، وإذا عرف المرء حال نفسه بعثه ذلك على مدافعة الخواطر الفاسدة والتحرز عن توطين النفس عليها فيقرأ العلم وإن خاف العجب مستغفرا منه وهذا مقصودنا من سوق جملة الكلام**» ويعلق بناني على ذلك بقوله «**فقف عليه وتأمله واستفد منه شدة مراقبته لنفسه ومحاسبته لها واتهامها لها وعدم رضاه عنها وهكذا الفضلاء العارفون لا يرون لأنفسهم ولا لأعمالهم مزية ولا يدعون ولا يتكبرون**» ثم يفيض في الحديث عن المراقبة والعجب ذاكرا أطرافا واسعة من شهادات العلماء والفقهاء بين مغاربة ومشارقة.

5) شيوخه :

لم يرد لنا صاحب التحلية قائمة شيوخ ابن زكري كاملة، فقد أهمل البعض وتناول البعض الآخر بإيجاز واقتضاب، بينما ركز على واحد فقط فعرفنا به مسهبا، ونشر أمامنا مجموعة فسيحة من أخباره ومآثره الصالحات واهتماماته المتشعبة، ذلكم هو المناوي (3) الذي قدمه هكذا «**ومن أشياخه من علماء الظاهر الذين شاع فضلهم عند كل باد وحاضر، محمد بن أحمد بن المناوي الدلائي قال بعض الشيوخ من تلامذته كان آية الله تعالى في الحفظ والاتقان والضبط ما رأت عيناي قط مثله خلقا وخلقا وإنصافا ومروءة**

وتواضعا ووقارا واحتمالا وحياء وصبرا وصدق لهجة وسخاء وإيثارا مع تبحره في علم النحو وبلوغه فيه مبلغا لم يصل إليه أحد من أترابه مع المشاركة في سائر العلوم العقلية والنقلية والحديثية وحسن الادراك وقوة الفهم وحب الخير للمسلمين» وبعد ذلك انشغل بحصر شيوخه وكعادته أفرد أبا محمد عبد القادر الفاسي بالحديث المطول مقتصرا على ذكر سنده في كتاب الموطأ الذي رواه عن عم أبيه العارف بالله تعالى أبي زيد سيدي عبد الرحمان الفاسي المتوفى سنة ست وثلاثين وألف، وهو عن العلامة النظار، أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار المتوفي بمراكش سنة اثنتي عشرة وألف... وهلم جرا الخ ما ذكره في الكتاب، أما كلامه عن شيخه الآخر محمد الفاسي المتوفي سنة 1116 هـ فهو على قصره كان يرشح بالإعزاز والإكبار ويفيض بالتجلة والتقدير وقل مثل ذلك في شرفاء وزان والحاج الخياط الرقعي المتوفي سنة 1115 هـ.

6) تلامذته :

كان قرار الشيخ ابن زكري بالديوان من حومة الصاغة وعدوة فاس القرويين، وكان إماما بالمجد الذي هنالك، وله به مجالس للعلم يقرئ فيه غدوة الحكم لابن عطاء الله حتى ضاق المجد على الناس، وضع به سرير من خشب يجلس عليه بعض الناس من الضيق وكثرة الازدحام، وفي رحابه أخذ عليه جم غفير من النبهاء كثرت أسماؤهم وطال عددهم حتى كاد يخطئهم قانون الضبط والحصر، وكدأب بناني، نراه قتورا مقتصدا في الحديث عن بعض تلامذته النجباء أمثال أحمد بن قاسم جسوس ومولاي حمدون طاهر ومحمد بن عبد العزيز الطاهر الجسني، على حين أطنب في الكلام عن تلميذه عبد المجيد الزبادي المنالي المتوفي عام 1163 هـ وربما لأنه كان ألزمهم له وأحفظهم لذكره وأرعاهم له بظهر الغيب، كما أثبت له قصائد في مدح المترجم منها قوله :

أجلت في النـــــــــاس فكري
في الصحـــــــــو مني وسكري

فلم أجـــــــد طـــــــول عمري
شيخـــــــا كشيخي ابن زكري

وأورد له أخرى : كلاميته التي خاطب بها شيخه يوم ختمه الجامع الصحيح في صفر سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف وهائية أنشدها في حضرته يوم ختمه حكم ابن عطاء الله أواخر جمادى الثانية من نفس العام، وثالثة شيعه بها يوم خرج حاجا بخامس رجب عام اثنين وأربعين ومائة وألف ومطلعها :

أستـــودع اللـــــه من ســـــاروا بقلبي
في هـــوادج المجـــد فـوق الـدهم والإبـل

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن صاحب التحلية اتكأ كثيرا على العرف الشحري وهو ينجز كتابه ذاك.

7) مؤلفاته :

وبإمكان متصفح المخطوط أن ينجز مسردا كاشفا لبعض مؤلفات ابن زكري نذكرها كما وردت، وقبل ذلك أود أن أشير إلى أنه كان في نية ابن زكري تفسير القرآن الكريم كاملا لو مد الله في أجله بدليل ما جاء في الورقة الخامسة : ﴿**وكان مراده رحمه الله تفسير الكتاب العزيز كله بدليل قوله في آخر تفسير سورة الكهف انتهى تفسير سورة الكهف والله أسأل أن يمدني بالإعانة على ما بقي إنه على كل شيء قدير**﴾ ومعنى هذا أنه فرغ من تفسير النصف الأول من القرآن الكريم ولم يكتف بتفسير بعض الآيات والسور كما يظن البعض.

1) **السيف الصارم في الرد على المبتدع الضارم** (4) وهو في تقبيح بدعة التفريق بين المسلمين، وأشار صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى إلى تسمية أخرى وهي : الفوائد المتبعة في العوائد المبتدعة، وليس فيه تفضيل العجم على العرب.

2) وهنا سأورد ما جاء في الورقة الثامنة والخمسين وهو مما قاله صاحب العرف الشحري في مدح تأليف شيخه ابن زكري خصوصا وعموما فمن الأول قوله في شرح الفريدة :

يـا إمـامـا لـه الخصـال الحميـدة
والـجـايـا مـع المـزايـا العـديـدة
وأطـاعت لـه العلـوم أصـولا
وفروعـا لهـا البحـار مـديـدة
وضح النحـو مثـل صبح بـأفـق
عنـدمـا جئتنـا بشرح الفريـدة
فجـزاك الإلاه خير جـزاء
يـا ابن زكري كمـا نفعت عبيـده
وقوله رضي الله عنه في شرح النصيحة :
يـا إمـامـا حـوى الفهـوم الفسيحـة
وروى مسنـد العلـوم الصحيحـة
لم تـزل تتحف البرايـا بنصـح
ثم أكملتـه بشرح النصيحـة
وقوله قدس الله سره في شرح الحكم :
جـزيت ابن زكري بخير فكم
تهـاك برفـع المحـل حكم
مـدى الـدهر ترشـدنـا للهـدى
وتشفي من الجهـل كيفـاوكم
وأتحفتنـا ولـك الأجر إذ
منحت المريـدين شرح الحكم
ومن الثاني قوله :
أطـالب العلم إن نشـأ بـدائعـه
وشرح غـامضـه وفـك معضلـه
وعقـل شـارده ونفي وارده...
وجبر نـاقصـه، وذكر مغفلـه
وجمـع مفترق ونظم منتثر
وقصر مـا طـال مـع تبيين مشكلـه
فـانظر تـآليف شيخنـا ابن زكري تجـد
للعلم في طيبهـا سيفـا بمنصلـه (5)

8) تبرئته :

لقد أرغمت إنتاجات ابن زكري الفكرية مثقفي عصره بفاس على أن ينقسموا إلى أنصار وخصوم أثاروا زوبعة من المشادات الكلامية لم يرتفع غبارها ويشتد أزيزها إلا بعد موته، ولعل أخطر تهمة اقترنت بشخصيته تلك التي روج لها المؤرخ محمد بن الطيب القادري (1124 ـ 1187 هـ) وخلاصتها أن المترجم سخر تآليف بأكملها في تفضيل العجم على العرب، ولم يكن بناني صاحب مخطوطتنا ليسكت عن ذلك أو يمر على الحادثة مرور العجلان الذي لا زاد له وإنما وقف لينتصر له ويدافع عنه دفاعا حارا بعد أن أورد طائفة لابأس بها من شهادات برأت ساحته واعتبرت ما قيل في حقه لغوا لا يعتد به وبهرجا لا يؤبه له يقول : **«وأخبرني شيخنا العلامة أنه سمع شيخنا الإمام القدوة البركة الهمام صاحب الأخلاق الزكية والخصال الجليلة المرضية والمآثر الحميدة والتصانيف العديدة أبا عبد الله سيدي التاودي بن سودة رحمه الله تعالى ورضي عنه يقول إن ما ينسبه بعض الناس إلى الشيخ ابن زكري مكذوب عليه مفتري وأن تأليفه المنسوب إليه فيه تلك المقالة متقن محرر، وممن برأ ساحة الشيخ مما نسب إليه شيخ شيوخنا الإمام العلامة صدر المحصلين الساعي مدة عمره فيما يرضي الله رب العالمين صاحب الفتح الرباني أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسن بناني رحمه الله تعالى ورضي عنه وذلك أنه كتب بخط يده على كلام المؤرخ** ـ أي القادري ـ **ما نصه : حاشا الله لم يقل ذلك ولم ينتسب إليه وإنما مضمن تأليفه منع التفضيل بين الأشخاص بغير التقوى... وحدثني ولده... إنه كان يقول أنا أكون خصيما لذاك المؤرخ يوم القيامة في المحشر عن الشيخ ابن زكري**، وقد علق على هذه الشهادات بقوله : **«وبهذا كله يتبين لك أنه لا يحل لمن نظر في تأليف الشيخ وما خطه فيه من الكتابة أن يعتقد أن الحامل له عليه العصبية والقرابة وأنه لا عبرة بمن زعم هذا فإن من ثبت دينه واشتهر علمه كهذا الشيخ لم يلتفت فيه لكلام أحد»**.

9) مرضه... موته... وصيته :

قال صاحب المخطوط «قال تلميذه في العرف الشحري **وقد دخلت عليه يوما أعوده مع بعض الإخوان فذكرت له بعض شفقتنا عليه، وشوقنا إليه، فقال انظروا إلى قلوبكم فكذلك هي قلوبنا معكم أو أكثر ووالله لو وجدت ما غبتم عنا لحظة ولكن لاخيار مع الزمان، ثم طلب منا أن ننوب عنه في زيارة أبي غالب عشرة أيام فانصرفنا عنه وهذا آخر ما سمعته منه من الكلام، فلما كان عاشر الأيام نزل به جيش الحمام، فقبضه الله إليه وقد ناح لفقده حتى مطوق الحمام، ليلة الأربعاء الثامن عشر من صفر سنة أربع وأربعين ومائة وألف فأصبحنا لمصابه لا ندري وراء من خلف والجفن في نشر للدموع ولف.**

وقد كتب وصيته وجعلها تحت وسادته امتثالا لما ورد في ذلك، ونستغني عن إثباتها بتدوين أهم ما رود فيها :

1) أن يغسله بعض السادات الشرفاء من الطاهريين ويحضر معه من يعينه ممن يحسن كيفية الغسل من طلبة العلم.

2) أن تحدد أجرة الغاسل والحامل للنعش وأن يسرع في التجهيز وعدم انتظار وقت معين.

3) الذي يغسله هو الذي يدخله في قبره ولا يدفع شيء من ثيابه للغاسل فإن ذلك من البدع المنهي عنها.

4) ان يكون الدفن بين ساداتنا الشرفاء الطاهريين يشتري له موضع هناك من ثلث متخلفه... الخ...

وقد حظيت هذه الوصية باهتمام المؤلف فراح يعلق عليها ويذيلها بفوائد شاء لها أن تكون تذكرة لأولي الألباب يوم المعاد والمآب بلغ بها اثنتين ومائة فائدة قال بعدها : «**هذا وقد نفذت وصية الشيخ رضي الله عنه وأقبر بأقصى الدرب الطويل من عدوة فاس القرويين مع ساداتنا الشرفاء الطاهريين وقد جمع ذلك المحل وما حوله جماعة من العلماء والعاملين والأولياء الصالحين**».

10) رثاؤه :

وبأبيات في رثائه ينتهي ما معنا من أوراق هذا المخطوط الذي لم يشر أحد إلى مكان وجوده، والقصيدة لتلميذه عبد المجيد الزبادي سماها «**نوح القمري على فقد ابن زكري**» ووطأ لها بما نصه : «**وقلت أرثيه وأبكيه، وأرغم عدوه وأنكيه، مشيرا إلى تجديد الحزن على فقد شيخنا أبي عبد الله سيدي محمد ابن العلامة صاحب التصانيف الشهيرة سيدي محمد ميارة وقد توفي يوم الجمعة منتصف المحرم فاتح السنة المذكورة (1144 هـ) وحيث لم يكن الوقت وقت رثائه فليس في سوقه على سبيل التبرك بذكره والتشريك في هول البين ونكره ما يستبعد ويستنكر، فالشيء بالشيء يذكر**» ثم قال :

أبـك الربوع ولا تكن كـالجلمـد ... مـا رأي من لم يبكها بمسدد

وأدر الـدمـوع بمرسـل ومسلسـل ... لا ترض بـالمقطوع دون المسند

وزد الـولـوع ولا تخـالـط في الهـوى ... ملـلا فتترك في البراح المصلد

وإذا انتهى الـدمـع اختصر ثلثـا وجـد ... منـه بثلثيـه ودم كـالأرمـد

حـال الأسى دون الأسى فـالقلب من ... وجـد على حـد الحسـام المجرد

لمْ لا وأنت فقـدت جمـع أحبـة ... قـد أنقـذوك من الجحيم الموقـد

سلكـوا بـك البيضـاء دون تشعب ... وأروك سر السير في كم مشهـد

والحق أن دراسة هذه المخطوطة المفيدة تتطلب منا وقتا وإرادة، وصبرا وأناة، وكلها أمور لا تخطئ الباحث لولا أن رغبتنا في إخراج هذه العجالة إلى حيز الوجود كانت أوفى وأوفر، وكل ما نأمل أن تعقبها دراسة مكملة تتناول أدب ابن زكري وآراءه ونشاطه الفكري في مصر.

هوامش :

☆) العنوان الكامل للكتاب هو : تحلية الآذان والسامع بنصرة الشيخ ابن زكري العلامة الجامع. أو الوجه المقري بنصرة العلامة ابن زكري. أو النور اللامع، وكنز رواة المجامع. أو المنهل العذب المروي، في نصرة العلامة ابن زكري، أو بستان الفوائد المحدثات البدائع. أو رشف الضرب، بتفضيل بني إسرائيل والعرب انظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى عبد السلام بن سودة ج 1 ص 48.

1) انظر محمد الأخضر الحياة الأدبية على عهد الدولة العلوية ص 217 هامش 1 ـ ابن سودة الدليل ج 1 ص 189...

2) هذه الشهادة وأمثالها مستقاة من كتاب العرف الشعري لعبد المجيد الزبادي.

3) محمد الأخضر الحياة الأدبية ص 196 وكذا المراجع والمصادر التي ذكرها في هامش 1.

4) ورد العنوان في الدليل ج 1 ص 118 هكذا «السيف الصارم في الرد على المبتدع الظالم» بدل الضارم التي في المخطوط وفي اللسان ضرم عليه وتضرم إذا احتد غضبا.

5) لابن زكري مؤلفات أخرى وردت في ثنايا المخطوط وعند محمد الأخضر الحياة الأدبية ص 218 / 219.



طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

التمهيد
لما في الموطأ من المعاني والأسانيد

تأليف:
أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد
بن عبد البر النمري القرطبي
(368 - 463 ه)

الجزء الحادي عشر

تحقيق:
الأستاذ مولاي مصطفى بن أحمد العلوي

1406 هـ ـ 1985م

الأستاذ الفقيد إبراهيم الإلغي (*)

للأستاذ عبد القادر العافية الخراز

هو أبو إسحاق[1] إبراهيم بن علي الإلغي[2] الجعفري[3] وقد اختار لنفسه في المدة الأخيرة اسم (رضا الله) وهو الذي احتفظت به سجلات الحالة المدنية[4].

ولد بقرية الغ، بقيادة تافراوت، من أرض سوس في أول شعبان عام 1328 هـ (8 ـ 8 ـ 1910م)[5].

توفي والداه بعد بضعة أشهر من ولادته، فنشأ يتيما تحت كفالة وتربية أخته عائشة، وشقيقه العالم الأديب محمد المختار السوسي، وإلى شقيقه هذا يعود فضل نبوغه وتمكنه من أصناف المعارف، إذ كان مدرسته الأولى التي شقت له الطريق نحو كسب العلوم، سواء في مسقط رأسه سوس، أو في مدينة مراكش، أو في مدينة فاس التي درس فيها النحو واللغة والأدب والتاريخ[6] وتذكر، ممن تلقى عنهم العلوم، الطاهر الكتاني والعباس بناني، ومحمد بن الحبيب الفيلالي، ومحمد بن العربي العلوي، والحسين العراقي، وأحمد بن المأمون البلغيتي[7]، وعبد الرحمن ابن القرشي[8]. ولما انتقل إلى الرباط جلس إلى حلقات المصلح أبي شعيب الدكالي، والمدني ابن الحسني ومحمد السايح.

وبقدر ما غلب على دروسه الفاسية بالقرويين طابع علوم الفروع الذي كان غالبا على حلقاتها تميزت دروس الرباط بغلبة طابع الأصول والحديث اللذين عمل على بثهما هناك المصلح الدكالي.

وإلى جانب الأصول والفروع، كان الفقيد حريصا على حضور الدروس الحديثة والعصرية التي كانت تقدم في كل من زاوية ماء العينين، وثانوية مولاي إدريس إبان فترته الفاسية.

ولما كانت رغبة شقيقه قوية في تكوينه، كان حريصا على تتبعه بالقراءة والتوجيه والاستظهار، فكان ينتقي له ما ينمي به أسلوبه، ويصقل لسانه، وعلى رغم كثرة ما عرفه المغرب من كتابات المشارقة خلال الفترة، فقد كان حظ المنفلوطي من فقيدنا أكبر من غيره[9].

وقد ربى فيه جلوسه إلى الحلقات، واكبابه على القراءة، عصامية دفعت به إلى التثقيف والتكوين فكسب بذلك دراية في علوم اللغة والفقه والأدب.

كما مكنته درايته تلك أن يستقطب حوله مجموعة من الطلبة سواء أثناء إلقائه لبعض دروسه الأولى بمساجد مراكش مجرد عودته إليها، أو أثناء تسييره للمدرسة الحرة التي انشاها شقيقه محمد المختار السوسي بمراكش، ونفس الشيء كان منه ـ رحمه الله ـ عندما ترك هذه والتحق بمدرسة جسوس الحرة، التي كان يديرها أحمد بلافريج بالرباط.

(*) نص الكلمة التي أعدها كاتب المقال لذكرى تأبين الفقيد إبراهيم الالغي المقامة بتطوان يوم 13 ربيع الأول عام 1406 (1985/11/26).

1) عبد السلام ابن سودة «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» ج 2 ص : 444 ط 2.

2) محمد المختار السوسي «المعسول» ج 2 ص 282، وعبد الوهاب ابن منصور «اعلام المغرب العربي» ج 1 ص : 203.

3) عبد الحي القادري، نقلا عن الفقيد، والنسبة إلى جعفر بن أبي طالب.

4) عبد الوهاب ابن منصور، المصدر السابق.

5) المصدر السابق، وجاء في ترجمته المثبوتة بكتاب «جوائز المغرب ومرويكوس للاداب» الصادر عن معهد مولاي الحسن عام 1953 ص 13، أن ولادته كانت سنة 1912.

6) عبد الوهاب ابن منصور، المصدر السابق.

7) نفس المصدر.

8) جريدة الوحدة المغربية ع 88 ص 6 بتاريخ : 1939/4/28.

9) عبد الوهاب ابن منصور، المصدر السابق.

وتعتبر المدرستان السالفتا الذكر من أولى المدارس الحرة التي عرفتها البلاد المغربية آنذاك، كما تعتبران من المعاقل الوطنية الأولى بهذه الديار.

ولما تعرض شقيقه للاختطاف الذي ألقى به منفيا بتارودانت يوم الخميس 11 مارس 1937[10] وكثرت برقيات الاحتجاج في شأن هذا النفي[11] انطلقت حملة الاعتقالات الانتقامية بين صفوف الوطنيين، فكان منهم من تعرض للنفي والتعذيب، ومنهم من نجا بنفسه إلى المنطقة الخليفية التي كانت صبغة سياسة الحكم الإسباني بها آنذاك على نقيض ما يباشره الاستعمار الفرنسي في جنوب البلاد، اتجاه المغاربة، وكان الفقيد من الجماعة التي وصلت تطوان عبر مدينة طنجة.

حل الشاب إبراهيم الإلغي بمدينة تطوان، واحتلت هي من نفسه مكانة خاصة، فاندمج في مجتمعها سياسيا وثقافيا، شجعه على ذلك، وجوده إياها في أوجها السياسي، وفي أوجها الثقافي، تمثل الأول فيما كانت تعيشه من صراعات حزبية، حزب الإصلاح الوطني الذي كان يتزعمه عبد الخالق الطريس، وحركة الوحدة المغربية التي كان يقودها محمد المكي الناصري، وهما آنذاك ـ حديثا عهد بالنشوء، فانضم فقيدنا إلى صف الناصري، وجعل من نفسه صوت حركته وشاعر وحدته، وعضوا مهما في حزبه[12] بلغ حد التقدير والاحتفاء والاحتفال[13]، وهذا ما جعله يسجل امجاد هذه الحركة فيما كتب شعرا ونثرا.

ويبرز الجانب الثاني ـ جانب الثقافة ـ فيما كانت تصدره المدينة من مجلات وجرائد، وما كانت تزخر به من نوادي ثقافية لا تنقطع أنشطتها طيلة أيام الأسبوع، ونذكر في مقدمة هذه الأندية نادي جمعية الطالب المغربية ونادي الوحدة المغربية، الذي ساهم الفقيد في إثرائه بما قدمه بين جدرانه من أنشطة إبداعية وفكرية رغبة في الظهور على النوادي الأخرى، التي كانت تنافسه ثقافيا وسياسيا حسب التبعية الحزبية التي كان ينتمي إليها كل منهما.

كما يبرز هذا الجانب فيما كانت تحتويه تطوان من معاهد للبحث والتثقيف، نذكر في مقدمتها معهد مولاي الحسن للأبحاث الذي تم إنشاؤه عام 1937م ومعهد فرانكو الذي أنشيء عام : 1939م وإلى هذين المعهدين يعود الفضل في طبع الكثير من المؤلفات المغربية والمشرقية، كما رصدا جوائز كانت مثار الكثير من الأقلام.

إلى هذه الحركة الثقافية التي عرفتها مدينة تطوان خلال هذه الفترة، يرجع الفضل في تفتيق قريحة فقيدنا، وبسط أنامله لمعالجة ما تعج به من قضايا متعددة المواضيع مختلفة المناحي، كما تعد حسب ما صرح لي هو نفسه رحمه الله، في عدة جلسات من أخصب وأهم فترات حياته فقد شرع يحدثني في إحداها، عما عرفته تطوان خلال هذه الفترة من حركة ثقافية، ودون شعور منه صرح لي بمدى تأسفه عن ترك الكتابة وقول الشعر، وارتمائه بين أبواب وفصول الفقه والقانون، وانطلق يحدثني عن الفقيه المؤرخ أحمد الرهوني مؤلف «عمدة الراوين في أخبار تطاوين»، وعن الفقيه أحمد الزواقي، ومحمد الفرطاخ، ومحمد ابن موسى، وما كان له من فضل نشر العلم في هذه الربوع التطوانية، معددا لي ما كان يتميز به طبع كل منهم، وقد غلب على كلامه الإعجاب بشخصية ابن موسى في ميلها إلى الاعتزال والتثبت في القول، والتحفظ في الخطاب، والاكتفاء بطرائفه وتحكمه وبشخصية التهامي الوزاني، التي عدد لي الكثير من جوانبها، ومما وقع بينهما من طرف ونوادر.

وقد انطبع بعض هذه الصفات على حياة فقيدنا فقد كان ميالا إلى العزلة، كثير التحفظ في حديثه ومناقشاته، مجانبا لكل ما يمس بالآخرين.

وتعتبر هذه الصفات من الأسباب التي جعلته يعمل في عدة مناصب، ويكسب عطف كل الاتجاهات وهذا ما

---

10) جريدة الأطلس ع 6 ص 3 بتاريخ : 1937/3/26.

11) انظر نماذج منها بالمصدر السابق.

12) جريدة الوحدة المغربية ع : 88 ص 6 بتاريخ : 1939/4/28.

13) جريدة الوحدة المغربي ع : 58 ص 3 بتاريخ : 1938/9/16.

14) ذهبت مجلة المعرفة إلى أن تأسيسه كان عام 1938، ونفس الشيء قالته بالنسبة لمعهد مولاي الحسن للأبحاث.

حدا ببعض مؤبنيه إلى وصفه بالسياسي المتزن[15] عمل أستاذا بالمعهد الخليفي الذي تحول فيما بعد إلى معهد مولاي الحسن للأبحاث[16] وبمعهد مولاي المهدي[17] وبالمعهد المغربي للدراسات الثانوية[18] وبالمعهد الفني[19] وبالمعهد الديني العالي[20] الذي أصبح مديره (شيخه) فيما بعد[21] وبالمعهد الموسيقي، وبمدرسة المعلمين والمعلمات بتطوان، وبعد انتقاله للرباط عين أستاذا لأصول الفقه بكلية الحقوق.

والصفات نفسها جعلته يحظى بعدة جوائز، نذكر منها جائزة المغرب ومرروبكوس للآداب عام 1953 عن موشحته التي تتغنى بمسارح الجمال بتطوان[22]، كما جعلته أن يكون عضوا بين باقي أعضاء لجنة تحكيم هذه الجائزة في مسابقتها لعام 1955م[23].

ولم تقف الصفات السالفة عند حد ما عرضنا له، ولكنها دفعت بكل المجلات والجرائد إلى الترحيب بكتاباته فقد نشر في كل من مجلة، صحيفة معهد مولاي المهدي، ومجلة الأنيس، ومجلة الأنوار، ومجلة المصباح، ومجلة المعتمد، ومجلة المعرفة، ثم في كل من جريدة الوحدة المغربية، وجريدة الشهاب، وجريدة الأخبار وجريدة النهار، ولما انتقل إلى الرباط، نشر بمجلة دعوة الحق ومجلة الإرشاد وبجريدة العلم، ونصيب كتاباته على صفحات هذه قليل جدا إذا ما قورن بكتاباته في صحف تطوان.

كما ساعدته الفترة على التصدي للتأليف، حيث وضع مشروعا لإخراج مجموعة من الكتب المدرسية بعضها في قواعد النحو والصرف والبلاغة، وأخرى في المطالعة وثالثة في الإسلاميات، ورابعة في تاريخ الأدب العربي، وإذا كانت مجموعة النحو والصرف والبلاغة، ومجموعة المطالعة ظلتا ماثلتين للطبع لم تريا النور كما ورد ذلك على ظهر الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الأدب العربي» فإن سلسلة «الإسلام» قد صدرت في أربعة أجزاء وهي تعكس ثقافة الرجل الدينية في التفسير والحديث والفقه والعبادات، أما سلسلة تاريخ الأدب العربي فقد صدر منها جزءان : الأول والثاني، وهما من مشروع الأربعة أجزاء التي حدد مادتهما في مقدمته للجزء الأول الذي صدر عام 1953، وقد خصصه لفترة «العصر الحديث بالعالم العربي»[24]، وقد صدر الجزء الثاني عام 1955، خصصه للأدب المغربي والأندلسي من الفتح الإسلامي إلى ما قبل عصر النهضة[25]، وهما يعتبران ذخيرة من ذخائر المكتبة المغربية لما استقلا به من نصوص في الأدب المغربي الحديث وقد اكتفى مؤلف «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» بالإشارة إلى الجزء الثاني دون ذكره للجزء الأول[26].

ولا نعتقد وجود إبداع لفقيدنا يرتبط تاريخه بإحدى فترات حياته التي سبقت دخوله مدينة تطوان، وهذا ما حثنا على استعراض جوانب من ديوانه الذي تناثر بين ما عددناه من مجلات وجرائد، وهو في مجمله يرتبط بمدح الخليفة السلطاني الحسن بن المهدي والباقي توزع بين الرثاء والطبيعة والاخوانيات، والماجلات، جاء في قوالب فنية متنوعة بين قصيد وتخميس وموشح ونشيد، وبذلك استطاع أن ينزع لنفسه عدة ألقاب، أولها شاعر القصر الخليفي الذي أصبح معروفا به بعد ذهاب الشاعر محمد الناصر الكتاني عن تطوان، وثانيها شاعر الوحدة المغربية[27]

---

15) عبد الحي القادري في كلمته التي ابن بها الفقيه الالفي.
16) هذان المعهدان من تأسيس محمد المكي الناصري.
17) جريدة الوحدة المغربية ع : 426 ص 6 بتاريخ 1945/2/25.
18) كتاب «جوائز المغرب ومروريكوس للآداب» السابق ص : 13.
19) مجلة الأنيس ع 8 ص 30 و31 بتاريخ نونبر 1946. ومجلة المعتمد ع 2 ص 7 بتاريخ : أبريل 1947.
20) كتاب «جوائز المغرب ومرويكوس للآداب» لعام 1953 ص 13.
21) مجلة الأنيس ع 107 ص 10 بتاريخ : دجنبر 1955.
22) انظر نصها في كتاب «جوائز المغرب ومرويكوس للآداب» السابق ص : 15.
23) انظر إعفاء لجنة تحكيم هذا العام بكتاب «جوائز المغرب ومرويكوس للآداب» لعام 1955 ص 7.
24) انظر مقدمة الجزء الأول.
25) انظر مقدمة الجزء الثاني.
26) انظر ص : 444 ط 2.
27) جريدة الوحدة المغربية ع 82/ ص 5 بتاريخ : 1941/5/23.

وذلك لما كان يوليه من إخلاص لهذه الحركة ولزعيمها محمد المكي الناصري، «كفء المعالي» و«زعيم النهضتين»[28] وثالثها شاعر تطوان وكان مقابل ما خصصه لوصفها ووصف منتزهاتها سواء بموشحته التي نال بها الجائزة أو بما عبر قصائده المدحية والإخوانية.

وتعريفا - وليس بحثا - سنعرض لبعض مواضيع القفيد الشعرية، مكتفين منها ببعض النماذج مستهلين ذلك بفن المدح، ونذكر له في هذا الباب القصيدة التي ألقاها بين يدي المغفور له جلالة محمد الخامس - طيب الله ثراه - أثناء احتفال وفود المنطقة الخليفية آنذاك تحت إشراف الخليفة السلطاني الذي أقيم لجلالته وهو في طريقه إلى مدينة طنجة في زيارته التاريخية التي كانت في شهر أبريل من عام 1947 وهذا مطلعها :

أي يـــوم، وأي حفـــل ومشهـــد
هـــذا يـــوم مـــؤرخ ومخلـــد

والتي من أبياتها :

مـا رأى النـــاس مثـــل أيـامـــه البيـ
ـض تجلت وهي أهنـــا وأرغـــد

ويختمها بقوله :

قرعينـــا مـــولاي عنـــدك شعب
يقـــظ لا يغره طيب مرقـــد
همم العـــزم ان يتيحـــك مـــا تصـ
ـبو إليـــه ومـــالـــه تتمهـــد
ـــدد اللـــه من خطـــاك وأبقى
شبلـــك البـــار من إليـــه المقلـــد
فهنيئـــا مـــولاي ثم هنيئـــا
طبت ممسى وطبت مسعى ومقصـــد

وأخذت منه الطبيعة نصيبها، وليست الطبيعة المطلقة ولكنها المرتبطة بشبابه وذكرياته ونكتفي منها بما ورد له في مدينتي تطوان وشفشاون، فمن الأولى نكتفي بفقرة من موشحته التي نال بها جائزة المغرب ومرويكوس للآداب السالف ذكرها، وهي الفقرة التي تصف ساحة الفدان :

اسقنيـــــه مشعشعـــــا
صـــافي الطبـــع والمـــزاج
كـــأس شـــاي منعنعـــا
شف عن تبره الـــزجـــاج
تحت فيء ســـــاحـــــة
وحـــديث مـــع الخليـــل
ســـاحـــة طـــاف حـــولهـــا
نفحـــة العـــابر البليـــل
والمقـــاهي تفيـــأت
ظلهـــا الـــسوارف الظليـــل
منتـــدى الشعب مربـــد
لـــلأحـــاديث والمقيـــل
ملتقـــاهم لـــدى الضحى
والليـــالي وفي الأصيـــل
والأغـــاني بـــأفقهـــا
تتهـــاوى وتستميـــل
زارهـــا الفن زورة
ســـاحبـــا ذيلـــه الطـــويـــل
فـــاستـــوت منـــه بـــاحـــة
مثلت فننـــا الجميـــل[31]

ولم يقصر الشاعر الالغي ترجمة إحساساته نحو تطوان فيما خصصه لها من قصائد، ولكن نجد بالإضافة إلى ذلك، مبثوثات ذلك الإحساس، بين قصيدة وأخرى من ذلك مثلا ما حملته قصيدته التي استدعاها مهرجان الاحتفال بذكرى مرور مائتي عام على تأسيس مدرسة لوقش الذي كان

28) انظر أبيات الالغي المنشورة الجريدة الوحدة المغربية ع : 131 ص 8 بتاريخ : 1940/3/22.

29) انظر نص القصيدة كاملا بمجلة الأنيس ع 15 ص 10 بتاريخ : أبريل 1948، وبجريدة الأخبار ع : 1193 ص 2 بتاريخ : 1947/4/14.

30) ورد هذا المطلع في نص مجلة المعرفة كما يالي :
ماذا لديك أخا الاشعار والأدب   هل أنت تنشد في ذا المحفل اللجب ؟

31) انظر نص الموشحة كاملا بكتاب «جوائز المغرب ومرويكوس للآداب» لعام 1953 ص 15، ومجلة الأنيس ع : 75 ص 10 بتاريخ : أبريل 1953.

بإيعاز من وزارة المعارف وتحت مباشرتها، ومما ورد ضمن هذه القصيدة قوله :

أيمـــا تطـــوان أنت سجـــل دهر
ومـــا تمحي الـــدهـــور ولا السجـــل
ورثت عن القرون تـــلاد مجـــد
أثيـــل لا يبيـــد ويضمحـــل
فمثلـــك من تمجـــده القـــوافي
ويطنب فيـــك مـــا يمتـــد حبـــل
فمهمـــا قلت من مـــدح كريم
يفيض مفـــاخرا فـــأنـــا المقـــل
وفيـــك اليـــوم يحـــدث مهرجـــان
لتكريم النهي ويقـــام حفـــل[32]

وقال في مدينة شفشاون، وهو يعكس ما رسته هذه المدينة من آثار في نفسه :

لست أنسى مـــدينـــة الراشـــديـــة
لا، ولـو نـازعتني عنهـــا المنيـــة[33]
فلئن كنت نـــائيـــا عنهـــا يـــومـــا
وتـــذكرت مـــالهـــا من مـــزيـــة
فســـابقى كـــآدم حين أخر
ج من جنـــة الخلـــود العليـــة
كيف أنسى ربـــوعهـــا وهي للعيـ
ـن جمـــال وللقلـــوب رويـــة
رسمتهـــا يـــد الطبيعـــة لـــوحـــا
تتجلى بـــه الفنـــون البهيـــة
وحبتهـــا السمـــاء من كـــل نـــور
وكستهـــا مطـــارفـــا سنـــدسيـــة
أهـــل شفشـــاون انعمـــوا بهـــا بـــالا
فهي لاشـــك جنـــة عـــدنيـــة
أنتم في شيـــوخكم وشبـــاب
مثـــل زهر بـــدوحـــة سرمـــديـــة[34]

كما أن لـه مساهمات عديدة في فن الرثاء، ومن الذين رثاهم الالغي نذكر، الفقيه أحمد الزواقي[35] ومحمد الفرطاخ[36] والأديب الفنان عبد القادر ابن موسى[37] ومحمد داود[38].

وخاض الفقيد في الشعر السياسي المباشر، تجلى أولا في قصيدته التي ترجمت تشفيه في الوجود الفرنسي حينما نزلت عساكر هتلر باريس، وصمم الإسبان على ضم مدينة طنجة للمنطقة الخليفية عام 1941، تمشيا مع ما عرفته آنذاك الأحداث الدولية، فقال الالغي بعد دخول الجيش الخليفي إليها قصيدة بعنوان «أمل تحقق» نقتطف منها الأبيات التالية :

قـــد سلمـــوا حـــق القـــوي وانكروا
حـــق الضعيف بخســـة ووقـــاح
قـــد اضرمـــوا نـــار الخـــلاف وحرمـــوا
أسبـــاب وحـــدتنـــا وربـــط صـــلاح
وسخـــوا على أوطـــانهم وذويهم
لكن على الضعفـــاء جـــد شحـــاح
أكلـــوا الثمـــار وآثرونـــا بـــالنـــوى
وتبجحـــوا بسخـــائهم وسماح
ولهم مـــوارد من قراح منـــاهـــل
وإذا وردنـــا فهي غير قراح
وابن البـــلاد بهـــا مهـــان ضـــائـــع
والعـــز والخيرات للنـــزاح

32) انظر نص القصيدة كاملا بكتاب «ذكرى مرور قرنين على تأسيس مدرسة لوقش» نشر وزارة المعارف بتاريخ : فاتح أبريل 1951.

33) توفي رحمه الله يوم الخميس 2 صفر 1406 هـ موافق : 1985/10/17.

34) انظر النص كاملا بمجلة المعهد ع 5 ص 7 بتاريخ : يوليو 1947.

35) انظر قصيدة رثائه بجريدة الشهاب ع 170 ص 1 بتاريخ : 1952/2/21.

36) انظر مجلة الأنيس ع 46 ص 19 والعدد : 62 ص 18، الأول بتاريخ : نونبر 1950 والثاني بتاريخ : مارس 1952.

37) انظر قصيدة رثائه بجريدة الأخبار ع : 1344 ص 3 بتاريخ : 1947/10/10.

38) جريدة أنوال : ع : 131 ص 14 بتاريخ : 1984/8/9.

وتمتعـــوا فيهـــــا بكـــــل جزيرة
وأبـــوا على الاهلين كـــل مبـــاح

وإذ ســـألنـــا بعض عـــدل منهم
كـــان الجـواب على لســـان صفـــاح

إلى أن يقول :

أنـــا بطنجـــة لا عـــدمنـــا أرضهـــا
أرض الجـــدود ومعقـــل الفتـــاح

أنـــــا بطنجتنـــــا لأول مرة
نبـــدي ميـــادئنـــا بغير جنـــاح

أنـــا حللنـــا دارهـــا من بعـــدمـــا
كـــادت تحـول زوابـــع الأريـــاح

أنـــا احتلفنـــا كي نـــدشن «وحـــدة»[39]
وطنيـــــة «في بيتهـــا»[40] المنـــداح

أمـــل تحقـــق فلنسر من بعـــده
للـــوحــــدة الكبرى بنفس كفـــاح[41]

وأمنيته في تحقيق وحدة كل أطراف المغرب لم تقف عند حد تضمينه لها في شعره، ولكنه كان حريصا على إبرازها حضوريا، فقد وافق أن زار وفد من أقاليمنا الصحراوية مدينة تطوان، وأقيم له حفل بمنزل الأستاذ محمد العربي الزكاري يوم الخميس 7 ذي الحجة من عام 1357 هـ وكـــان الترحيب والرد، على الترحيب شعرا[42] شارك فيه من المرحبين الشاعر إدريس الجاي وعبد الوهاب ابن منصور، وإبراهيم الالغي بقصيدة مطلعها :

خطر النسيم مبشرا بـــالأسعـــد
ويـــد الصبـــاح تبـل وجـه الأنجـد[43]

وقد سار المغرب حاثا خطاه شادا العزم محققا الأمل الذي كان يملا عزيمة الالغي رحمه الله تمثل في الأحداث التي أعقبت قصيدته هذه، إلى أن تحققت الوحدة الكبرى مع حدث المسيرة الخضراء العظيم.

وكانت قصيدته السياسية الثانية، تلك التي هنأ بها استقلال ليبيا معددا بطولات حماتها قال في مطلعها :

إلا أن هـــذا الشرق أسفر جـــانبـــه
بصـــادق فجرهـــا تغشـــاه كـــاذبـــه

هنـــــــاك على نهر المجرة أنجم
تـــزين شرقـــا لم تخنـــه مغـــاربـــه

نجـــوم تـــوارت حقبـــــه ثم أشرقت
شروقـــا بهيـــا أدهش الكـــون ثـــاقبـــه

غيـــاهب ولت كيف ولت ؟ فـــلا تـــسل
فمـــا هي إلا الليـــل ولت غيـــاهبـــه[44]

ولم يترك خواطره بمنجاة عن تسجيل رؤيتها وتحديد موقفها اتجاه ماهية الشعر، والغاية من وظيفته، فقد خصص قصيدة طويلة لتصوير مكنونية الشعر في نظره، مطلعها :

ايـــه يـــا شعر أين أنت فمـــا أهـ
ـنـــأ لمـــا أراك عني بعيـــدا ؟

إلى أن قال :

حبـــذا أنت متعـــة وحبـــورا
وسرورا لا ينقضي وسعـــــــــودا[45]

ويلحق بالموقف الفني السالف مشاركته شعرا ونثرا في المعركة التي عرفتها الفترة بين أنصار القديم وانصار الجديد في الأدب المغربي الحديث، وقد أعلن موقفه

39) يقصد ما دعته أحداث هذه الفترة من تقارب بين حزب الإصلاح الوطني وحركة الوحدة المغربية.
40) يقصد بيت الوحدة المغربية الذي كان مركز جمعيتها الثقافي.
41) انظر نص القصيدة كاملا بجريدة الوحدة المغربية ع : 175 ص 9 بتاريخ : 1941/3/28.
42) جريدة الوحدة المغربية ع : 74 ص 7.
43) انظر نص القصيدة كاملا المجلة دعوة الحق ع : 5 س 19 بتاريخ : ماي 1978.
44) انظر نص القصيدة كاملا بجريدة النهار ع : 389 س : 4 بتاريخ 9 ربيع الثاني 1371 هـ.
45) انظر نص القصيدة كاملا بمجلة المعتمد ع 2 س 7 بتاريخ : أبريل 1947.

صراحة في قصيدته التي اختار لها عنوان «دفاع عن القديم» التي منها :

كيف لي أن أنال غاية ما ترمـ
ـي إليـه[46] وكيف لي أن أجيـدا

لا تعنف فما التجدد شأني
ما أراه في الحق إلا قيـودا

شغف الناس بالجديد وأنسا
هم طريقا لديهم وتليـدا

ازدهاهم من جانبيه بريق
مثلما يخدع السراب الشهودا

مختهم يد التجدد حتى
لا تراهم في الشكل إلا قرودا

قلدوا غيرهم واقبح ما يأتي
كلام إذا أتى تقليـدا

فلهم مذهب ولي مذهب
الحق، فكل يمضي رشيدا حميـدا[47]

لم نقصد إلى الوقوف على كل شعر الفقيد، رغم توفرنا على مجموعة محترمة من نصوصه، كما أننا لم نهدف إلى بحثه وتحليله، أو تقصي القول في مواضيعه، وإنما هي ذكرى أثارتها في نفوسنا لحظات كانت جمعتنا به، تركت آثارها التي انطبعت فوق كلماتنا هذه المتواضعة في حق الفقيد لحظات ذكرتنا بالحديث الهادئ الرصين، والقول المتزن الصادر عن نفس تواقة إلى إعطاء كل شيء، ويكفيني وصف جلستي الأخيرة التي كانت معه ـ رحمه الله ـ بتطوان يوم الاثنين 24 يونيو 1985 أنها استمرت أربع ساعات، وكلها حديث عما عرفته هذه المدينة في الأربعينات والخمسينيات من حركة ثقافية وفكرية وسياسية ولولا قصد الاختصار، وتعمد الاقتصار لاسترسلنا في الكتابة عن كل ما يرتبط بهذا المربي المصلح الذي دخل سجل تاريخ المغرب الأدبي شعره ونثره، فمعذرة والله يوفقنا ويرشد الجميع، والمغفرة لملهم هذه الكلمات رحمه الله رحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله.

---

46) الخطاب موجه لمن طالبه بالكتابة على طريقة المحدثين.

47) انظر النص كاملا بمجلة الأنوار ع : 6 ص 19 بتاريخ : يناير 1948.

قضايا و أخبار

• المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية بإسلام أباد

سيرة الرسول عليه السلام، خاتم النبيئين، هي السيرة الشاملة لدعوة سيدنا محمد التي أضاءت المشارق والمغارب للإنسانية جمعاء، وتَضَوَّعَتْ مسكاً بها الغبراء، حيث تناقلتها الأمم والشعوب، جيلا بعد جيل، ثم سجلت، بعد ذلك، على مختلف العصور والأزمان... وستظل الكتابة في السيرة النبوية متصلة الحلقات، وسوف تظل العبرة والعظة بها، أيضا، والحديث عنها موجودا إلى أن تنفطر السماء، وتتكدر النجوم، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ونلاقي الواحد القهار، الكبير المتعال...

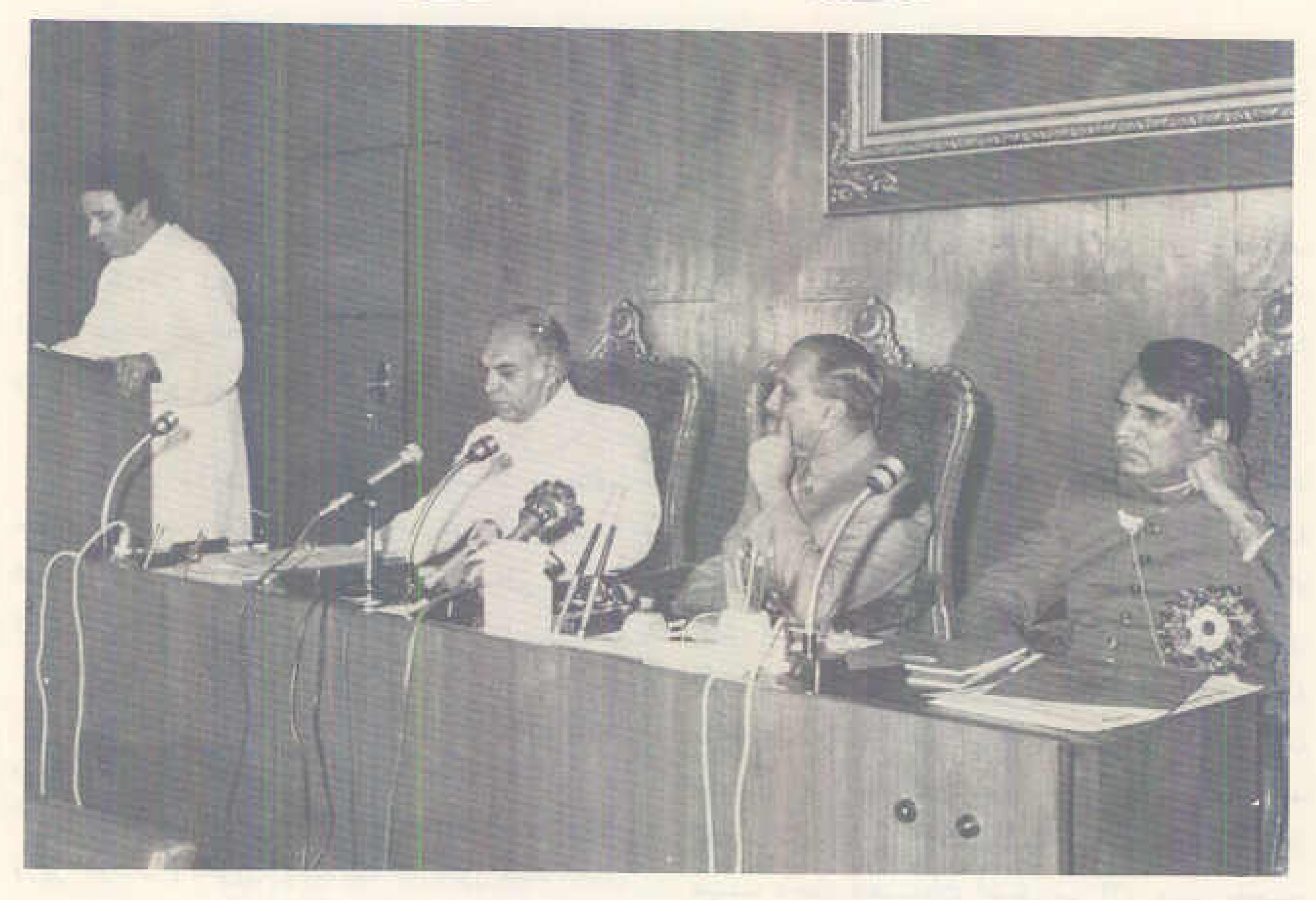
من أجل هذه المبادئ، والوسائل والغايات انعقد يوم الثلاثاء 12 ـ 13، ربيع الأول 1406 هـ = 1985/11/26م بإسلام أباد، عاصمة دولة الباكستان، المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية برعاية وزارة الشؤون الدينية، وقد حضرت لهذه التظاهرة العالمية وفود إسلامية من بقاع الأرض، ورقاع المعمور، من أمريكا، وجنوب شرقي آسيا، وآسيا الوسطى، والعالم العربي والإسلامي والإفريقي والاسترالي والأوروبي...

وبعد تلاوة آية من الذكر الحكيم.. وإنشاد قصيدة، باللغة الاردية، وبأنغام شجية في مدح خاتم النبيئين، تقدم السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربي الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، بطلب من رئيس المؤتمر



(صورة للمؤتمرين المشاركين في المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية)

قضايا و أخبار



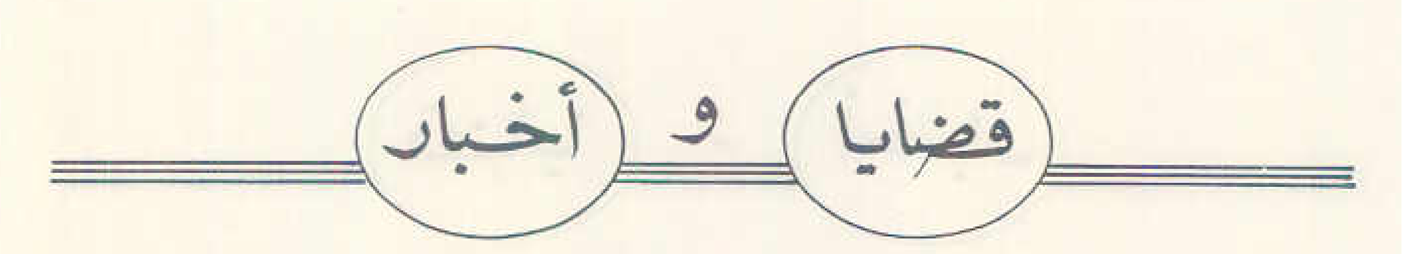
الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أثناء تلاوته كلمة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، وفي الصورة رئيس الجمهورية الباكستانية فخامة الفريق أول محمد ضياء الحق وهو يستمع إلى الكلمة السامية التي كانت فقراتها تقاطع بالتصفيق من قبل المؤتمرين

السيد غلام إسحاق خان رئيس مجلس الشيوخ الباكستاني، لإلقاء الكلمة السامية التي وجهها حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني إلى المؤتمر بهذه المناسبة الإسلامية.

أثناء إلقاء هذه الكلمة، كان موظفو الإدارة الباكستانية داخل قاعة المؤتمر يوزعون الرسالة الملكية الحسنية التاريخية التي وجهها العاهل العظيم إلى الأمة الإسلامية بمناسبة طلعة القرن الخامس عشر الهجري.

ثم تقدم، بعد ذلك الفريق أول محمد ضياء الحق رئيس جمهورية باكستان الإسلامية لإلقاء خطابه الجامع.

وعقب هذا الخطاب القيم الذي كان يفيض بالروح الإسلامية، ويعبق بنفس الاخوة والمحبة والسلام، وزع عدة جوائز على مجموعة من علماء العالم الإسلامي الذين قدموا بحوثهم في السيرة النبوية لهذا العام بلغات خمس : العربية، الاردية، التركية، الفارسية، الإنجليزية، وقد حصل



الدكتور الطيب النجار المصري أستاذ التاريخ الإسلامي، ورئيس جامعة الأزهر السابق على الجائزة الأولى عن كتابه : «القول المبين، في سيرة سيد المرسلين» الذي يعد المؤلف الخامس من بين مؤلفاته العشرة والذي تم طبعه منذ عام 1978 : كما وزع السيد الرئيس جائزة هامة تقدية للعالم المجاهد المرابط أبي الحسن علي بن الحسن الندوي، وتبلغ قيمتها نحو خمسة آلاف روبية باكستانية.

وقد قسم المؤتمر أعماله إلى أربع جلسات من بينها جلسة الافتتاح، وثلاث جلسات دراسية، ورأس الجلسة الختامية السيد محمد خان «جونيجو» رئيس مجلس الوزراء الباكستاني الذي ألقى خطاباً قيما إسلاميا..

وتشكلت لجنتان : الأولى كان موضوعها «الأمن والسلام»، والثانية موضوعها «ختم الرسالة» وبطلب من الأمين العام للمؤتمر، فقد أسندت رآسة اللجنة الأولى للسيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، كما أسندت رآسة اللجنة الثانية للدكتور عبد الله صالح العبيد رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وضمن البحوث الكثيرة التي قدمت للمؤتمر، فقد قدم الأستاذان محمد المنوني ومحمد بنعبد الله عضوا الوفد المغربي محاضرتين إلى لجنة المؤتمر. وكان موضوع محاضرة الأستاذ محمد المنوني : «هدي السيرة النبوية في التربية والتعليم». وموضوع الأستاذ محمد بنعبد الله بعنوان : «إسهامات علماء شبه القارة الهندية في إثراء الفكر الإسلامي، وعنايتهم بعلوم الحديث الشريف والسيرة النبوية» والموضوعان معا، يجدهما القارئ في هذا العدد.

• جائزة للكاتب المغربي يونس نكروف من الأكاديمية الفرنسية :

الكاتب المغربي يونس نكروف، حصل مؤخرا على جائزة التاريخ التي تمنحها كل سنة الأكاديمية الفرنسية، وذلك تقديرا لكتابه : معركة الملوك الثلاثة» المشهورة بمعركة وادي المخازن.

كتاب نكروف الصادر باللغة الفرنسية، يقع في 285 صفحة مقسمة على ثلاثة عشر فصلا، ويتناول الكتاب حقبة مهمة من تاريخ ملك البرتغال دون سباستيان الذي قاد جيش البرتغال لغزو المغرب فانـدحر في موقعة وادي المخازن والملاحظ، أن يونس نكروف، اعتمد في كتابة مؤلفه على وثائق أغلبها فرنسي وإسباني وبرتغالي لازال مجهولا، وهو الأمر الذي سهل على الكاتب دراسة وفهم العقلية الأوروبية في تلك الحقبة من التاريخ، كما سهل عليه دحض ادعاءات المؤرخين الأوروبيين بحجج استخلصها من الوثائق والمؤلفات والمستندات الأوروبية

• نحن المغاربة :

سفير صاحب الجلالة في رومة، الأستاذ يحيى بن سليمان، أصدر مؤخرا كتابا بعنوان : «نحن المغاربة : مشاكل النمو بين التقليد والتجديد»، وقد نشر بالاشتراك مع شركة النشر والتوزيع (المدارس) بالدار البيضاء ودار الغرب الإسلامي في بيروت. ويقع الكتاب في 340 صفحة من القطع المتوسط، ويتضمن أربعة أبواب ختمها المؤلف بملحق عن المعالم التاريخية في المغرب.



• ملفُ الصحراء المغربية :

في 250 صفحة من الحجم الكبير، صدر للأستاذ عبد الوهاب بنمنصور، مؤرخ المملكة وعضو الأكاديمية، كتاب تحت عنوان : ملف الصحراء المغربية الغربية أمام مؤتمر القمة العشرين لمنظمة الوحدة الإفريقية، ويعد الكتاب دراسة هامة مدعومة بالوثائق المتعلقة باسترجاع المغرب لوحدته الترابية في الجنوب يشتمل الكتاب على تمهيد في 80 صفحة، وعلى قسم خاص بيوميات دونها سيادة المؤلف عن مشاركة المغرب في مؤتمر القمة العشرين لمنظمة الوحدة الإفريقية الذي افتتح يوم 12 نوفمبر من السنة الماضية.

• كتاب الماء :

عن أكاديمية المملكة المغربية، صدر كتاب : الماء وماورد في شربه من الآداب، من تأليف العلامة العراقي محمود شكري الألوسي، ومن تحقيق الأستاذ محمد بهجت الأثري، عضو الأكاديمية وأحد أعلام الأدب والتحقيق التراثي في العراق.

والكتاب، عبارة عن رسالة تضمنت الأقوال المأثورة في الماء، وآراء الأطباء حول تغذيته، وفي الرسالة ذكر لأنواع المياه ووصف لبعض الأنهار كدجلة والفرات والنيل، وحديث عن سبب تكون المياه، وإشارات إلى منافع الاغتسال بماء البحر ومضار شربه وطرق تحليته.

ويقع الكتاب في 155 صفحة من الحجم المتوسط، وقد ألحقت به فهارس للآيات والأحاديث والأمثال والأشعار والأعلام والبلدان والأماكن.

• المضمون الإسلامي في شعر علال :

آخر كتاب صدر للدكتور حسن الوراكلي، أستاذ الأدب بجامعة محمد بن عبد الله بتطوان، بعنوان : المضمون الإسلامي في شعر علال الفاسي، وهو يقع في 192 صفحة من القطع الكبير، تتضمن التمهيد والمدخل والدراسة التي تشتمل على ثلاثة محاور رئيسية، هي : المحور الديني والمحور الاجتماعي والمحور الوطني.

• تاريخ شرق المغرب :

صدر للأستاذ قدّور الورطاسي كتاب جديد عن شرق المغرب، وهو تحت عنوان : «المطرب في تاريخ شرق المغرب» وكان قد سبق للأستاذ الورطاسي أن أصدر من قبل : بني يزناسن عبر الكفاح الوطني، فكَيكَ المجاهدة، تاريخ وجدة.

• الشعر الدلائي

صدر أخيرا عن مطبعة المعارف الجديدة بالرباط كتاب «الشعر الدلائي» من تأليف الأستاذ عبد الجواد السقاط، وهو دراسة أكاديمية تهتم بشعر الزاوية الدلائية، سواء منه ما أبدعه أبناؤها الشعراء، أو ما أبدعه غيرهم ممن كانوا يفدون على الزاوية للتلمذة أو التدريس، وسواء منه كذلك ما تم إنتاجه أثناء قيام الزاوية، أو ما أنتج بعد خرابها، وهي الدراسة التي انتهى فيها المؤلف إلى أن الزاوية الدلائية قد استطاعت أن تحافظ على العطاء الشعري في بلادنا، في مرحلة كانت تعرف ألوانا من الاضطرابات والأحداث، بل إنها ساهمت في خلق اتجاه شعري ترك بصماته واضحة على إنتاج العديد من الشعراء، نظرا لما كانت تتمتع به من إشعاع على مستويات كثيرة.

قضايا و أخبار

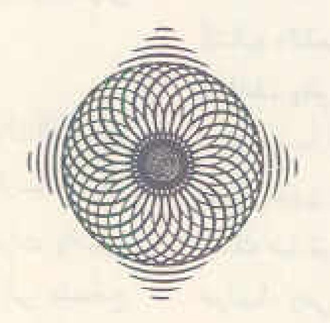
● رسائل جامعية :

□ «الفرق بين المذهب المالكي والمدونة في الزواج» ذلك هو عنوان البحث الجامعي الذي تقدم به الطالب إدريس الأزامي بكلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس. وتضمن البحث ثلاثة فصول، الأول خاص بتعريف النكاح في المذهب المالكي، والثاني خاص بالزواج في مدونة الأحوال الشخصية وما يتعلق بشروطه وأركانه مع عرض وثيقتي زواج إحداهما على عهد المذهب والثانية في عصر المدونة، وذلك بقصد المقارنة والتوضيح، وبالنسبة للفصل الثالث، فقد تعرض للفروق بين المذهب والمدونة مع صيغة عقدي زواج والتعليق عليهما.

□ جرت بدار الحديث الحسنية بالرباط، مناقشة دكتوراه في موضوع : منهج الإستثمار في ضوء الفقه الإسلامي». ويتكون البحث من 746 صفحة، وهو يشتمل على مقدمة خصصها صاحب البحث للتعريف بالاستثمار ومنهجه في الفقه الإسلامي، وعلى ثلاثة مباحث، الأول عن مفهوم الاستثمار بين الفكر الفقهي والفكر المعاصر، والثاني عن التطور التاريخي للاستثمار، والثالث عن خصائص المنهج الاستثماري الإسلامي.

□ نوقشت بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط، رسالة السيد راتب سليم الجعبري لنيل دبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص، وموضوعها الأسهم في شركات المساهمة وفقا لقانون المغربي والقانون المقارن».

□ ونوقشت بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالدار البيضاء، رسالة الطالب عبد الحق صافي لنيل دبلوم الدراسات العليا في القانون، في موضوع : دراسة نقدية للقانون المنظم للملكية المشتركة في المغرب.



مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

إضاءة الراموس

وإضافة الناموس على إضاءة القاموس

لأبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي الشركي العلمي

الجزء الثالث

تحقيق

عبد السلام الفاسي

الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

